

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الإسراء

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوي
الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

(ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم)

(الجزء الخامس عشر)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

نمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله
وأصحابه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير لسورة الإسراء ، أسأل الله - عز وجل - أن يجعله
خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، إنه مسمع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المدينة المنورة في ٥ / ١ / ١٤٠٤ هـ

الموافق ١٠ / ١٠ / ١٩٨٣ م

المؤلف

د . محمد السيد طنطاوى

تعريف بسورة الإسراء

١ - سورة الإسراء هي السورة السابعة عشرة في ترتيب المصحف ، فقد سبقتها سورة : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ... الخ .
أما ترتيبها في النزول ، فقد ذكر السيوطي في الإتيان أنها السورة التاسعة والأربعون ، وأن نزولها كان بعد سورة القصص (١) .

٢ - وتسمى - أيضا - بسورة بني إسرائيل ، وبسورة «سبحان» ، وعدد آياتها عند الجمهور إحدى عشرة آية ومائة ، وعند الكوفيين عشر آيات ومائة آية .

٣ - ومن الأحاديث التي وردت في فضلها ، ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال في بني إسرائيل ، والكهف ومريم ؛ إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلادي (٢) .
والعتاق : جمع عتيق وهو القديم ، وكذلك التالذ بمعنى القديم . ومراده - رضي الله عنه - أن هذه السور من أول ما حفظه من القرآن .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا حماد بن زيد ، عن مروان أبي لبابة ، قال : سمعت عائشة - رضي الله عنها - تقول : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصوم حتى تقول : ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى تقول : ما يريد أن يصوم ، وكان يقرأ كل ليلة : «بني إسرائيل ، وذو الزمر» (٣) .

٤ - ومن وجوه مناسبة هذه السورة لما قبلها ، ما ذكره أبو حيان بقوله : «ومناسبة هذه لما قبلها ، أنه - تعالى - لما أمره - في آخر النحل - بالصبر ،

(١) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ج ١ ص ٢٧ طبعة المشهد الحسيني .
(٢ ، ٣) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣ - طبعة مكتبة الشعب .

ونها عن الحزن عليهم ، وعن أن يضيق صدره من مكرهم ، وكان من مكرهم نسبته إلى الكذب والسحر والشعر ، وغير ذلك بما رموه به ، أعقب - تعالى - ذلك بذكر شرفه ، وفضله ، واحتفائه به ، وعلو منزلته عنده ، (١) .

٥ - وسورة الإسراء من السور المكية ، ومن المفسرين الذين صرحوا بذلك دون أن يذكر واخلاقا في كونها مكية . الزمخشري ، وابن كثير ، والبيضاوي ، وأبو حيان ...

وقال الألوسي : وكونها كذلك بتمامها قول الجمهور ، وقال صاحب الفيضان : بإجماع .

وقيل . هي مكية إلا آيتين : « وإن كانوا ليفتنونك » .. « وإن كادوا يستفزونك » ..

وقيل إلا أربعا ، هاتان الآيتان ، وقوله - تعالى - « وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس » ..

وقوله - سبحانه - : « وقل رب أدخلني مدخل صدق ... » (٢) .

والذي تطمئن إليه النفس أن سورة الإسراء بتمامها مكية - كما قال جمهور المفسرين - لأن الروايات التي ذكرت في كون بعض آياتها مدنية ، لا تنهض دليلا على ذلك لضعفها ...

والذي يغلب على الظن أن نزول هذه السورة الكريمة ؛ أو نزول معظمها ، كان في أعقاب حادث الإسراء والمعراج .

وذلك لأن السورة تحدثت عن هذا الحادث ، كما تحدثت عن شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - حديثا مستفيضا ، وحكت إيذاء المشركين له ، وتطاولهم عليه ، وتعتهم معه ، كما البتهم إياه بأن يفجر لهم من الأرض ينبوعا ...

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ٦ ص ٣ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ٢ .

وقد ردت السورة الكريمة على كل ذلك ، بما يسلي الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويثبتته ، ويرفع منزلته ، ويعلى قدره ... في تلك الفترة الحرجة من حياته - صلى الله عليه وسلم - وهي الفترة التي أعقبت موت زوجته السيدة خديجة - رضى الله عنها - وموت عمه أبي طالب ...

٦ - (١) وعندما نقرأ سورة الإسراء ، نراها في مطلعها تحدثنا عن إسماء الله - تعالى - بنبيه - صلى الله عليه وسلم - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعن الكتاب الذي آتاه الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - ليكون هداية لقومه ، وعن قضاء الله في بني إسرائيل ...

قال - تعالى : « سبحانه الذي أسرى بعهده ليلاً من المسجد الحرام ، إلى المسجد الأقصى ، الذي باركنا حوله ، لنزيه من آياتنا إنه هو السميع البصير . وآتيناه موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ، ألا تتخذوا من دوني وكيلاً . ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً . وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً ... »

(ب) ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن هذا القرآن قد أنزله - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ليهدي الناس إلى الطريق الأقوم ، وليبشر المؤمنين بالأجر الكبير ، وأن كل إنسان مسئول عن عمله ، وسيحاسب عليه يوم القيامة ، دون أن تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ...

قال - تعالى - : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، أن لهم أجراً كبيراً ... »

إلى أن يقول - سبحانه - : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً . من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنا مضل ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذرين »

(ج) ثم تسوق السورة الكريمة سنة من سنن الله في خلقه ، وهي أن عاقبة الترف والفسق ، الدمار والهلاك ، وأن من يريد العاجلة كانت نهايته إلى جهنم ، ومن يريد الآخرة ويقدم لها العمل الصالح كانت نهايته إلى الجنة .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور هذه المعاني بأسلوبه البليغ فيقول :
 وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها . فحق عليها القول فدمرناها تدميرا .
 وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا .
 من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا .
 ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . .

(د) وبعد أن بين - سبحانه - أن سعادة الآخرة منوطة بإرادتها ، وبأن يسمى الإنسان لها وهو مؤمن ، عقب ذلك بذكر بضع وعشرين نوعا من أنواع التكاليف ، التي متى نفذها المسلم ظفر برضى الله - تعالى - ومثوبته ، ومن تلك التكاليف قوله - تعالى - : لا تجعل مع الله إلها آخر ..

وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، ...

وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ..

ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ...

ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا .

ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ..

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ..

وأوفوا السكيل إذا كنتم وزنوا بالقسط المستقيم ..

ولا تقف ما ليس لك به علم ..

ولا تمش في الأرض مراحا

(هـ) وبعد أن سافت السورة الكريمة تلك التكاليف المحسنة التي لا تطرق

لإلها المسخ أو النقص ، في ثمانى عشرة آية ، أتبع ذلك بالشناء على القرآن الكريم ، وبتنزيه الله - تعالى - عن الشريك ، وبيان أن كل شيء يسبح بحمده - عز وجل - .

قال - تعالى - : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليعذركم وما يزيدكم إلا نفورا . قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لا بتفورا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا . »

(و) ثم تحكى السورة الكريمة جانبا من أقوال المشركين ، وترد عليها بما يدحضها ، وتأسر المؤمنين بأن يقولوا الكلمة التى هى أحسن ... فنقول : وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا أنما لمبعوثون خالقا جديدا . قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعبدنا قل الذى أنفطركم أول مرة ، فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريبا . يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبئتم إلا قليلا . وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ، إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا . »

وبعد أن تقرر السورة الكريمة شمول علم الله - تعالى - لكل شيء ، وقدرته على كل شيء ، بعد أن تقرر ذلك ، تحكى لنا جانبا من قصة آدم وإبليس فتقول :

وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا . قال أأرى لك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن خريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ..

(ح) ثم تسوق السورة بعد ذلك ألوانا من نعم الله على عباده فى البر والبحر ،

وألوانا من تكريمه لبني آدم ، كما تصور أحوال الناس يوم القيامة ، وعدالة الله - تعالى - في حكمه عليهم فتقول :

وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا . أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا

ثم يقول - سبحانه - : ولقد كرّمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا . يوم ندعو كل أناس بإمامهم ، فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك هم المفلحون ولا يظلمون شيئا

(ط) ثم تحكى السورة جانباً من نعم الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - حيث ثبتته - سبحانه - أمام مكر أعدائه ، وأمره بالمداممة على الصلاة وعلى قراءة القرآن ، لأن ذلك يزيد ثباتنا على ثباته ، وتكريما على تكريمه - .

قال - تعالى - : وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ، وإذا لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ...

ثم يقول - سبحانه - : أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا . ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا . وقل رب أدخاني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا

(ك) وبعد أن تقرر السورة الكريمة طبيعة الإنسان ، وتقرر أن الروح من أمر الله - تعالى - ، تتبع ذلك بالشأن على القرآن الكريم ، وبيان أنه المعجزة الخالدة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ويأيراد المطالب المتعنتة التي طالب المشركون بها النبي - صلى الله عليه وسلم - ...

استمع إلى القرآن الكريم وهو يقرر كل ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :
قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله
ولو كان بعضهم لبعض ظميرا . ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل
فأبى أكثر الناس إلا كفورا .

وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك
جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كزعمت
علينا كسفا ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف
أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل سبحان
ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ..

(ل) ثم تسوق السورة الكريمة في أواخرها الدلائل الدالة على وحدانية
الله - تعالى - وقدرته، وتحكي جانبا من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون
وتؤكد أن هذا القرآن أنزله الله - تعالى - بالحق، وبالحق نزل ، وأنه نزل
مفرقا ليقراه الناس على تودة وتدبر ...

وكما افتتحت السورة الكريمة بالشثناء على الله - تعالى - ، فقد اختتمت
بحمد الله - تعالى - وتكبيره . قال - تعالى - :

وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي
من الذل وكبره تكبرا .

(م) وبعد فهذا عرض إجمالي لأهم الموضوعات والمقاصد التي اشتملت
عليها سورة الإسراء . ومن هذا العرض يتبين لنا ما يلي :

أن سورة الإسراء - كغيرها من السور المسكية - قد اهتمت
اهتماما بارزا بتقوية العقيدة من كل ما يشوبها من شرك أو انحراف عن الطريق
المستقيم ..

وقد سافت السورة في هذا المجال أنواعا متعددة من البراهين على وحدانية

الله - تعالى - وعلمه وقدرته ، ووجوب إخلاص العبادة له ، وعلى تنزيهه
- سبحانه - عن الشريك ، ومن ذلك قوله - تعالى - .

« أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون
قولا عظيما . »

واقصد صرفنا في هذا القرآن ليعزكم وما يزيدكم إلا نفورا . قل لو كان
معه آل له كما يقولون ، إذا لا يتغورا إلى ذي العرش سبيلا . سبحانه وتعالى
عما يقولون علوا كبيرا ...

٢ - كذلك على رأس الموضوعات التي فصلت السورة الحديث عنها ،
شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فقد ابتدأت بإسراء الله - تعالى - به
من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث أراه - سبحانه - من آياته
ما أراه ، ثم تحدثت عن طبيعة رسالته ، وعن مزاياها ، وعن موقف المشركين
منه ، وعن المطالب المتعنتة التي طلبوها منه ، وعن تثبيت الله - تعالى - له ،
وعن تبشيره بحسن العاقبة ...

قال - تعالى - : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان
زهوقا . »

٣ - من الواضح - أيضا - أن سورة الإسراء ، اعتنت بالحديث عن
القرآن الكريم ، من حيث هدايته ، وإعجازه ، ومنع الذين لا يؤمنون به عن
فقهه ، واشتماله على ما يشفي الصدور ، وتكراره للبينات والعبر بأساليب مختلفة ،
ونزوله مفرقا ليعرأه الناس على مكث ...

ومن الآيات التي وردت في ذلك قوله - تعالى - .

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ...

وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا
مستورا ...

وقنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ...

وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا . وقرآنا
فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا ..

٤ - اهتمت السورة الكريمة اهتماما بدينا ، بالحديث عن التكاليف الشرعية ،
المتضمنة لقواعد السلوك العردي والجماعي ...

وقد ذكرت السورة أكثر من عشرين تكليفا ، في آيات متتالية . بدأت
بقوله - تعالى - : لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا ، الآية ٢٢
واقتهت بقوله - تعالى - : كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ، الآية ٣٨
وبجانب حديثها المستفيض عن التكاليف الشرعية ، تحدثت - أيضا - عن طبيعة
الإنسان في حالتي العسر واليسر ، وعن بخله الشديد بما يملكه ...

قال - تعالى - : وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه
الشركان يثوسا .

وقال - سبحانه - : دقل لو أقمتملكون خزائن رحمة ربي ، إذا لامسكم
خشية الانفاق وكان الإنسان قتورا .

٥ - ومن الجوانب التي حرصت السورة الكريمة على تجليتها والكشف
عنها : بيان سنن الله التي لا تتخلف في الهداية والإضلال ، وفي العواب والعقاب ،
وفي النصر والخذلان ، وفي الرحمة والإهلاك ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة
وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا .

وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسدوا فيها ، فحق عليها القول
فدمرناها تدميرا .

يوم ندعو كل

كتابهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى
وأضل سبيلا .

إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ...

هذه بعض المقاصد الإجمالية التي اشتملت عليها سورة الإسراء ، وهناك
مقاصد أخرى يراها المتأمل فيها ، والمتدبر لآياتها ، وحسبك من القلادة
ما أحاط بالعنق .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

التفسير

قال الله تعالى : «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ» ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) .

افتتحت سورة الإسراء بتنزيه الله - تعالى - عن كل مالا يليق بجلاله ، كما يدل على ذلك لفظ «سبحان» ، الذي من أحسن وجوه إعرابه ، أنه اسم مصدر منصوب - على أنه مفعول مطلق - بفعل محذوف ، والتقدير : سبحت الله - تعالى - سبحانا أى تسيحنا ، بمعنى نزهته قنزيها عن كل سوء .

قال القرطبي : وقد روى طلحة بن عبيد الله الفياض أحد العشرة - أى المبشرين بالجنة - أنه قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : ما معنى سبحان الله ؟ فقال : تنزيه الله من كل سوء (١) .

وقوله «أسرى» ، من الإسرائ ، وهو السير بالليل خاصة .

قال الجمل : يقال أسرى وسرى ، بمعنى سار في الليل ، وهما لازمان ، لكن مصدر الأول الإسرائ ومصدر الثاني السرى - بضم السين - كالهدى - فلهمة ليست للتعدية إلى المفعول ، وإنما جاءت التعدية هنا من الباء . ومعنى أسرى به ، صيره ساريا في الليل ، (٢) .

والمراد بعبده ، خاتم أنبيائه محمد - صلى الله عليه وسلم - ، والإضافة للتشريف والتكريم . . .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٠٤ .

(٢) حاشية الجمل ج ٢ ص ٦٠٨ .

وأوثر التعبير بلفظ العبد ، للدلالة على أن مقام العبودية لله - تعالى - هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلها ، إذ لو كان هناك وصف أعظم منه في هذا المقام لعبر به ، والإشارة - أيضا - إلى تقرير هذه العبودية لله - تعالى - وتأكيدها ، حتى لا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية ، كما التبس في العقائد المسيحية ، حيث ألهوا عيسى - عليه السلام - ، وألهوا أمر مريم ، مع أنهما بريئان من ذلك . . .

قال الشيخ القاسمي نقلا عن الإمام ابن القيم في كتاب «طريق الهجرتين»
أكمل الخلق أكلهم عبودية لله - تعالى - . . .

ولهذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - أقرب الخلق إلى الله - تعالى - وأعظمهم عنده جاهدا ، وأرفعهم عنده منزلة ، له كماله في مقام العبودية . وكان - صلى الله عليه وسلم - يقول : أيها الناس ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي . إنما أنا عبد . وكان يقول : لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله .

وذكره - سبحانه - بسمه العبودية في أشرف مقاماته : في مقام الإسراء حيث قال : سبحانه الذي أسرى بعبدته . . .

وفي مقام الدعوة حيث قال : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه ، . . .
وفي مقام التحدي حيث قال : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ، (١) .
وقوله : « ليلا ، ظرف زمان لأسرى .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل ؟

قلت : أراد بقوله ليلا بلفظ التنكير ، تقليل مدة الإسراء ، وأنه أسرى به بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أن التنكير فيه

قد دل على معنى البعضية ... ، (١) .

وقوله : من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، بيان لا ابتداء الإسراء وانتهائه .

أى : جل شأن الله - عز وجل - وتنزهه عن كل نقص ، حيث أسرى بعبيده محمد - صلى الله عليه وسلم - فى جزء من الليل ، من المسجد الحرام الذى بمكة إلى المسجد الأقصى الذى بفلسطين . ووصف مسجد مكة بالحرام ، لأنه لا يحل اقتها كما يقتال فيه ، ولا بصيد صيده . ولا بقطع شجره .

ووصف مسجد فلسطين بالأقصى ، لبعده عن المسجد الحرام ، إذ المسافة بينهما كان يقطعها الراكب للابل فى مدة شهر أو أكثر .

قال الألوسى : ووصفه بالأقصى - أى الأبعد - بالنسبة إلى من بالحجاز . وقال غير واحد : إنه سمي به لأنه أبعد المساجد التى تزار من المسجد الحرام وبينهما زهاء أربعين ليلة . وقيل - وصف بذلك - : لأنه ليس وراءه موضع عبادة فهو أبعد مواضعها ... ، (٢)

وظاهر الآية يفيد أن الإسراء كان من المسجد الحرام ، فقد أخرج الشيخان والترمذى والنسائى عن حديث أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : بينما أنا فى الحجر - وفى رواية - فى الحطيم ، بين الغائم واليقظان ، إذ أتانى آت فشوق ما بين هذه إلى هذه ، فاستخرج قلبى فغسله ثم أعيد ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض يقال له البراق فحملت عليه ... ،

وقيل : أسرى به من بيت أم هانئ بنت أبى طالب ، فيكون المراد بالمسجد

(١) تفسير الكشاف - ٢ ص ٤٦٦ .

(٢) تفسير الألوسى - ١٥ ص ٩ .

الحرام: الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به . فعن ابن عباس - رضي الله عنهما
الحرم كله مسجد .

ويمكن الجمع بين هذه الروايات ، بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقي
في بيت أم هانيء لفترة من الليل ، ثم ترك فراشه عندها وذهب إلى المسجد ،
فلما كان في الحجر أو في الخطيم بين النائم واليقظان ، أسرى به من المسجد الحرام
إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى السموات العلا . ثم عاد إلى فراشه قبل
أن يبرد - كما جاء في بعض الروايات .

وبذلك يترجح لدينا أن وجود الرسول - صلى الله عليه وسلم - في تلك الليلة
في بيت أم هانيء ، لا ينفي أن الإسراء بدأ من المسجد الحرام ، كما تقول الآية
الكريمة .

وقوله ، الذي باركنا حوله ، صفة مدح للمسجد الأقصى

أى : جل شأن الله الذي أسرى بعبيده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد
الأقصى ، الذي أحطنا جوائبه بالبركات الدينية والدنيوية

أما البركات الدينية فمن مظاهرها : أن هذه الأرض التي حوله ، جعلها الله
- تعالى - مقراً لكثير من الأنبياء ، كإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وداود
وسليمان ، وزكريا ويحيى وعيسى

قال - تعالى - : ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التي
باركنا فيها ... ،^(١)

وقال - سبحانه - في شأن إبراهيم : ونجيناه ولو طأ إلى الأرض التي باركنا
فيها للعالمين ،^(٢)

والمقصود بهذه الأرض أرض الشام ، التي منها فلسطين

(١) سورة الأنبياء الآية ٨١

(٢) ، ، ، ، ٧١

وأما البركات الدنيوية فمن مظاهرها : كثرة الأنهار والأشجار والثمار والزروع في تلك الأماكن

قال بعض العلماء : وقد قيل في خصائص المسجد الأقصى : أنه مبدء الأنبياء السابقين ، ومسرى خاتم النبيين ، وممر أجه إلى السموات العلا . وأولى القبليتين وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجد إلا إليه ، (١)

وقوله - سبحانه - ولنريه من آياتنا إشارة إلى الحكمة التي من أجلها أسرى الله - تعالى - بنبيه - صلى الله عليه وسلم - . فقوله ولنريه ، متعلق بأسرى .
و من ، للتبويض لأن ما رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - وإن كان عظيماً إلا أنه مع عظمه بعض آيات الله بالنسبة لما اشتمل عليه هذا الكرن من عجائب أي : أسرىنا بعدنا محمد ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ، ثم عرجنا به إلى السموات العلا ، لنطلعه على آياتنا ، وعلى عجائب قدرتنا ، والتي من بينها : مشاهدته لآنبيائها الكرام ، ورؤيته لما نريده أن يراه من عجائب وغرائب هذا السكون .

واقعد وردت أحاديث متعددة في بيان ما أراه الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - في تلك الليلة المباركة ، ومن ذلك ما رواه البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : ... ووجدت في السماء الدنيا آدم فقال لي جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه ورد علي آدم السلام فقال : مرحباً وأهلاً بابني ، فسلم الإبن أت ...

وفي رواية للإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما عرج بي ربي - عز وجل - مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ، يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم .. ، (٢)

(١) تفسير القاسمي - ج ١٠ ص ٣٨٨٥ .

(٢) تفسير ابن كثير .
Made searchable using ScribeTools.com

ثم ختم - سبحانه - الآية التكريمة بما يدل على سعة علمه ، ومزيد فضله فقال - تعالى - : إنه هو السميع البصير .

أن : إنه - سبحانه - هو السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم ومكذبهم . بصير بما يسرونه ويعلنونه ، وسيجزي كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب ، بدون ظلم أو محاباة .

هذا وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية جملة من المسائل منها :

١ - أن هذه الآية دلت على أن ثبوت الإسراء للنبي - صلى الله عليه وسلم - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأما الخروج به - صلى الله عليه وسلم - إلى السموات أعلا فقد استدل عليه بعضهم بآيات سورة النجم ، وهي قوله - تعالى - : والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبيكم وما عوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتأروونه عني ما يرى .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره هذه الآية أحاديث كثيرة بإسانيدها ومتونها ، وقال في أعقاب ذكر بعضها .

قال البيهقي : وفي هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به - عليه الصلاة والسلام - من مكة إلى بيت المقدس ، وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية^(١)

وقال القرطبي : ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث ، وروى عن الصحابة في كل أقطار الإسلام ، فهو من المتواتر بهذا الوجه ، وذكر النقاش ممن رواه عشر بن صحابيا . ،^(٢)

(١) تفسير ابن كثير المجلد الخامس ج ٧ طبعة دار الشعب .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٠٥

٢ - قال بعض العلماء ما ملخصه : ذهب الأكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث ، وأنه قبل الهجرة بسنة . قال الزهري وابن سعد وغيرهما . وبه جزم النووي ، وبالأغلب ابن حزم فنقل الإجماع فيه . وقال : كان في رجب سنة اثنتى عشرة من النبوة .

ولاختار الحافظ المقدسى أنه كان في ليلة السابيع والعشرين من شهر رجب . . . (١) .

والذى تطعن فيه النفس أن حادث الإسراء والمعراج ، كان بعد وفاة أبي طالب والسيدة خديجة - رضى الله عنهما -

ووفاتهما كانت قبل الهجرة بسنتين أو ثلاث . وفى هذه الفترة التى أعقبت وفاتهما أشد أذى المشركين بالشىء - صلى الله عليه وسلم - . فكان هذا الحادث لتسليمته - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم ، ولتشریفه وتكريمه . . .

٣ - من المسائل التى ثار الجدل حولها ، مسألة أكان الإسراء والمعراج فى اليقظة أم فى المنام ؟ وبالروح والجسد أم بالروح فقط ؟

وقد لخص بعض المفسرين أقوال العلماء فى هذه المسألة فقال : أعلم أن هذا الإسراء به - صلى الله عليه وسلم - المذكور فى هذه الآية الكريمة زعم بعض أهل العلم أنه بروحه دون جسده ، زاعما أنه فى المنام لا فى اليقظة ، لأن رؤيا الأنبياء وحى .

وزعم بعضهم أن الإسراء بالجسد ، والمعراج بالروح دون الجسد .

ولكن ظاهر القرآن يدل على أنه بروحه وجسده - صلى الله عليه وسلم - يقظة لا مناما ، لأنه قال : « بعبد ، والعبد مجروح الروح والجسد .

ولأنه قال : « سبحان ، والتسبيح إنما يكون عند الأدور العظام : فلو كان مناما لم يكن له كبير شأن حتى يتمعجب منه .

ولأنه لو كان رؤيا منام لم يكن فتنة ، ولا سببا لتكذيب قريش له - صلى الله عليه وسلم - لأن رؤيا المنام ليست محل إنكار ، إذ المنام قد يرى فيه ما لا يصح :

ولأنه - سبحانه - قال : لنزبه من آياتنا ، والظاهر أن ما أراه الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - إنما كان رؤيا عن طريق العين ويؤيده قوله - تعالى - : ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، ولأنه ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد استعمل في رحلته البراق ، واستعمله البراق يدل على أن هذا الحادث كان بالروح والجسد وفي اليقظة لا في المنام .

وما ثبت في الصحيحين من طريق شريك عن أنس - رضى الله عنه - أن الاسراء المذكور وقع منادا ، لا ينافي ما ذكرنا بما عليه أهل السنة والجماعة ، ودلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أنه كان يقظة وبالروح والجسد ، لإمكان أنه - صلى الله عليه وسلم - رأى الاسراء المذكور مناما ، ثم جاءت تلك الرؤيا كفاف الصبح ، فأمرى به يقظة تصديقا لتلك الرؤيا المنامية . (١)
هذا ، ومن العلماء الذين فصلوا القول في تلك المسألة تفصيلا محققا ، القاضى عياض في كتابه : الشفا ، فقد قال - رحمه الله - بعد أن ساق الآراء في ذلك :

والحق في هذا الصحيح - إن شاء الله - أنه إسراء بالروح والجسد في القصة كلها ، وعليه تدل الآيات وصحيح الأخبار والاعتبار . ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، وليس في الاسراء بجسده وروحه حال يقظته استحالة . . . (٢)

(١) تفسير أضواء البيان ج ٢ ص ٤٨ : لفضيلة المرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

(٢) راجع الشفا للقاضى عياض ج ١ ص ٤٥ وما بعدها .

وما قاله القاضى عياض - رحمه الله في هذه المسألة هو الذى نعتقده، ونقله
الله - تعالى - عليه

وبعد أن بين الله - سبحانه - جانباً من مظاهر تكريمه وتشريفه لنبيه
محمد - صلى الله عليه وسلم - عن طريق إسرائه به ، أتبع ذلك بالحديث عما
أكرم به نبيه موسى - عليه السلام - فقال :

« وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ، أَلَّا
تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا
شَكُورًا (٣) » .

والواو في قوله - تعالى - : « وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ، لِهُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ، أَلَّا
تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا » ،

والمراد بالكتاب : التوراة التى أنزلها الله تعالى - على نبيه موسى - عليه
السلام - والضمير المنصوب في قوله : « وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ » ، يعود إلى الكتاب .

وقوله « لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ » ، متعلق بهدى .

وشبه هذه الآية قوله - تعالى - : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن
فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ » ،

و « إِنْ ، فِي قَوْلِهِ أَنْ لَا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ، يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ زَائِدَةً
وَتَكُن الْجُمْلَةُ مَقُولَةً لِّقَوْلٍ مَّحذُوفٍ ، وَالْمَعْنَى :

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى
الْهَرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ .

وقلنا لهم : لَا تَتَّخِذُوا غَيْرَ اللَّهِ - تعالى - وَكِيلًا ، أَيْ : مَعْبُودًا ، تَفُوضُونَ
إِلَيْهِ أُمُورَكُمْ ، وَتَكُونُ إِلَيْهِ شُؤْنُكُمْ ، فَهُوَ - سبحانه - : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذُوا لَهُ حِزْبًا

قال الإمام الرازي ما ملخصه : قرأ أبو عمرو ، ألا يتخذوا ، بالياء خبراً عن بني إسرائيل : وقرأ الباقر بن الباقر ، أي : قلنا لهم لا تتخذوا . ويصح أن يكون ، أن ، فاصبة للفعل فيكون المعنى : وجعلناه هدى للـ لا تتخذوا ... وأن تكون ، أن ، بمعنى أي إلى الله سير - أي هي مفسرة لما تضمنه الكتاب من النهي عن اتخاذ وكيل سوى الله - تعالى - (١)

وقوله : ذرية من حملنا مع نوح ... ، منصوب على الاختصاص ، أو على النداء والمقصود بهذه الجملة الكريمة إثارة عزائمهم نحو الإيمان والعمل الصالح ، وتنبههم إلى نعمه - سبحانه - عليهم ، حيث جعلهم من ذرية أولئك الصالحين الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - وحضهم على السير على منهاجهم في الإيمان والعمل الصالح ، فإن شأن الأبناء أن يقتدوا بالآباء في التقوى والصلاح .

والمعنى : لا تتخذوا يا بني إسرائيل معبوداً غير الله - تعالى - ، فأنتم أبناء أولئك القوم الصالحين ، الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - فأناجهم الله - تعالى - مع نبيهم من الفرق .

قال الألوسي : وفي التعبير بما ذكر ليما إلى علة النهي من أوجه : أحدهما تذكيرهم بالنعمة في إنجاء آبائهم . والثاني : تذكيرهم بضعفهم وحالهم المحوج إلى الحمل والثالث : أنهم أضعف منهم - أي من آبائهم - لأنهم متولدون عنهم وفي إثبات لفظ الذرية الواقعة على الأضفال والنساء في العرف الغالب مناسبة تامة لما ذكر ، (٢) .

(١) تفسير الفخر الرازي > ٢٠ ص ١٥٣ طبعة دار الكتاب العالمية .
طهران :

(٢) تفسير الألوسي > ١٥ ص ١٥

وقوله : « إنه كان عبداً شكوراً ، تذييل قصد به الثناء على نوح - عليه السلام - أى : إن نوحا - عليه السلام - كان من عبادنا الشاكرين لنعمتنا ، المستعملين لها فيما خلقت له ، المترجمين إلينا بالتضرع والدعاء فى السراء والضراء .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : قوله : إنه كان عبداً شكوراً ، ما وجه ملائحته لما قبله ؟

قلت : كأنه قيل : لا تتخذوا من دونى وكىلا ، ولا تشر كوابى ، لأن نوحا كان عبداً شكوراً ، وأنتم ذرية محمد آمن به وحمل معه ، فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم ، ويجوز أن يكون تعليلاً لاختصاصهم ، والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح - عليه السلام - فهم متصلون به ، فاستأهلوا لذلك الاختصاص ... (١).

وبذلك نرى الآيتين الحكيمتين : دعنا إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - بأسلوب يرضى العقول السليمة ، والمواظف الشريفة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك قضاءه العادل فى بنى إسرائيل وساق سنه من سننه التى لا تتخلف فى خلقه فقال - تعالى - :

« وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ ، لَتَفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَاهُمْ أَلِفًا أَلْفًا إِلَى الْكُرَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ،

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ، وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا
دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَلِيُتَبَرَّأَ مَا عَمَلُوا تَتَبَرَّأُ (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم
وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨) .

وقوله - سبحانه - : « وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في
الأرض مرتين » لإخبار من الله .. تعالى - لهم ، بما سيكون منهم ، حسب
ما وقع في علمه المحيط بكل شيء ، والذي ليس فيه إيجاب أو قسر ، وإنما هو
صفة إنكشافية ، تنبئ عن ما لهم وأحوالهم .

قال أبو حيان : والفعل « قضى » يتصدى بنفسه إلى « معمول » ، كقوله
- تعالى - فلما قضى موسى الأجل ... ، ولما ضمن هنا معنى الإيحاء أو الانفاذ
تعدى إلى أى : وأوحينا أو أنفذنا إلى بني إسرائيل في القضاء المحتوم المبتوت
وعن ابن عباس : وأعلمناهم ... : (١) .

والمراد بالكتاب : التوراة ، وقيل : اللوح المحفوظ .

واللام في قوله « لتفسدن » ... ، جواب قسم محذوف تقديره :
والله لتفسدن .

ويجوز أن تكون جواباً لقوله - تعالى - « وقضينا ... » ، لأنه مضمن
معنى القسم ، كما يقول القائل : قضى الله لأفعلن كذا ، فيجري القضاء والقدر
مجري القسم ...

والمقصود بالأرض : عمومها ، أو أرض الشام

و « مرتين » منصوب على أنه مفعول مطلق لقوله : « لتفسدن » ، من غير

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ٦ ص ٨ . طابعة دار الفكر - بيروت .

لفظه والمراد : إفسادتين وقوله - عز وجل - : ولتعان... من العلو ودو
ضد السفلى ، والمراد به هنا : التكبر والتعير والبغى والعدوان .

والمعنى : وأخبرنا بنى إسرائيل في كتابهم التوراة خيرا مؤكدا : وأوحينا
إليهم بواسطة رسلنا ، بأن قلنا لهم : لتفسدن في الأرض مرتين ، ولتستكبرن
على الناس بغير حق ، لاستكبارا كبيرا ، يؤدي بكم إلى الخسران والدمار .

والتعير عما يكون منهم من إفساد بالقضاء وأنه في الكتاب ، يدل على
ثبوته ، إذ أصل القضاء - كما يقول القرطبي - الإحكام للشيء والفراغ منه .

وأكد إفسادهم واستعلاهم بلام القسم ، الإشعار بأنه مع ثبوته ووجوده
فهو مصحوب بالتعير والتكبر والبغى والعدوان .

وكان من مظاهر إفسادهم في الأرض : تحريفهم للتوراة ، وتركهم العمل بما
فيها من أحكام ، وقتلهم الأنبياء والمصالحين ..

ثم بين - سبحانه - أنه يسلط عليهم بعد إفسادهم الأول في الأرض ، من
يقهرهم وتستبيح حرماهم ، ويدمرهم تدميرا ، فقال - تعالى - : : فإذا جاء وعد
أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار وكان
وعدا مفعولا ،

والمراد بالوعد : الموعد المحدد لعقابهم بسبب إفسادهم في الأرض ،
فالكلام على حذف مضاف ، والضمير في : أولاهما ، يعود على المرتين المعبر
عنهما بقوله : : لتفسدن في الأرض مرتين ، .

وقوله ، فجاسوا ، معطوف على : بعثنا ، وأصل الجوس : طلب الشيء
باستقصاء واهتمام ، لتنفيذ ما من أجله كان الطالب .

والمعنى : فإذا حان وقت عقابكم - يا بنى إسرائيل - على أولى مرتي إفسادكم
بعثنا عليكم ووجهنا إليكم : عبادا لنا أولى بأس شديد ، أى أصحاب بطش شديد
في الحروب والقتال ، المساكين والديار ،

لقتل من بقي منكم على قيد الحياة ، وكان البعث المذكور وما ترتب عليه من قتلهم أو سلب أموالكم ، وهتك أعراضكم ، ونحريب دياركم ... وعدا نافذا لا مرد له ، ولا مفر لكم منه .

قال الألوسي : واختلف في تعيين هؤلاء العباد - الذين بعثهم الله لمعاينة بني إسرائيل بعد إفسادهم الأول - قعن ابن عياس وقناده : هم جالوت وجنوده وقال ابن جبير وابن إسحاق : هم سنحاريب ملك بابل وجنوده . وقيل : هم العمالة . وقيل بخنصر . (١)

وسنبين رأينا فيمن سلطه الله - تعالى - عليهم في المرتين ، بعد تفسيرنا لهذه الآيات الكريمة .

فإن قال قائل : وما فائدة أن يخبر الله - تعالى - بني إسرائيل في التوراة أنهم يفسدون في الأرض مرتين . وأنه يعاقبهم على ما كان منهم من استعلاء وطغيان ، بأن يسلط عليهم من يذلهم ويقهرهم ويقضى عليهم ؟

فالجواب : أن إخبارهم بذلك يفيد أن الله - عز وجل - لا يظلم الناس شيئا ، وإنما يعاقبهم على ما يكون منهم من إفساد ويعفو عن كثير ، وأن رحمة مفتوحة للعصاة متى تابوا وأصلحوا وأصلحوا من شأن أنفسهم .

وهناك فائدة أخرى لهذا الإخبار ، وهو تنبيه العقلاء في جميع الأمم أن يحذروا من مواضع المعاصي التي تؤدي إلى الهلاك ، وأن يحذروا أهمهم من ذلك ، ويبصروهم بسوء عاقبة السير في طريق الغي ، حتى لا يعرضوا أنفسهم لعقاب الله - عز وجل - .

ومن فوائد إيراد هذا الخبر في القرآن الكريم ، تنبيه اليهود المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - ومن على شاكلتهم في الفسوق والعصيان من المشركين ، إلى سنة من سنن الله في خلقه ، وهي أن الإفساد عاقبته الخسران .

فعلى اليهود وغيرهم من الناس أن يتبعوا الرسول - صلى الله عليه وسلم -
الذى ثبتت نبوته ثبوتاً لا شك فيه ، لكي يسعدوا في دنياهم وآخرتهم .

ثم أشار - سبحانه - إلى الفائدة الثالثة من هذا الإخبار ، وهى أن الأمم
المغلوبة على أمرها ، تستطيع أن تسترد مجدها ، متى أصلحت من شأن أنفسها ،
ومتى استقامت على أمر الله - تعالى - فقال - سبحانه - : « ثم رددنا لكم
الكررة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيراً ، .

ففي هذه الآية الكريمة تذكير لبنى إسرائيل بحملة من نعم الله عليهم ،
بعد أن أصابهم ما أصابهم من أعدائهم .

أما النعمة الأولى فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : « ثم رددنا لكم
الكررة عليهم ، .

والكررة : المرة من الشيء ؛ وأصلها من الكر وهو الرجوع ، مصدر
كر بكر - من باب قتل - ، يقال : كر الفارس كراً ، إذا فر للجولان ثم
عاد للقتال .

والمراد بالكررة هنا : الدولة والغلبة على سبيل المجاز .

أى : ثم أعدنا لكم - يابنى إسرائيل - الدولة والغلبة على أعدائكم
الذين قهروكم وأدلوكم ، بعد أن أحسنتم العمل ، ورجعتم إلى الله - تعالى - ،
واتبعتم ما جاءكم به رسلكم .

والتعبير بـ « ثم » لإفادة الفرق الشاسع بين ما كانوا فيه من ذل وهوان ،
وما أفاءه الله عليهم بعد ذلك من نصر وظفر .

قال أبو حيان : وجعل - سبحانه - « رددنا » موضع نرد - إذ وقت
لإخبارهم لم يقع الأمر بعد - لأنه لما كان وعد الله فى غاية الثقة فى كونه
سيقع ، عبر عن المستقبل بالماضى (١) .

(١) تفسير أبى حيان ج ٦ ص ١٠ .

وأما النعمة الثمانية فقد دبر عنها - سبحانه - بقوله : « وأمددناكم بأموال

وبنين » .

أى : لم نكتف بأن جعلنا النصر لكم على أعدائكم ، بل فضلا عن ذلك ، أمددناكم بالكثير من الأموال والأولاد . بعد أن نهب أعداؤكم أموالكم ، وقتلوا الكثيرين من أبنائكم .

وأما النعمة الثامنة فتتجلى فى قوله - تعالى - : « وجعلناكم أكثر نفيرا » .

والنفير : من ينفر مع الرجل من قومه لنصرته ومؤازرته ، وهو منصوب على التمييز . والمفضل عليه محذوف ، والتقدير : وجعلناكم أكثر عددا وقوة من أعدائكم الذين جاسوا خلال دياركم ...

فمن الواجب عليكم أن تقدروا هذه النعم ، وأن تحسنوا الاستفادة منها ، بأن تشكروا الله - تعالى - وتخلصوا له العبادة والطاعة ، فقد نصركم بعد هزيمتكم ، وأغناكم بعد فقركم ، وكثركم بعد قلتكم .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك منه من سننه التى لا تتخلف ، وهى أن الإحسان عاقبته الفلاح ، والعصيان عاقبته الخسران ، وأن كل إنسان مسئول عن عمله ، ونتائج هذا العمل - سواء أكانت خيرا أم شرا - لا تعود إلا عليه ، فقال - تعالى - : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها » .

أى : إن أحسنتم - أيها الناس - أعمالكم ، بأن أديتموها بالطريقة التى ترضى الله - تعالى - ، أفلحتم وسعدتم ، وجنيتم الثمار الطيبة التى تترتب على هذا الإحسان للعمل ، وإن أسأتم أعمالكم ، بأن آثرتم الأعمال السيئة على الأعمال الحسنة ، خسرتم وشقيتم وتحملتكم وحدهم انتقائج الوخيمة التى تترتب على إنيان الأعمال التى لا ترضى الله - تعالى - .

وقد رأيتم كيف أن الإفساد كانت عاقبته أن « بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار » .

و كيف أن الإحسان كانت عاقبته أن « رددنا لكم الكرة ، على أعدائكم »
« وأمددناكم بأموال وبهين وجعلناكم أكثر نفيرا ،

قال صاحب البحر ما ملخصه : وجواب وإن أسأتم قوله « فلها ، وهو
خبر لمبتدأ محذوف أى : فالإساءة لها . قال الكرماني : قال - سبحانه - « فلها
باللام ازدواجا . أى : أنه قابل ، لأنفسكم ، بقوله « فلها ، . وقال الطبري
اللام بمعنى إلى أى : فإليها ترجع الإساءة .

وقيل : اللام بمعنى على . أى : فعليها ، كما في قول الشاعر : نخر رصريعا
للبيدين وللهم . (١)

ثم بين - سبحانه - ما يحل بهم من دمار ، بعد إفسادهم للمرة الثانية ، فقال
- تعالى - « فإذا جاء وعد الآخرة ، ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد
كما دخلوه أول مرة . وليتبروا ما علوا تقيرا ،

والكلام أيضا هنا على حذف مضاف ، وجواب إذا محذوف دل عليه
ما تقدم وهو قوله « بعثنا عليكم عبادا لنا . ، فإذا جاء وقت عقوبتكم يا بني
إسرائيل على إفسادكم الثاني في الأرض ، بعثنا عليكم أعداءكم ليسوءوا وجوهكم
أى : ليجعلوا آثاره المساءة والحزن بادية على وجوهكم ، من شدة ما تلقونه
منهم من إيذاء وقتل .

قال الجمل ما ملخصه : وقوله « ليسوءوا : الواو للعباد أولى البأس الشديد .
وفي عود الواو على العباد نوع استخدام ، إذ المراد بهم أولا جالوت
وجنوده ، والمراد بهم هنا يختصر وجنوده .

وقرأ ابن عامر وحزة بالياء المفتوحة والهمزة المفتوحة آخر الفعل
« ليسوء » والفاعل إما الله - تعالى - وإما الوعد ، وإما البعث .

وقرأ الكسائي النسوء - بنون العظمة - أي : لنسوء نحز - وهو موافق لما قبله ، من قوله : بعثنا ، ورددنا ، وأمددنا ، ولما بعده من قوله : عدنا ، وجعلنا ، وقرأ الباقون - ليسوءوا ، مسندا إلى ضمير الجمع السائد على العباد ، وهو موافق لما بعده من قوله : د وليدخلوا المسجد - وليتبروا ،^(١)

وقال الإمام الرازي : ويقال ساءه يسوءه إذا أضره ، وإنما عزا - سبحانه - الإساءة إلى الوجوه ، لأن آثار الأضرار النفسية الحاصلة في القلب إنما تظهر على الوجه ، فإن حصل الفرح في القلب ظهر الإشراق في الوجه ، وإن حصل الحزن والخوف في القلب ، ظهر الكلوح في الوجه . ،^(٢)

وقوله - سبحانه - . د وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، معطوف على ما قبله وهو قوله - سبحانه - . ليسوءوا وجوهكم ،

والمراد بالمسجد : المسجد الأقصى الذي ببית المقدس ، وقوله : كما دخلوه ، صفة لمصدر محذوف

والمعنى : وليدخلوا المسجد دخولا كأننا قد دخلوهم إياه أول مرة قال أبو حيان : ومعنى : كما دخلوه أول مرة ، أي بالسيف والقهر والغلبة والإذلال ،^(٣)

أي أن المراد من التشبيه ، بيان أن الأعداء في كل مرة أذلوا بني إسرائيل وقتلوهم وقهرهم

وقوله - تعالى - . د وليتبروا ما علوا تتبيرا ، يشعر بشدة العقوبة التي أنزلها أولئك العباد ببني إسرائيل ، إذ التتبير معناه الإهلاك والتدمير والتخريب لكل ما تقع عليه . ومنه قول الشاعر :

(١) حاشية الجمل على الجلالين > ٢ ص ٦١٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازي > ٢٠ ص ١٤٩ .

(٣) تفسير البحر المحيط > ٥ ص ١١ .

وما الناس إلا عاملان فعامل يتبر ما بيني وآخر رافع
أى : يخرب ويهدم ما بينى .

و دماء فى قوله « ماعلوا » اسم موصول مفعول يتبروا ؛ و هو عبارة عن
البلاد والأماكن التى هدموها ، والعائد محذوف ، وتعبيراً مفعول مطلق
مؤكد لعامله .

أى : وليدمروا ويخربوا البلاد والأماكن التى علوا عليها ، وصارت فى
حوزتهم ، تدمروا تماماً لا مزيد عليه .

وبذلك نرى أن العباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل ، عقب
لفسادهم الثامى فى الأرض ، لم يكتفوا بجوس الديار ، بل أضافوا إلى ذلك
إلقاء الحزن والرعب فى قلوبهم ، ودخول المسجد الأقصى فالحين ومخرين ،
وتدمير كل ما وقعت عليه أيديهم تدميراً فظيعاً لا يوصف .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان أن هذا الدمار الذى حل ببنى
إسرائيل بسبب إفسادهم فى الأرض مرتين ، قد يكون طريقاً لرحمتهم ، وسبباً
فى توبتهم وإيمانهم ، إن فتحوا قلوبهم للحق ، واعتبروا بالأحداث الماضية ،
وفهموا عن الله - تعالى - سنته التى لا تتخلف ، وهى أن الإحسان يودى إلى
الفلاح والظفر ، والإفساد يودى إلى الخسران والهلاك .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المعانى بأبلغ تعبير وأحكمه . فقال
... تعالى : « عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم
للكافرين حصيراً .

أى : عسى ربكم أن يرحمكم ؛ ويعفو عنكم يا بنى إسرائيل متى أخالصتم له
العبادة والطاعة ، وأصلحتكم أقوالكم وأعمالكم ، فقد علمتم أنه - سبحانه -
لا ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفعهُ إلا بتوبة .

قال : أبو حيان : وهذه الترجية ليست لرجوع دولة ، وإنما هى من باب
(٣ - سورة الإسراء)

ترحم المطيع منهم ، و كان من الطاعة أن يتبعوا عيسى ومحمدا - عليهما السلام -
ولكنهم لم يفعلوا ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « وإن عدتم عدنا ، وإنذار لهم بإنزال العقوبات عليهم ،
إن عادوا إلى فسادهم وإفسادهم .

أى : وإن عدتم إلى المعاصى ومخالفة امرى ، وانتهاك حرمانى ، بعد أن
تداركتم رحى ، عدنا عليكم بالقتل والتعذيب وخراب الديار . .

ولقد عادوا إلى الكفر والفسوق والعصيان ، حيث أعرضوا عن دعوة
الحق التى جاءهم بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ولم يكتبوا بهذا الإعراض
بل هموا بقتله - صلى الله عليه وسلم وأيدوا كل متربص بالإسلام والمسلمين ،
فكانت نتيجة ذلك أن عاقبهم القبى - صلى الله عليه وسلم - وأحبابه بما يستحقون
من إجلاله وتشريد وقتل ...

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : عادوا فسلط الله عليهم المؤمنين ،

ثم بين - سبحانه - عقوبتهم فى الآخرة فقال : « وجعلنا جهنم للكافرين
حصيرا ، أى : إن عدتم إلى معصيتنا فى الدنيا عدنا عليكم بالعقوبة الرادعة ،
أما فى الآخرة فقد جعلنا جهنم للكافرين منكم ومن غيركم د حصيرا ، أى :
سجنا حاصرا لكم لا تستطيعون الهروب منه ، أو الفكك عنه ، أو فراشا
تفترشونه ، كما قال - تعالى - : « لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ، وكذلك
نجزى الظالمين ، .

قال بعض العلماء : قوله د حصيرا ، فيه وجهان : الأول : أن الحصير
المحبس والسجن . من الحصر وهو الحبس ، يقال حصره يحصره حصرا ، إذا
ضيق عليه وأحاط به . .

وثانى . أن الحصير : البساط والفراش ، من الحصير الذى يفرش ، لأن

العرب تسمى البساط الصغير حصيرا ... (١)

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حكمت لنا قضاء الله - تعالى - في بني إسرائيل ، وسأقت لنا لكي نعتبر وننعتظ ألوانا من سنن الله - تعالى - التي لا تتخلف ، والتي من أبرزها أن الإيمان والصلاح عاقبتهما الفلاح ، وأن الكفر والفساد عاقبتهما الشقاء ، والعذاب الآخرة أشد وأبقى .

هذا ، والذي يراجع ما قاله المفسرون في بيان العباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بني إسرائيل بعد إفسادهم الأول والثاني في الأرض ، يرى أقوالا متعددة يبدو على كثير منها الاضطراب والضعف (٢) . . .

ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود - رضي الله عنهما - أن الله - تعالى - عهد إلى بني إسرائيل في التوراة : لتفسدن في الأرض مرتين ، فكان أول الفسادين قتل زكريا ، فبعث الله عليهم ملك النبوة ، وكان يدعى صحابين ، فنبعث الجنود ، وكانوا من أهل فارس . . . فتحصنت بنو إسرائيل . . . ودخل فيهم مختنصر ، - أحد جنود صحابين - وسمع أقوالهم . . . الخ ، (٣)

وهذا الأثر من وجوه ضعفة ، أن غزو النبوة معهم بمختنصر لبني إسرائيل سابق على زمان زكريا - عليه السلام - بحوالي ستة قرون .

لأن الثابت تاريخيا أن بمختنصر غزا بني إسرائيل وانتصر عليهم ثلاث مرات : الأولى في سنة ٦٠٦ ق م والثانية في سنة ٥٩٩ ق م ، والثالثة في سنة ٥٧٨ ق م .

(١) تفسير أضواء البيان ٣ ص ٢٧٢ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي

(٢) ذكرنا معظم هذه الأقوال في كتابنا بنو إسرائيل في القرآن والسنة ،

٢ ص ٢٥٩ وناقشناها ، وضحفنا ما يستحق التضعيف منها ، ورجحنا

ما يستحق الترجيح . . .

(٣) تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ١٧ - بتصرف وتلخيص . .

وفي هذه المرة الثالثة أكثر القتل فيهم ، وساق الأحياء منهم أسارى إلى أرض بابل .

أما زكريا - عليه السلام - فن المعروف ، أنه كان معاصرا لعيسى - عليه السلام - أو مقاربا لعصره : فقد أخبرنا القرآن الكريم أن زكريا هو الذي تولى كفالة مريم أم عيسى .

وإذا فالقول بأن إفسادهم الأول كان لقتلهم زكريا ، وأن المسلط عليهم ملك النبط ومعه ، يختنصر ، يتنافى مع الحقائق التاريخية .

وفضلا عن ذلك ، فإن هذا الأثر المضطرب ظاهر ، لأن صحابين ، ملك النبط ، هو الذي يسميه المؤرخون « سحاريب » ، وكان ملكا للأشوريين ، وهو الذي غزا مملكة يهوذا سنة ٧١٣ ق م . أى قبل غزو بختنصر لها بأكثر من مائة سنة ، أى : أن بختنصر لم يكن معاصرا له .

والرأى الذى نختاره : هو أن العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول ، هم جالوت وجنود ، ونستند فى اختيارنا لهذا الرأى إلى أمور من أهمها ما يلى :

١ - ذكر القرآن الكريم فى سورة البقرة ، عند عرضه لقصة القتال الذى دار بين طالوت قائد بنى إسرائيل ، وبين جالوت ، قائد أعدائهم ، ما يدل على أن بنى إسرائيل كانوا قبل ذلك مقهورين مهزومين من أعدائهم .

ويتجلى هذا المعنى فى قوله تعالى - : « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا للنبي لهم . إبعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا . قالوا وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ،

فقولهم - كما حكى القرآن عنهم - « وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، يدل دلالة قوية . على أنهم كانوا قبل

قتالهم لجالوت مهزومين دزيمة اضطبيتهم إلى الخروج عن ديارهم ، وإلى مفارقة أبنائهم .

٢ - قوله - تعالى - : ، ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، صريح في أن الله - تعالى - نصر بني إسرائيل بعد أن تابوا وأتابوا على أعدائهم .

وهذا المعنى ينطبق على ما قصه القرآن علينا ، من أن بني إسرائيل بقيادة طالوت قد انتصروا على جالوت وجنوده . . .

قال - تعالى - : ولما برزوا - أي بنو إسرائيل - لجالوت وجنوده ، قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فمزموم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه ما يشاء . . . ولقد كان هذا النصر نعمة كبرى لبني إسرائيل ، فقد جاءهم بعد أن أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ، وبعد أن اعترضوا على اختيار طالوت ملكا عليهم ، وبعد أن قاتل مع طالوت عدد قليل منهم .

٣ - قوله - تعالى - : ، وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ، أكثر ما يكون انطباق على عهد حكم طالوت ، وداود ، وسليمان لهم .

ففي هذا العهد الذي دام زهاء ثمانين سنة ، ازدهرت ملكتهم ، وعز سلطانهم وأمدهم الله خلاله بالأموال الوفيرة . وبالبنين الكثيرة ، وجعلهم أكثر من أعدائهم عددا وقوة .

أما بعد هذا العهد ، بل وقبل هذا العهد ، فقد كانت حياتهم سلسلة من المآسي والنكبات . . .

فبعد موت سليمان - عليه السلام - سنة ٩٧٥ ق م تقريبا ، انقسمت ملكتهم إلى قسمين : مملكة يهوذا في الجنوب ، ومملكة إسرائيل في الشمال ، واستمرتا في صراع ونزاع حتى قضى الآشوريون سنة ٧٢١ ق م على مملكة إسرائيل ، وقضى بختنصر ، على مملكة يهوذا سنة ٥٨٨ ق م .

٤ - ذكر بعض المفسرين أن العباد الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الأول هم جالوت وجنوده .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله - فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بآس شديد ، قال : بعث الله عليهم في الأولى جالوت . فجاس خلال ديارهم ، فسألوا الله - تعالى - أن يبعث لهم ملكا ، فبعث لهم طالوت ، فقاتلوا جالوت ، وانتصروا عليه ، وقتل داود جالوت ، ورجع إلى بني إسرائيل ملكهم . فلما أفسدوا بعث الله عليهم في المرة الآخرة ، بختنصر ، تخرب المساجد ، وتبر ما علوا تقبيرا . . . (١)

هذه بعض الأدلة التي تجعلنا نرجح أن المراد بالعباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بني إسرائيل بعد إفسادهم الأول في الأرض ، هم جالوت وجنوده .

أما العباد الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الثماني ، فيرى كثير من المفسرين أنهم : بختنصر ، وجنوده .

وهذا الرأي ليس يبعد عن الصواب ، لما ذكرنا قبل ذلك من تنكيله بهم ، وسوقهم أسارى إلى بابل سنة ٥٨٨ ق م .

إلا أننا نؤثر على هذا الرأي ، أن يكون المسلط عليهم بعد إفسادهم الثاني ، هم الرومان بقيادة زعيمهم ، تيطس ، سنة ٧٠ م . لأمور من أهمها :

١ - أن الذي يتتبع التاريخ يرى أن رذائل بني إسرائيل في الفترة التي سبقت تنكيلهم بـ تيطس ، بهم ، أشد وأكبر من الرذائل التي سبقت لإذلالهم بـ بختنصر ، لهم . فهم على سبيل المثال - قبيل بطرس الرومان بهم ، كانوا قد قتلوا من أنبياء الله زكريا ويحيى - عليهما السلام - ، وكانوا قد حاولوا قتل عيسى - عليه السلام - ولسكن الله - تعالى - نجاه من شرورهم .

٢ - ضربات الرومان - في ذاتها - كانت أشد وأقسى على بني إسرائيل ،
من ضربات د بختنصر ، لهم .

فمثلا عدد القتلى من اليهود على يد الرومان بقيادة د تيطس ، بلغ مليون
قتيل ، وبلغ عدد الأسرى نحو مائة ألف أسير (١) .
بينما كان عدد القتلى والأسرى منهم على يد د بختنصر ، أقل من هذا العدد
بكثير .

ولقد وصف المؤرخون النكبة التي أوقعها الرومان بهم ، بأوصاف تفوق
بكثير ما أوقعه البابليون بقيادة بختنصر بهم .

يقول أحد الكتاب وأصفا ما حل باليهود على يد د تيطس ، الروماني :
كان د تيطس ، في الثلاثين من عمره ، حين وقف سنة [٧٠ م] أمام أسوار
أورشليم على رأس جيشه ، بعد أن بدأت المدينة تعاني من أهوال
الحصار ...

وبعد أن اقتحم د تيطس ، وجنوده المدينة ، أصدر أمره إليهم : أن
أحرقوا وأنهبوا واقتلوا ، فأموال اليهود وأعراضهم حلال لكم ، وقد
أحرق الرومان معبد اليهود ودمروه ، وتحققت نبوءة المسيح - عليه السلام -
حين قال : ستأقي هذه الأرض بؤسا وعنتا ، وسيحل الغضب على أهلها ،
وسيسقطون صرعى على حد السيف ، ويرسلون عبيدا في كل مصر . وستطأ
أورشليم الأقدام .

٣ - النكبة التي أنزلها الرومان بهم - من حيث آثارها - أشنع بكثير
من النكبة التي أنزلها بختنصر بهم . لأنهم بعد تشكيل بختنصر بهم وأخذهم

(١) من كتاب د تاريخ الإسرائيليين ، ص ٧٦ اشاهين مكار يوس .

(٢) من مقال للاستاذ عمر طلعت زهران عنوانه " تدمير أورشليم ،

أسرى إلى بلاد، وبقائهم في الأسر زهاء خمسين سنة عادوا إلى ديارهم مرة أخرى ، بمساعدة د قورش ، ملك الفرس ، الذي انتصر على د بختنصر ، سنة ٥٣٨ ق م تقريباً ، وبدأوا يتمكثرون من جديد .
أما بعد تذكيل د تيطس ، بهم فلم تقم لهم قائمة ، ومزقوا في الأرض مشر ممزق ، وانقطع دابرهم كامة ، .

وقد صرح بهذا المعنى صاحب تاريخ الإسرائيليين فقال بعد وصفه لما أوقعه د تيطس ، بهم من ضربات : « إلى هنا ينتهى تاريخ الإسرائيليين كامة ، فإنهم بعد خراب أورشليم على يد د تيطس ، تفرقوا في جميع بلاد الله ، وتاريخهم بعد ذلك ملحق بتاريخ الممالك التي توطنوا ، أو نزلوا فيها .: (١) .
ولهذه الأسباب نرجح أن يكون العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الثانى فى الأرض ، هم الرومان بقيادة د تيطس ، .

أقول ومع ترجيحنا لذلك ، إلا أننا نحسب فى نهاية حديثنا عن هذه الآيات الكريمة ، أن نقرر ما يأتى :

١ - أنه لم يصح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديث فى بيان المراد بالعباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل عقب مرتى إفسادهم ، وإلا لذكره المفسرون .

٢ - أن الإفساد فى الأرض قد حدث كثيراً من بنى إسرائيل ، وأن المقصود من قوله - تعالى - « لتفسدن فى الأرض مرتين » إنما هو أظهر وأبرز مرتين حدث فيهما الإفساد منهم .

ومما يدل على أن هذا الإفساد قد تكرر منهم قوله - تعالى - : « وإن عدتم عدنا ، وقوله - تعالى - : « ولذا تأذن ربك ليعشن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » (٢) .

(١) تاريخ الإسرائيليين ص ٧٧ لهاهين مكاريوس .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٦٧ .

٣ - أن المقصود من سياق الآيات ، إنما هو بيان سنة من سنن الله في الأمم حال صلاحها وفسادها .

وقد ساق القرآن الكريم هذا المعنى بأحكام عبارة ، وذلك في قوله - تعالى -
 إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ، .
 ولا شك أن هذه السنة ماضية في الأمم دون تبديل أو تحويل في كل زمان ومكان .

وما دام هذا هو المقصود ، ففهمه لا يتوقف على تحديد مرتى إفسادهم ، وتحديد المسلط عليهم عقب كل مرة .

ويعجنى في هذا المقام ، قول الإمام ابن كثير : « وقد وردت في هذا - أى في المسلط عليهم في المرتين - آثار كثيرة لإسرائيلية ، لم أر تطويل الكتاب بذكرها ، لأن منها ما هو موضوع من وضع زنادقتهم ، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا ، ونحن في غنية عنها ، والله الحمد ، وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية المكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم . وقد أخبر الله - تعالى - أنهم لما بغوا وطفغوا سلط عليهم عدوهم ، فاستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وفهرهم جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد ، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء ، (١) .

وقول الإمام الرازى : « واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض في معرفته أولئك الأقوام بأعيانهم ، بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصى ، سلط عليهم أقواما قتلوهم وأفنوهم ، (٢) .

وقد بسطنا القول في تفسير هذه الآيات الكريمة ، بصورة أكثر تفصيلا

(١) تفسير ابن كثير المجلد ٥ ص ٢٤ .

(٢) تفسير الفخر المجلد ١ ص ٢٤٠ .

في غير هذا المسكان ، فليرجع إليه من شاء الاستزادة (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - أنه قد آتى موسى - عليه السلام - التوراة لتكون هداية لبني إسرائيل ، وأنه - عز وجل - قد قضى فيهم بقضائه العادل . أتبع ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (١) » وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) » .

قال الفخر الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما شرح ما فعله في حق عباده المخلصين ، وهو الإسراء برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وإيتاء الكتاب لموسى - عليه السلام - ، وما فعله في حق العصاة والمتمردين وهو تسليط أنواع البلاء عليهم ، كان ذلك تنبيها على أن طاعة الله توجب كل خير وكرامة ، ومعصيته توجب كل بلية وغرامة ، لا جرم أثى - سبحانه - على القرآن فقال : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، (٢) » .

والفعل « يهدي » مأخوذ من الهداية ، ومعناها : الإرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى البغية . والمفعول محذوف . أي : يهدي الناس .

وقوله - سبحانه - « للتي هي أقوم » ، صفة لموصوف محذوف ، أي يهدي الناس إلى الطريقة أو الملة التي هي أقوم .

قال صاحب الكشف : « للتي هي أقوم » ، أي : للمحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها ، أو للملة أو للطريقة . وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة

(١) راجع كتابنا « بنو إسرائيل في القرآن والمعنة » ج ٢ من ص ٣٤٧ إلى ص ٣٩٦ .

(٢) تفسير الفخر الرازي .

الذى تجده مع الحنف ، لما فى إلهام الموصوف بحذفه من خامة تفقد مع
إيضاحه ، (١) .

والمعنى : إن هذا القرآن الكريم ، الذى أنزله الله - تعالى - عليك يا محمد
- صلى الله عليه وسلم - ، يرشد الناس ويهديهم ويهديهم فى جميع شئونهم لدينية
والدنيوية - إلى الملة التى هى أقوم الممل وأعدلها ، وهى ملة الإسلام . فمنهم
من يستجيب لهذه الهداية فيظفر بالسعادة ، ومنهم من يعرض عنها فيبوء
بالشقاء .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : إن هذا القرآن يهدى للناس إلى أقوم فى عالم
الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة التى لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتى تطلق
الروح من أنقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل
والبناء ، وتربط بين فواهب الكون الطبيعية ، ونواميس الفطرة البشرية
فى تناسق واتساق .

ويهدى للناس إلى أقوم ، فى التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين شاعره
وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله .

ويهدى للناس إلى أقوم فى عالم العبادة ، بالموازنة بين التكليف والطاقة ،
فلا تشق التكليف على النفس حتى تم ، ولا تسهل حتى تشيع فى النفس الرخاوة
والاستماتة ، ولا تتجاوز المقصد والاعتدال وحدود الاحتمال ،

ويهدى للناس إلى أقوم ، فى علاقات الناس بعضهم ببعض : أفراداً وأزواجاً
وحكومات وشعوباً ، ودولاً وأجناساً .

ويهدى للناس إلى أقوم فى نظام الحكم ، ونظام المال ، ونظام الاجتماع ،
ونظام التعامل ... (٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٣٩ ،

(٢) فى ظلال القرآن

وقوله - سبحانه - ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، صفة ثانية من صفات القرآن الكريم .

أى ، أن هذا القرآن بجانب هدايته للتي هم ، أقوم ، فهو - أيضا - يبشر المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحات بأن لهم أجرا كبيرا من خالقهم - عز وجل - : أجرا كبيرا لا يعلم مقداره إلا مسدبه وما نحه ، وهو الله رب العالمين .

وقوله - سبحانه - : « وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما ، بيان لسوء عاقبة الذين لا يستجيبون لهداية القرآن الكريم ، وهو معطوف على قوله - تعالى - « أن لهم أجرا كبيرا » .

أى : أن هذا القرآن يبشر المؤمنين بالأجر الكبير ، ويبشر - على سبيل التهكم - الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب بالعذاب الأليم .

قال الألوسى ما ملخصه : وتخصيص الآخرة بالذكر من بين سائر ما لم يؤمن به الكفرة ، لكونها أعظم ما أمروا بالإيمان به ، ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وبين جزائنها ، الذى أنبا عنه قوله - تعالى - « أعتدنا لهم عذابا أليما ، وهو عذاب جهنم . أى : أعددنا وهيا لنا لهم ، فيما كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة عذابا أليما ...

والآية معطوفة على قوله « أن لهم أجرا كبيرا » ، فيكون إعداد العذاب الأليم للذين لا يؤمنون بالآخرة مبشرا به كشبوت الأجر الكبير للمؤمنين ، ومصيبة تعدو سرور يبشر به ، فكأنه قيل : يبشر المؤمنين بشوابهم وعقاب أعدائهم ... (١) .

ثم بين - سبحانه - بعض الأحوال التي قد يقدم الإنسان فيها على طلب ما يضره بسبب عجلته واندفاعه فقال - تعالى - :

« وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالْإِشْرَ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (٨) » .

والمراد بالإنسان ههنا : الجنس وليس واحدا معينا .

قال الألوسي : وقوله : دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ، أى : دعاء كدعائه بالخير ، فحذف الموصوف وحرف التشبيه ، وانتصب المجرور على المصدرية ، (١) .

والمعنى : ويدعو الإنسان حال غضبه وضجره ، على نفسه ، أو على غيره ، « بالشر ، كأن يقول : « اللهم أملكني ، أو أهلك فلانا ... » .

« دعاءه بالخير ، أى : يدعو بالشر على نفسه أو على غيره ، كدعائه بالخير ، كأن يقول : اللهم اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين . »

قال ابن كثير : : ينخير - تعالى - عن عجلة الإنسان ، ودعائه في بعض الأحيان نفسه أو ولده ، أو ماله ، « بالشر ، أى : بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لذلك بدعائه ، كما قال - تعالى - : « وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَسْرَارَهُمْ سَوَّاهُمْ بِالْخَيْرِ ، لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ ... » . وفى الحديث : « لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم ، أن توافقوا من الله ساعة لإجابة يستجيب فيها » ، (٢) .

وقيل المراد بالإنسان هنا : الكافر ، أو الفاسق الذي يدعو الله - تعالى - بالشر ، كأن يسأله بأن ييسر له أمرا محرما كالقتل والسرقة والزنا وما يشبه ذلك .

وقد أشار القرطبي إلى هذا الوجه بقوله : « وقيل نزلت في النضر بن الحارث ، كان يدعو ويقول - كما حكى القرآن عنه - : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء . أو اثنتا بعذاب أليم » .

(١) الألوسي ج ١٥ ص ٢٢

(٢) تفسير ابن كثير : ج ٥ ص ٤٦

وقيل : هو أن يدعو في طلب المحذور ، كما يدعو في طلب المباح . كما في قول الشاعر :

أضوف بالبيت فيمن يطوف وأدفع من متزى المسجل
وأسجد بالليل حتى الصباح وأنلو من المحكم المنزل
عسى فارج اللهم عن يوسف يسخر لي ربة المحمل^(١)

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه المأثور عن بعض الصحابة والتابعين وهم أدري بتفسير كتاب الله من غيرهم .

قال ابن جرير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية : عن ابن عباس قال في قوله - تعالى - : ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير .. ، يعني قول الإنسان اللهم العنه واغضب عليه ، فلو يجعل له الله ذلك كما يجعل له الخير لهلك ...

وقال قتاده : يدعو على ماله فيلزم ماله ، ويدعو على ولده ، ولو استجاب الله له لأدلسكم ..

وقال مجاهد : ذلك دعاء الإنسان بالشر على ولده ، ولا يجب أن يجاب^(٢) .

وقوله - تعالى - : وكان الإنسان عجولا ، بيان للسبب الذي حمل الإنسان على أن يدعو بالشر كما يدع بالخير .

والعجل من العجل - بفتح العين والجيم - وهو الإسراع في طلب الشيء قبل وقته .

يقال : عجل - بزنة تعب - يجعل فهو عجلان ، إذا أسرع .

أى : وكان الإنسان متسرعاً في طلب كل ما يقع في قلبه ، ويخطر بباله ، لا يتأنى فيه تأنى المتبصر ، ولا يتأمل تأمل المتدبر .

(١) تفسير القرطبي ١٠ ص ٢٢٥

(٢) تفسير ابن جرير ١٥ ص ٢٧

وشبه هذه الجملة قوله - تعالى - خلق الإنسان من عجل ، سأربكم آياتي فلا تستعجلون ، (١) .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وسعة رحمته بعباده ، ومجازاتهم على أعمالهم يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

« وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَخَوَّنا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ، لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَانَاهُ تَفْصِيلًا (٩) وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٠) أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١١) مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٢) » .

قال أبو حيان : قوله - تعالى - « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. » لما ذكر - سبحانه - القرآن وأنه هاد إلى الطريقة المستقيمة ، ذكر ما أنعم به عالم يمكن الانتفاع إلا به ، وما دل على توحيده من عجائب العالم العلوي . وأيضا لما ذكر عجلة الإنسان ، وانتقاله من حال إلى حال ، ذكر أن كل هذا العالم كذلك في الانتقال ، لا يثبت على حال ، فهو عقب ظلمة وبالعكس ، وازدياد نور وانتفاص آخر ، (٢) .

والمراد بالآيتين هنا : علامتان الواضحتان ، الدالتان على قدرة الله - تعالى - ووحدايته .

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٧

(٢) تفسير البهجة

وقوله : ، فمحونا ، من المحو بمعنى إزالة الشيء ، يقال : محى فلان الشيء محواً - من باب قتل - إذا أزال أثره .

وللعلماء في تفسير هذه الآية إلتجاهان : أما الإلتجاه الأول فيرى أصحابه ، أن المراد بالآيتين : نفس الليل والنهار ، وأن الكلام ليس فيه حذف .
فيكون المعنى : وجعلنا الليل والنهار - بهيئتهما الثابتة ، وتعاقبهما الدائم ، واختلافهما طويلاً وقصراً - آيتين كونييتين كبريتين ، دالتين على أن لهما صانعاً قادراً ، حكماً ، هو الله رب العالمين .

وقوله - سبحانه - ، فمحونا آية الليل ، أى : فجعلنا الآية التى هى الليل - محوكة الضوء ، مظلمة الهيئة ، مختلفة فيها الأشياء ، ساكنة فيها الحركات .

وقوله - تعالى - ، وجعلنا آية النهار مبصرة ، أى : وجعلنا الآية التى هى النهار مضيئة ، تبصر فيها الأشياء وترى بوضوح وجلاء .

وعلى هذا الإلتجاه ، تكون إضافة الآية إلى الليل والنهار - من إضافة الشيء إلى نفسه ، مع اختلاف اللفظ ، تنزيلاً لاختلاف اللفظ منزلة الاختلاف فى المعنى ، كما فى قوله - تعالى - ، شهر رمضان ، فـ رمضان هو نفس الشهر

وأما الإلتجاه الثانى فيرى أصحابه أن الكلام على حذف مضاف ، وأن المراد بالآيتين : الشمس والقمر ، فيكون المعنى : وجعلنا نيرى الليل والنهار - وهما الشمس والقمر - آيتين دالتين على قدرة الله - تعالى - ووحدانته ، فمحونا آية الليل - وهى القمر - ، بأن أزلنا عنه شعاعه وضياءه ، ولم نجعله كالشمس فى ذلك ، وجعلنا آية النهار - وهى الشمس - مبصرة ، أى : ذات شعاع وضياء يبصر فى ضوءها الشيء على حقيقةه .

وقد ذكر صاحب المكشاف هذين الوجهين ، دون أن يرجح بينهما فقال : قوله - تعالى - : وجعلنا الليل والنهار آيتين .. ، فيه وجهان : أحدهما أن يراد أن الليل والنهار آيتان فى أنفسهما ، فتكون الإضافة فى آية الليل

وآية النهار للنبين ، كإضافة العدد إلى المعدود ، أى : فبحونا الآية التى هى الليل ، وجعلنا الآية التى هى النهار مبصرة .

والثانى : أن يراد : وجعلنا نرى الليل والنهار آيتين ، يريد الشمس والقمر

أى : فبحونا آية الليل التى هى القمر ، حيث لم نخلق له شعاعا كشعاع الشمس تبصر به الأشياء ، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر فى ضوءها كل شئ . (١)

والذى نراه . أن الإنجاء الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ، ولأنه لا يحتاج إلى تقدير ، وما كان كذلك أولى مما يحتاج إلى تقدير ، ولأن الليل والنهار هما بذاتهما ، من أظهر العلامات والأدلة على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته . وهناك عشرات الآيات القرآنية فى هذا المعنى ، ومن ذلك قوله - تعالى - : وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، (٢)

وقوله - تعالى - : ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ... ، (٣)
وقال - تعالى - : وإن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الأبصار ، (٤) إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى أوردها الله - تعالى - فى هذا المعنى .

وقوله - سبحانه - : ولتبتغوا فضلا من ربكم ، بيان لمظهر من مظاهر حكيمته تعالى - ورحمته بعباده .

(١) تفسير الكشف - ج ٢ ص ٤٤٠

(٢) سورة يس الآية ٢٧

(٣) سورة فصلت الآية ٣٧

(٤) سورة آل عمران . الآية ١٩٠

والجملة الكريمة متعلقة بما قبلها ، وهو قوله - سبحانه - « وجعلنا آية
النهار مبصرة ، أى : جعلنا النهار مضيئاً . لتطلبوا فيه ما تحتاجونه من أمور
معاشكم ، ومن الأرزاق التى قسمها الله بينكم .

قال الألوسى ما ملخصه : وفى التعبير عن الرزق بالفضل ، وعن الكسب
بالابتغاء . : دلالة على أنه ليس للعبد فى تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب ،
ولنما الإعطاء من الله - تعالى - بطريق التفضل . . . (١)

وشبيه به - الجملة الكريمة قوله - تعالى - : « ومن رحمته جعل لكم الليل
والنهار ، لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . »

فقوله - تعالى - « لتسكنوا فيه » يعود إلى الليل . وقوله - تعالى - « ولتبتغوا
من فضله » يعود على النهار .

ثم بين - سبحانه - حكمة أخرى ونعمة أخرى لجعله الليل والنهار على هذه
الهيئة فقال : « ولتعلموا عدد السنين والحساب . »

أى : وجعلنا الليل والنهار على هذه الصفة من التعاقب والاختلاف فى
الطول والقصر لتعرفوا عن طريق ذلك عدد الأيام والشهور والأعوام ،
التي لا تستغنون عن معرفتها فى شئون حياتكم ، وتعرفوا - أيضا - الحساب
المتعلق بها فى معاملاتكم ، وبيعكم وشرائكم ، وأخذكم وعطائكم وصلاتكم ،
وصيامكم ، زكاتكم ، وحجكم ، وأعيادكم . . . وغير ذلك مما تتوقف معرفته
على تقلب الليل والنهار . وولوج أحدهما فى الآخر .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « وكل شئ فصلناه تفصيلا . »
والتفصيل : من الفصل بمعنى القطع . والمراد به هنا : الإبانة التامة للشىء
بحيث يظهر ظهورا لإخفاء معه ولا التباس .

ولفظ « كل » منصوب على الاشتغال بفعل يفسره ما بعده .

أى . وفصلنا كل شىء تحتاجون إليه فى أمور دينكم ودنياكم ، تفصيلا .
واضحنا جليا ، لا خفاء معه ولا التباس ، فقد أقمنا هذا الكون على التدبير
الحكيم ، وعلى الصنع المتقن ، وليس على المصادفات التى لا تخضع لنظام
أو ترتيب .

ثم ساق - سبحانه - صورة من صور هذا التفصيل الحكيم فى كل شىء
فقال - تعالى - : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه . . . »

والمراد بطائره : عمله الصادر عنه باختياره وكسبه ، حسبما قدره الله
- تعالى - عليه من خير وشر .

أى : وألزمنا كل إنسان مكلف عمله الناتج عنه ، إلزاما لا فكاك له منه .
ولا قدرة له على مفارقتها .

وعبر - سبحانه - عن عمل الانسان بطائره ، لأن العرب كانوا - كما
يقول الألومى - يتفألون بالطير ، فإذا سافروا ومربهم الطير زجروه ،
فإن مربهم سائحا - أى من جهة الشمال إلى اليمين - تيمنوا وتفاءلوا ، وإن
مر بارحا ، أى : من جهة اليمين إلى الشمال تشاءموا ، فلما نسبوا الخير والشر
إلى الطائر ، استعير إستعارة تصريحية ، لما يشبههما من قدر الله - تعالى -
وعمل العبد ، لأنه سبب للخير والشر ، (١) .

وقوله - سبحانه - « فى عنقه » ، تصوير لشدة اللزوم وكال الارتباط بين
الانسان وعمله .

وخص - سبحانه - العنق بالذكر من بين سائر الأعضاء ، لأن اللزوم
فيه أشد ، ولأنه العضو الذى تارة يكون عليه ما يزينه كالقلادة وما يشبهها ،
وتارة يكون فيه ما يشينه الغل والقيد أو ما يشبههما .

قال الامام ابن كثير : وطائره : هو ما طار عنه من عماء كما قال ابن عباس

ومجاهد ، وغير واحد - من خير أو شر ، يلزم به وبجazy عليه ؛ كما قال - تعالى - : فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . ، وكما قال - تعالى - : إنما تجزون ما كنتم تعملون ، .

والمقصود أن عمل ابن آدم يحفظ عليه ، قليله وكثيره ؛ ويكتب عليه ليلا ونهارا ، صباحا ومساء ، (١) .

وقوله - سبحانه - : ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، بيان لحاله في الآخرة بعد بيان حاله في الدنيا .

والمراد بالكتاب هنا صحائف أعماله التي سجلت عليه في الدنيا .

أى : ألزمنا كل إنسان مكلف عمله الصادر عنه في الدنيا ، وجعلناه مسئولا عنه دون غيره . أما في الآخرة فسنخرج له ما عمله من خير أو شر وفي كتاب يلقاه منشورا ، أى ، مفتوحا بحيث يستطيع قراءته ، ومكشوبا بحيث لا يملك له خفاء شئ منه ، أو تجاهله ، أو المغالطة فيه .

كتابا ظهرت فيه الخبايا والأسرار ظهورا يغنى عن الشهود والجدال .

كتابا مشتملا على كل صغيرة وكبيرة من الإنسان ، كما قال - تعالى - : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - ما يخاطب به الإنسان بعد أن فنح كتابه أمامه ، فقال - تعالى - : اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم حسبا ، .

أى : ويقال له بعد أن وجد كتابه منشورا أمامه ، اقرأ كتابك هذا ، وما اشتمل عليه من أعمال صدرت عنك في الدنيا ، كفى بنفسك اليوم عليك حسبا .

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٧

(٢) سورة الأنبياء الآية ٤٧

أى . محاسباً ، كجليس بمعنى مجالس ، أو حاسباً وعاداً كصريم بمعنى صارم يقال حسب فلان على فلان قوله ، إذا عده عليه .

ولفظ « كفى » هنا لازم ، ويترد في هذه الحالة جر فاعله بالباء المزيدة لتوكيد الكفاية و « حاسباً » تمييز ، و « عليك » متعاق به

وثارة يأتي لفظ « كفى » متعدياً ، كما في قوله - تعالى - « وكفى الله المؤمنين القتال ... »

ثم ساق - سبحانه - قاعدة كلية ، لتحمل كل إنسان نتيجة عمله ، فقال - تعالى -
« من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنا مضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ... »

والفعل « تزر » من الوزر بمعنى الإثم والحمل والثقل . يقال : وزر يزر وزراً ، أى : أثم ، أو حمل حملاً ثقيلاً ، ومنه سمي الوزير ؛ لأنه يحمل أعباء تدبير شئون الدولة .

أى : من اهتدى إلى الطريق المستقيم ، وقدم في حياته العمل الصالح فشجرة هدايته راجعة إلى نفسه ، ومن ضل عن الطريق القويم ، وفسق عن أمر ربه فوبال ضلاله راجع إليه وحده ، ولا تحمل نفس آثمة ، لائم نفس أخرى ، وإنما تسأل كل نفس عن آثامها فحسب .

وقد تكرر هذا المعنى في كثير من آيات القرآن الكريم ومن ذلك قوله - تعالى - : « ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . » (١)

وقوله - تعالى - : « ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ، ولو كان ذا قربى ... » (٢)

(١) سورة الأنعام الآية ١٦٤

(٢) سورة فاطر الآية ١٨

ولا يتنافى هذا مع قوله - تعالى - : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم... » (١)

وقوله - تعالى - : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة » ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم... » (٢)

لأن المقصود في هاتين الآيتين وأشباههما ، أن دعاة الكفر والفسوق والعصيان ، يحملون ذنوبهم يوم القيامة ، ويحملون فوق ذلك جانباً من ذنوب من كانوا هم سبباً في ضلالهم ، لأن من سن سنة سيئة فعلية وزرها ، ووزر من عمل بها - كما جاء في الحديث الصحيح - ، فهم يحملون آثام أنفسهم ، والآثام التي كانوا سبباً في ارتكاب غيرهم لها .

كذلك لا يتنافى قوله - تعالى - : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » مع ما ثبت في الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما - من « أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه... »

لأن العلماء حملوا الحديث على أن يكون الميت قد أوصى بذلك قبل موته ، أو أن يحمل نهيهم عن الزوح عليه قبل موته ، مع أنه يعلم أنهم سينوحون عليه ويشقون الجيوب ، ويلطمون الخدود... فتعذيبه بسبب تقريضه ، وعدم تنقيذه لقوله - تعالى - « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ، وقودها الناس والحجارة... » (٣)

وقوله - تعالى - « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده - ورأفته بهم ، وكرمه معهم .

قال الألوسي : قوله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » بيان للعناية

(١) سورة العنكبوت الآية ١٣

(٢) سورة النحل الآية ٢٥

(٣) سورة التحريم الآية ٦

الربانية لإثر بيان آثار الهداية والضلالة بأصحابها ، وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته . وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها .

أى : وما صح وما استقام منا ، بل استبحا في سفتنا المبينة على الحكم البالغة... أن نعذب أحدا بنوع ما من العذاب دفنوا كان أو أخرويا ، على فعل شيء أو ترك شيء ، أصليا كان أو فرعيا ، حتى نبعث : إليه رسولا ، يهdy إلى الحق . ويردى عن الضلال ، ويقيم الحجج . وبهمـد الشرائع... (١)

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم ؛ تشبه هذه الآية ، في بيان أن الله - تعالى - لا يعذب أحدا من خلقه ، حتى يبعث إليه رسولا يبشره وينذره ، فيعصى ذلك الرسول ، ويستمر في كفره وضلاله بعد التبشير والانذار .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - ، رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيم ، (٢)

وقوله - تعالى - : ولو أنا أهلكنهم بعذاب من قبله ، لقالوا ربنا لولا أرسلنا إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ، (٣)

وقوله - تعالى - : يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير... (٤)

قال ابن كثير عند تفسيره لقوله - تعالى - : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، : هذا إخبار عن عدله - تعالى - ، وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام

(١) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ٢٧

(٢) سورة النساء الآية ١٦٥

(٣) سورة طه الآية ١٣٤

(٤) سورة المائدة الآية ١٠

الحجة عليه ، بإرسال الرسول إليه ، كما قال - تعالى - : « كلنا ألقى فيها فوج
سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : ما نزل
الله من شيء »

إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن الله - تعالى - لا يدخل أحدا
النار إلا بعد إرسال الرسول إليه (١)

هذا ، وما ذهب إليه الإمام ابن كثير ، والإمام الآلوسي ، من أن الله
- تعالى - اقتضت رحمته وعدالته ، أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة
عليه ، عن طريق إرسال الرسل ، هو الذي نعتقده ، وتطمئن إليه نفوسنا ،
لأنه هو الظاهر من معاني الآيات الكريمة ، ولأنه هو المناسب لرحمة الله
- تعالى - التي وسعت كل شيء .

وهناك من يرى أن من مات على الكفر فهو في النار ، ولو لم يرسل الله
- تعالى - إليه رسولا ، واستدلوا بأدلة لا مجال لذكرها هنا (٢) .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سنته في إهلاك الأمم ، وفي حال الذين
يريدون العاجلة ، وحال الذين يريدون الآجلة ، فقال - تعالى - :

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا
الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ
وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ
عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا
مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كَلَّا أُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٥٠

(٢) راجع تفسير الآلوسي ج ١٥ ص ٣٧ . وتفسير أضواء البيان ج ٣

رَبِّكَ ، وما كَانَ عطاءُ رَبِّكَ مُحْظوراً (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (٢٢) .

قال أبو حيان - رحمه الله - : لما ذكر - تعالى - في الآية السابقة ، أنه لا يعذب أعداء حتى يبعث إليه رسولا ، بين بعد ذلك علة إهلاكهم ؛ وهي مخالفة أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، والتأدي على الفساد - فقال ، سبحانه - : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها... » (١)

وقوله - سبحانه - « أمرنا » من الأمر الذي هو ضد النهي ، والمأمور به هو الإيمان والعمل الصالح ، والشكر لله رب العالمين ، وحذف لظهوره والعلم به .

وقوله « مترفيها » جمع مترف ، وهو المتنعم الذي لا يمنع من تنعمه ، بل يترك يفعل ما يشاء . يقال : ترف فلان - كهرج - أي : تنعم ، وفلان أترفته النعمة ، أي : أطفته وأبطرته لأنه لم يستعملها في وجورها المشروعة .

والمراد بهم . أصحاب الجساء والغنى والسلطان ، الذين أحاطت بهم النعم من كل جانب ، ولكنهم استعملوها في الفسوق والمصيان ، لا في الخير والإحسان .

والمعنى : وإذا قرب وقت إرادتنا إهلاك أهل قرية ، أمرنا مترفيها ، وأهل الغنى والسلطان فيها بالإيمان والعمل الصالح ، والمداومة على طاعتنا وشكرنا ، فلم يستجيبوا لأمرنا ، بل فسقوا فيها ، وعاثوا في الأرض فسادا : وهذا الأمر إنما هو على لسان الرسول المبعوث إلى أهل تلك القرية ،

وعلى السنة المصلحين المتبعين لهذا الرسول والأميرين بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقال - سبحانه - : « وإذا أردنا أن نهلك قرية . . . ، مع أن الهلاك لأهلها ، للإشارة إلى أن هذا الهلاك لن يصيب أهلها فقط ، بل سيصيبهم ويصيب معهم مساكنهم وأموالهم وكل ما احتوته تلك القرية ، بحيث تصير هي وسكانها أثرا بعد عين .

وخص مترفيا بالذكر مع أن الأمر بالطاعة للجميع ، لأن هؤلاء المترفين هم الأئمة والقادة ، فإذا ما استجابوا للأمر لاستجاب غيرهم تبعاً لهم في معظم الأحيان ، ولأنهم في أعم الأحوال هم الأسرع إلى ارتكاب ما نهى الله عنه ، وإلى الانغماس في المتع والشهوات . . .

والحكمة من هذا الأمر ، هو الإعذار والإفذار ، والتخويف والوعيد .

كما قال - تعالى - : « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . . . » (١) .

وهذا التفسير للآية الكريمة ، سار عليه جمهور المفسرين .

ولصاحب الكشف رأى يخالف ذلك ، فهو يرى أن الأمر في الآية الكريمة مجاز عن إمدادهم بالنعمة الكثيرة التي أبطرتهم .

قال - رحمه الله - : قوله تعالى - : « وإذا أردنا ، وإذا دنا وقت إهلاك قوم ، ولم يبق من زمان إمامهم إلا قليل أمرناهم ، ففسقوا ، أي : أمرناهم بالفسق ففعلوا .

والأمر مجاز لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم : افسقوا ، وهذا لا يكون ، فبقي أن يكون مجازاً . ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صبا ، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات ، فكانهم مأمورون بذلك لتسبب

لإتلاء النعمة فيه ، وإنما خوفهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ، ويتمكنوا من الإحسان والبر . كما خلقهم أصحاب أقدار ، وأقدرهم على الخير والشر ، وطلب منهم إثبات الطاعة ، على المعصية ، فآثروا الفسوق ، فلبت فسقوا حق عليهم القول وهو كلفة العذاب فدمرهم . . . (١)

ومن المفسرين من يرى أن قوله تعالى - « أمرنا » بمعنى كثرنا - بتشديد الشاء - وقرأ « أمرنا » بتشديد الميم ، أي : كثرنا مترفها وجعلناهم أمراء مسلمين . . .

ولكن هذه القراءة - وقراءة « أمرنا » بمعنى كثرنا ، أيضاً - ليستا من القراءات السبعة أو العشرة ، وإنما هما من القراءات الشاذة

قال الإمام ابن جرير : وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب - قراءة من قرأ « أمرنا » - بقصر الألف وتخفيف الميم - لإجماع الحجة من القراء بقصوبها دون غيرها وإذا كان ذلك هو الأولى بالصواب بالقراءة ، فأولى التأويلات به تأويل من تأوله : أمرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها . فحق عليهم القول ، لأن الأغلب من معنى « أمرنا » : الأمر الذي هو خلاف النهي دون غيره ،

وتوجيه معاني كلام الله - جل ثناؤه - إلى الأشهر الأعراف من معانيه ، أولى ما وجد لإيه سبيل من غيره . . . (٢)

ويبدو لنا أن الرأي الأول الذي سار عليه جمهور المفسرين ، وعلى رأسهم الإمام ابن جرير ، أولى بالقبول ، لأسباب منها :

أن القرآن الكريم يؤيده في كثير من آياته ، ومن ذلك قوله - تعالى - « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » ، قبل إن الله لا يأمر بالفحشاء . . . (٣)

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٤٢

(٢) تفسير ابن جرير ج ٥ ص ٤٣ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

ف قوله - تعالى - : قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، دليل واضح على أن قوله - سبحانه - : : أمرنا مترفيها ففسقوا فيها . . . ، معناه : أمرناهم بالطاعة ففسقوا ، وليس معناه : أمرناهم بالفسق ففسقوا ، لأنه - سبحانه - لا يأمر لا بالفسق ولا بالفحشاء .

ومنها : أن الأسلوب العربي السليم يؤيده ، لأنك إذا قلت : أمرته فعصاني كان المعنى : تتبادر والظاهر من هذه الجملة : أمرته بالطاعة فعصاني ، وليس معناه . أمرته بالعصيان فعصاني :

ومنها : أن حمل الكلام على الحقيقة - كما سار جمهور المفسرين - أولى من حمله على المجاز - كما ذهب صاحب الكشف - .

وقوله - سبحانه - : : فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ، بيان لما نزل بهذه القرية وأهلها من عذاب محاربا من الوجود ، إذ التوحيد هو الإهلاك مع طمس الأثر ، وهدم البناء .

أي : أمرنا مترفيها بطاعتنا وشكرنا ، فعصوا أمرنا وفسقوا فيها ، فثبت وتحقق عليها عذابنا ، فأهلكناها إهلاكاً استأصل شأفتها ، وأزال آثارها .

وأكد - سبحانه - فعل التدمير بمصدره ، للمبالغة في إدراك شدة الهلاك الواقع على تلك القرية الظالم أهلها .

قال الألوسي ما ملخصه : والآية تدل على إهلاك أهل القرية على أتم وجه ، وإهلاك جميعهم ، لصدور الفسق منهم جميعاً ، فإن غير المترف يتبع المترف عادة . . .

ونيل : هلاك الجميع لا يتوقف على التبعية فقد قال - تعالى - : واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . . .

وقد صح عن أم المؤمنين زينب بنت جحش أنها قالت : قلت ، يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا أكثر الخبيث ، (١) .

ثم بين - سبحانه - أن هذه القرية لم تكن بدعا في نزول العذاب بها ، بل هناك قرى كثيرة عنت عن أمر ربها فأخذها - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر ، فقال - تعالى - : **وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، ، ،**

وكم ، هنا خبرية أى : أن معناها الإخبار عن عدد كثير . وهي في محل نصب مفعول به الجملة **وأهلكنا ، ودمن ،** في قوله - تعالى - **دمن القرون ،** بيان للفظ **دمن ،** وتميز له كما يميز العدد بالجنس . وأما ، **من ،** في قوله - تعالى - **دمن بعد نوح ،** فهي لا ابتداء الغاية .

والقرون : جمع قرن ، ويطلق على القوم المقترفين في زمان واحد . والمشهور أن مدته مائة سنة .

أى أن هذه القرية المدسرة بسبب فسوق أهلها ، وعصيتهم لأمرنا . ليست هي القرية الوحيدة التي نزل بها عذابنا ، بل إننا قد أهلكنا كثيرا من القرى من بعد نوح - عليه السلام - كفوم عاد وثمود وغيرهم ممن استجبوا العمى على الهدى وآثروا الكفر على الإيمان والفى على الرشد .

وخص نوح - عليه السلام - بالذكر . لأنه أوفى رسول كذبه قومه وآذوه وسخروا منه . . . فأهلكهم الله - تعالى - بالطوفان .

قال ابن كثير : ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام ، كما قاله ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ١ ص ٤٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٥٩ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالتهديد الشديد لمن يخالف أمره فقال
- تعالى - : « وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً » .

أى : وكفى بربك - أيها الرسول الكريم - لإحاطة وإطلاعا وعلماً بما
يقدمه الناس من خير أو شر ، فإنه - سبحانه - يعلم السر وأخفى .

والآية الكريمة بجانب أنها تسليية للرسول - صلى الله عليه وسلم - فهي
- أيضاً - تهديد للمشركين ، وإفذار لهم بأنهم إذا ما استمروا على كفرهم ،
ومعاداتهم للحق ، وتطاولهم على من جاء به وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم -
فسيكونون محلاً لغضب الله - تعالى - وبخطه ، ولنزول عذابه الذي أهلك به
أمثالهم في الشرك والكفر والجحود .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف
كان عاقبة الذين من قبلهم ، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها » (١) .

وقوله - تعالى - : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن
أقرب إليه من حبل الوريد » (٢) .

ثم بين .. سبحانه - بعد ذلك مصير الذين يؤثرون العاجلة على الآجلة ،
فقال - تعالى - : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » . . .

والمراد بالعاجلة : دار الدنيا ، وهي صفة لموصوف محذوف أى : الدار
العاجلة التي ينتهى كل شىء فيها بسرعة وعجلة .

أى : من كان يريد بتوكله وعمله وسعيه ، زينة الدار العاجلة وشهواتها
فحسب ، دون التفات إلى ثواب الدار الآخرة ، « عجلنا له فيها ، أى : عجلنا
لذلك الإنسان في هذه الدنيا ، ما نشاء ، تعجيله له من زينتها ومتعها ... »

(١) سورة محمد الآية ١٠ .

(٢) سورة ق الآية ١٦ .

وهذا العطاء العاجل المقيد بمشيئتنا ليس لكل الناس، وإنما هو لمن نريد،
عطاءه منهم، بمقتضى حكمتنا وإرادتنا .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد قيد العطاء لمن يريد العاجلة بمشيئته وإرادته .
ورحم الله صاحب الكشف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : « من
كانت العاجلة همه ، ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة ، تفضلنا عليه
من منافعها بما يشاء لمن نريد . ففيد الأمر تقيدين : أحدهما : تقييد المعجل
بمشيئته ، والثاني : تقييد المعجل بإرادته .

وهكذا الحال ، نرى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون
إلا بعضا منه ، وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرّموا فاجتمع عليهم
فقر الدنيا وفقر الآخرة . وأما المؤمن التقي فقد اختار مراده ، وهو غنى
الآخرة فما يبالي أوتي حظا من الدنيا أو لم يأت . فإن أوتي فيها ، وإن لم يأت
فربما كان الفقر خيرا له ، وأعون على مراده .

وقوله « لمن نريد ، بدل من له ، وهو - بدل البعض من الكل ، لأن
الضمير يرجع إلى « من » ، وهو في معنى الكثرة (١) » ومفعول نريد محذوف .
أى : لمن نريد عطاءه .

وقوله : ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، بيان لسوء مصير
هذا المرید للعاجلة في الآخرة .

و « يصلاها ، أى : يلقي فيها وبذوق حرها وسعيرها : يقال : صليت
الشاة : شويتها . وصلى فلان بالنار - من باب تعب - إذا وجد حرها .
و « مذموما » من الذم الذى هو ضد المدح .

و « مدحورا » من الدحور بمعنى الطرد واللعن . يقال : دحره دحرا
ودحورا ، إذا طرده وأبعده .

أى : من كان يريد بسعيه الدنيا وزينتها أعطيناها منها ما يشاء إعطاءه له ، أما فى الآخرة فقد جعلنا له جهنم يدخلها ، ويصلى حرها ولهبها ، حالة كونه مذموما ، أى : مبغوضا بسبب سوء صنيعه ، مدحورا ، أى : مطرودا ، وبعداً من رحمة الله - تعالى - .

قال الإمام الرازى ماملخصه : وفى لفظ هذه الآية فوائد : منها : أن العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالإهانة والذم ، بشرط أن تكون دائمة وخالية عن شوب المنفعة . فقولہ : ثم جعلنا لهم جهنم يصلوها ، إشارة إلى المضرة العظيمة . وقوله مذموما ، إشارة إلى الإهانة والذم . وقوله مدحورا ، إشارة إلى البعد والطرده عن رحمة الله - تعالى - .

وهى تفيد كون تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة ، وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبديل بالراحة والخلاص (١) .

وقوله - سبحانه - : ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا ، بيان لحسن عاقبة المؤمنين الصادقين بعد بيان سوء عاقبة الموثنين لامتاع الدنيا وشهواتها .

أى : ومن أراد بقوله وعمله ثواب الدار الآخرة ، وما فيها من عطاء غير مقطوع ، وسعى لهذه الدار سعيها الذى يوصله إلى مرضاة الله - تعالى - حالة كونه مؤمنا بالله - تعالى - وبكل ما يحب الإيمان به ، فأولئك ، الذى فعلوا ذلك ، كان سعيهم ، للدار الآخرة سعيها مشكورا ، من الله - تعالى - ، حيث يقبله - سبحانه - منهم ، ويكافئهم عليه بما يستحقون من ثواب لا يعلم مقداره إلا هو - سبحانه - . وعبر - عز وجل بالسعى عن أعمالهم الصالحة ، للإشعار بجدهم وحرصهم على أداء ما يرضيه - تعالى - بدون إبطاء أو تأخير ، إذ السعى يطلق على المشى الذى تصاحبه السرعة .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وفي الآية الدليل الواضح على أن الأعمال الصالحة لا تنفع إلا مع الإيمان بالله - تعالى - لأن الكافر سيئة لا تنفع معها حسنة .

ولذا قال - سبحانه - « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن . . . » .

وقد أوضح - سبحانه - هذا في آيات كثيرة ؛ منها قوله - تعالى - : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة . . . » .
ومفهوم هذه الآية وأمثالها ، أن غير المؤمن إذا قدم عملا صالحا في الدنيا لا ينفعه في الآخرة لفقد شرط الإيمان ، قال - تعالى - : « وندنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » .

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطي بها في الدنيا ، ويجزي بها في الآخرة . وأما الكافر فيطعم بحسناته ، ما عمل بها الله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها ، (١) » .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته ، وسعة عطائه . فقال : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان ربك بمظورا ، ولفظ « كلا » هنا : مفعول به للفعل نمد ، والتعويض عوض عن المضاف إليه . أي : نمد كل واحد من الفريقين .

وقوله « نمد » من الإمداد بمعنى الزيادة . يقال : أمد القائد الجيش بالجند ، إذا زاده وقواه .

والمراد باسم الإشارة الأول « هؤلاء » : المؤثرون للعاجلة ، والمراد بالثاني الراغبون في ثواب الآخرة .

والمعنى : كلا من الفريقين تمده من فضلنا وإحساننا. فنعطى ما نريد إعطاءه لمن يريد العاجلة ولمن يريد الآجلة ، دون أن ينقص مما عندنا شيء ، ودون أن يخرج عن مشيئتنا شيء .

وما كان عطاؤك ربك ، أيها الرسول الكريم ومحظورا ، أى : ممنوعا لأعن المؤمن ولا عن الكافر ، ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

من الحظر بمعنى المنع يقال : حظره يحظره - من باب قتل - فهو محظور ، أى : ممنوع .

ثم أسر - سبحانه - عباده بالنظر والتأمل فى أحوال خلقه ، ليزدادوا عظة وعبرة ، فقال : وأنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا .

أى : أنظر - أيها العاقل - نظر تأمل وتدبر وأعتبار فى أحوال الناس ، لترى عن طريق المشاهدة كيف فضل الله - تعالى - بعض الناس على بعض فى هذه الحياة ، فهذا غنى وذاك فقير ، وهذا قوى وذاك ضعيف ، وهذا ذكى وذاك خامل ، وهذا مالك وذاك مملوك ...

إلى غير ذلك من الأحوال التى تدل على تفاوت الناس فى هذه الدنيا ، على حسب ما تقتضيه إرادة الله - تعالى - وحكمته ، ومشيئته .

أما فى الآخرة فالناس فيها أكبر تفاضلا وتفاوتا فى الدرجات والمنازل ، مما كانوا عليه فى الدنيا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ماملخصه : وقوله وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ، أى : ولتفاوتهم فى الدار الآخرة أكبر من الدنيا ، فإن منهم من يكون فى الدرجات فى جهنم وسلسلها وأغلالها ، ومنهم من يكون فى الدرجات العلا ونعيمها وسرورها . ثم أهل الدرجات يتفاوتون فيما هم فيه ، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون ؛ فإن فى الجنة مائة درجة ما بين

كل درجتين كما بين السماء والأرض . وفي الصحيحين : « إن أهل الدرجات
العلا ليرون أهل عليين ، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء » (١) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقَت لنا «سنة من سنن الله - تعالى - في
إهلاك الأمم ، وأنه - تعالى - ما أهلـكها إلا بعد أن عتت عن أمره ، وعصت
رسله كما أنها بينت لنا سوء عاقبة الذين يوثرون متع الدنيا على دُعاة الله
- تعالى - ، وحسن عاقبة الذين يريدون الآخرة وما فيها من ثواب جزيل ،
وأن الفريقين لا يبالغون بما يطلبونه إلا ما قدره الله - تعالى - لهم ، وأن عطاؤه
للناس جميعاً لا ينقص مما عنده شيئاً ، وأن حكمته - سبحانه - قد اقتضت
تفضيل بعض الناس على بعض في الدنيا والآخرة ، وصدق - عز وجل -
حيث يقول : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات
وأكبر تفضيلاً » .

ثم ساق - سبحانه - بضع عشرة آية ، تناولت مجموعة من التكاليف تزيد
على عشرين أمراً ونهياً .

وهذه التكاليف قد افتتحت بالنهي عن الإشراف بالله - تعالى - ، وبالأمر
بالإحسان إلى الوالدين . قال - تعالى - :

« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا
يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ، فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا وَلَا تَهْزِمُهُمَا
وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ
رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَّانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِنَّ
إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ ، فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَنًورًا (٢٥) » .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : بعد أن بين سبحانه - أن الناس فريقان : فريق يريد بعمله الدنيا فقط ، وفريق يريد بعمله طاعة الله ، ثم شرط ذلك بشرائط ثلاثة : أولها : إرادة الآخرة ، وثانيها : أن يسعى سعياً موافقاً للطلب الآخرة ، وثالثها : أن يكون مؤمناً .

لاجرم فصل في هذه الآيات تلك المجملات : فبدأ أولاً بشرح حقيقة الإيمان ... ثم ذكر عقبيه سائر الأعمال ... (١) .
والخطاب في قوله - تعالى - « لا تجعل ... » ، لسلك من يصلح له .

والقعود في قوله « فتقعد ... » ، قيل بمعنى المسكث : كما يقول القائل : فلان قاعد في أسوأ حال ، أى : ما كثر في أسوأ حال سواء أ كان قاعداً أم غير قاعد . وقيل بمعنى العجز ، لأن العرب تقول : فلان ما أقعده عن المسكارم ، أى : ما أعجزه عنها ، وقيل هو بمعنى الصيرورة ، من قولهم : فلان شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها خربة ، أى صارت .

والذى تطمئن إليه النفس أن القعود على حقيقة ، لأن من شأن المذموم المخدول أن يقعد حائراً نادماً على ما فرط منه .

وقوله - سبحانه - : « مخدولاً » من الخذلان ، وهو ترك النصرته - الحاجة إليها .

يقال : خذل فلان صديقه ، أى : امتنع عن نصرته وعونه مع حاجته الشديدة إليهما .

والمعنى : لا تجعل - أيها المخاطب - مع الله - إلهاً في عبادتك أو خضوعك ، فتقعد جامعاً على نفسك مصيبتين :

مصيبة الذم من الله - تعالى - ومن أوليائه ، لأنك تركت عبادة من له الخلق والأمر ، وعبدت ما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

ومصيبة الخذلان، بحيث لا تجد من يعينك أو ينصرك، في ساعة أنت أحوج
ما تكون فيها إلى العون والنصر .

وجاء الخطاب في قوله - تعالى - « لا تجعل ، عاما ، لكي يشعر كل فرد
يصلح للخطاب أن هذا النهى موجه إليه ، وصادر إلى شخصه لأن سلامة
الاعتقاد مسألة شخصية ، مشمول عنها كل فرد بذاته ، وسينجمل وحده تبعة
انحرافه عن طريق الحق » يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب
سليم . .

وقوله « فتقعد ، منصوب لأنه وقع بعد الفاء . جوابا للنهى . وقوله « مذموما
مخذولا ، حالان من الفاعل .

وفي هذه الجملة الكريمة تصوير بديع لحال الإنسان المشرك ، وقد حط به
الغنى والخذلان ، فقعد مهموما مستكينا عاجزا عن تحصيل الخيرات ، وعن
السمي في تحصيلها .

قال الألوسي : وفي الآية الكريمة إشعار بأن الموحد جامع بين الممدح
والنصرة ، (١) :

وبعد أن ذكر - سبحانه - الأساس في قبول الأعمال ، وهو إخلاص
العبادة له - عز وجل - وحده ، أتبع ذلك بتأكيد هذا الأساس بما هو من
شرائط الإيمان الحق وشعائره ، فقال - تعالى - « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا
لإياه ، وبالوالدين إحسانا

قال القرطبي ما ملخصه : « قضى ، أى : أمر وألزم وأوجب . . .
والقضاء يستعمل في اللغة على وجوه ، فالقضاء بمعنى الأمر ، كما في هذه
الآية ، والقضاء بمعنى الملق ، كقوله « فقضاهن سبع سموات في يومين ، يعنى
خلقهن ، والقضاء بمعنى الحكم ، كقوله - تعالى - « فاقض ما أنت قاض ، يعنى :

احكم ما أنت تحكم . والقضاء بمعنى الفراغ من الشيء ، كقوله : قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ، أى فرغ منه .
والقضاء بمعنى الإرادة ، كقوله - تعالى - : إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون (١) .

والمعنى : لقد نهى ربك عن الإشراف به نهياً قاطعاً ، وأمر أمراً محكمًا لا يحتمل الفسخ ، بأن لا تعبدوا أحداً سواه ، إذ هو الخالق لكل شيء ، والقادر على كل شيء ، وغيره مخلوق وعاجز عن فعل شيء إلا بإذنه سبحانه .
فالجملة السكريمة أمر لازم لإخلاص العبادة لله ، بعد النهى عن الإشراف به فى قوله - تعالى - : لا تجعل مع الله إلهاً آخر

وقد جاء هذا الأمر بلفظ « قضى » زيادة فى التأكيد ، لأن هذا اللفظ هنا يفيد الوجوب القطعى الذى لا رجعة فيه ، كما أن اشتغال الجملة السكريمة على النفي والاستثناء - وهما أعلا مراتب القصر - يزيد هذا الأمر تأكيداً وتوثيقاً .

ثم اتبع - سبحانه - الأمر بوحدايته ، بالأمر بالإحسان إلى الوالدين فقال : وبالوالدين إحساناً

أى : وقضى - أيضاً - بأن تحسنوا - أيها المخاطبون - إلى الوالدين إحساناً كاملاً لا يشوبه سوء أو مكروه .

وقد جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين عقب الأمر بوجوب إخلاص العبادة لله . فى آيات كثيرة . منها قوله - تعالى - : « قل تعالوا أتبع ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٢٧ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥١ .

وقوله - تعالى - « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا ... » (١) ،

ولعل السر في ذلك هو الإشعار للمخاطبين بأهمية هذا الأمر المقتضى لوجوب الإحسان إلى الوالدين ، حيث إنهما هما السبب المباشر لوجود الإنسان في هذه الحياة ، وهما اللذان لقيتا ما لقيتا من متاعب من أجل راحة أولادهما ، فيجب أن يقابل ما فعلاه بالشكر والاعتراف بالجميل .

قال بعض العلماء: وقد جاءت هذه الوصية بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب، وهو الإحسان إلى الوالدين ، ولم تذكر بأسلوب النهي سموا بالإنسان عن أن تظن به الإساءة إلى الوالدين ، وكأن الإساءة إليهما ، ليس من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهي عنها ... » (٢) .

ثم فصل - سبحانه - مظاهر هذا الإحسان فقال : « لما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ... » .

و « لما ، حرف مركب من « إن ، الشرطية ، ومن « ما ، المزيدة عليها للتأكيد ، وقوله : « أحدهما ، فاعل . يبلغن ، . وقرأ حمزة والكسائي « لما يبلغان ، فيكون قوله « أحدهما ، بدل من ألف الاثنين في « يبلغان ، .

وقوله « فلا تقل لهما أف » جواب الشرط .

قال الآلوسی : و « وأف » اسم صوت ينبىء عن التضجر ، أو اسم فعل مضارع هو أنضجر

(١) سورة البقرة الآية ٨٣ .

(٢) تفسير القرآن الكريم ص ٤٣٤ لفضيلة الامام الكبير الشيخ محمود

وفيه نحو من أربعين لغة . والوارد من ذلك في القراءات سبع . ثلاث متواترة ، وأربعة شاذة .

فقرأ نافع وحفص بالكسر والتنوين ، وهو للتذكير ، فالمعنى : فلا تقل أتضجر تضجرا ما .

وقرأ ابن كثير وابن عامر بالفتح دون تنوين . والباقون بالكسر بدون تنوين : ... » (١) .

وقوله « ولا تنهرهما » من النهر بمعنى الزجر ، يقال نهر فلان فلانا إذا زجره بغلظة .

والمعنى : كن - أيها المخاطب - محسناً إحساناً بأبويك ، فإذا ما بلغ « عندك » أي : في رعايتك وكما لك « أحدهما أو كلاهما » سن « الكبير » والضعف « فلا تقل لهما » أف « أي : قولاً يدل على التضجر منهما والاستهتال لأي تصرف من تصرفاتهما .

قال البيضاوي : والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياساً بطريق الأولى ، وقيل عرفاً كقولك : فلان لا يملك النغير والقطير - فإن هذا القول يدل على أنه لا يملك شيئاً قليلاً أو كثيراً - (٢) .

وقوله « ولا تنهرهما » أي : ولا تزجرهما عما يتعاطياناه من الأفعال التي لا تعجبك ،

فالمراد من النهي الأول : المنع من إظهار التضجر منهما مطلقاً . والمراد من النهي الثاني : المنع من إظهار المخالفة لهما على سبيل الرد والتكذيب والتغليظ في القول .

والتعبير بقوله : « عندك » يشير إلى أن الوالدين قد صارا في كنف

(١) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ٥٥ .

(٢) تفسير البيضاوي ج ١ ص ٥٨٢ .

الإبن وتحت رعايته ، بعد ان بلغ أشده واستوى ، وبعد أن أصبح مسؤولاً عنهما ، بعد أن كانا هما مسؤولين عنه .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : معنى « عندك » ؟ قلت هو أن يكبرا ويعجزا ، وكانا كلا على ولدهما لا كافل لهما غيره ، فهما عنده في بيته وكنفه ، وذلك أشق عليه وأشد احتمالاً وعسيراً ، وربما تولى منهما ما كانا يتوليانه منه في حالة الطفولة فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ، ولين الجانب ، حتى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقدر منهما ، أو يستثقل من مؤنهما : أف ، فضلاً عما يزيد عليه . . . (١)

والتيقيد بحالة الكبر في قوله - تعالى - « لما يبلغن عندك الكبر » جرى مجرى الغالب ، إذ أنهما يحتاجان إلى الرعاية في حالة الكبر ، أكثر من احتياجهما إلى ذلك في حالة قوتهما وشبابهما ، وإلا فالإحسان إليهما ، والعناية بشأهما . واجب على الأبناء سواء اكان الآباء في سن الكبر أم في سن الشباب أم في غيرهما .

وقوله - سبحانه - : « وقل لهما قولا كريما » أمر بالكلام الطيب معهما ، بعد النهي عن الكلام الذي يدل على الضجر والقلق من فعلهما .

أى : وقل لهما بدل التأنيف والزجر ، قولا كريما حسنا ، يقتضيه حسن الأدب معهما ، والاحترام لهما ، والحنف عليهما .

وقوله : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة . . » زيادة في تبجيلهما والتلطف بهما في القول والفعل ، والمعاملة على اختلاف ألوانها .

أى : ربحان القول الكريم الذي يجب أن تقوله لهما ، عليك أن تكون متواضعا معهما ، متلطفا في معاشرتهم ، لا ترفع فيهما عينا ، ولا ترفض لهما قولا ، مع الرحمة التامة بهما ، والشفقة التي لانهاية لهما عليهما .

قال الإمام الرازي ماملخصه : ر قوله ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، المقصود منه المبالغة في التواضع .

وذكر القفال في تقريره وجهين : الأول : أن الطائر إذا أراد صمفره له إليه للتربية خفض له جناحه ، ولهذا السبب صار خفض الجناح كفاية عن حسن التربية . فكأنه قال للولد : اكفل والدك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك في حال صمرك .

والثاني : أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه ، وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه . فصار خفض الجناح كفاية عن التواضع (١) .

وإضافة الجناح إلى الذل إضافة بيمانية ، أي : اخفض لهما جناحك الدليل ود من ، في قوله ، من الرحمة ، ابتدائية . أي تواضع لهما تواضعا ناشئا من فريط رحمتك عليهما .

قال الآلوسي : وإنما احتاجا إلى ذلك ؛ لافتقارهما إلى من كان أفقر الخلق إليهما ، واحتياج المـرء إلى من كان محتاجا إليه أدعى إلى الرحمة ، كما قال الشاعر :

يادن أنى يسألني عن فائقى ما حال من يسأل من سائله ؟
مأذلة السلطان إلا إذا أصبح محتاجا إلى عامله

وقوله ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ، تذكير للإنسان بحال ضعفه وطفولته ، وحاجته إلى الرعاية والحنان .

أي : وقل في الدعاء لهما : يارب ارحمهما برحمتك الواسعة ، واشملهما بمغفرتك الغامرة ، جزاء ما بذلا من رعاية لي في صغري ، فأنت القادر على مشربتهما ومكافأتهما .

قال الجمل : والسكاف في قوله : كما ربياني . . . فيها قولان : أحدهما أنها نعت لمصدر محذوف .

أى : ارحمهما رحمة مثل رحمتهمالى والثانى أنها للتعليل . أى : ارحمهما لأجل تربيتهمالى ، كما في قوله : واذكروه كما هداكم ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات التى سمت بمنزلة الوالدين ، بما يدل على كمال علمه ، وعلى التحذير من عقابه ، فقال : تعالى - : : ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا . .

والأوابون : جمع أواب . وهو الكثير الأوبة والتوبة والرجوع إلى الله - تعالى - يقال : آب فلان يثوب إذا رجع .

قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال في ذلك : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ، قول من قال : الأواب هو القائب من الذنب ، الراجع عن معصية الله إلى طاعته ، وأنا يكرهه إلى ما يرضاه ؛ لأن الأواب إنما هو فعال من قول القائل : آب فلان من سفره إلى منزله ، كما قال الشاعر :

وكل ذى غيبة يثوب وغائب الموت لا يؤوب (٢)

أى : ربكم - أيها الناس - أعلم بما في نفوسكم ، وضمايركم ، سواء أكان خيرا أو شرا ، وسواء أكنتم تضمرون البر بآبائكم أم تخفون الإساءة إليهما ومع ذلك فإنكم إن تكونوا صالحين ، أى : قاصدين الصلاح والبر بهما ، والرجوع عما فرط منكم في حقهما أو في حق غيرهما ، فأنه - تعالى - يقبل توبتكم ، فإنه - سبحانه - بفضله وكرمه كان للأوابين ، أى الرجاعين إليه بالتوبة مما فرط منهم ، غفورا لذنوبهم .

فآية الكريمة وتهد لمن تهاون في حقوق أبويه ، وفي كل حق أوجبه الله عليه ، ووعد لمن رجع إليه - سبحانه - بالتوبة الصادقة .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٢٢ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٥ ص ٥٢ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أمرت بالإحسان إلى الوالدين، بأسلوب يستجيش عواطف البر والرحمة في قلوب الأبناء ، ويبعثهم على احترامهما ورعايتهما والتواضع لهما ، وتحذيرهم من الإساءة إليهما ، ويفتح باب التوبة أمام من قصر في حقهما أو حق غيرهما .

وقد كرر القرآن هذا الأمر للأبناء بالإحسان إلى الآباء ، ولم يفعل ذلك مع الآباء .

وذلك لأن الحياة - كما يقول بعض العلماء - وهي مندفعة في طريقها بالأحياء ، توجه اهتمامهم القوى إلى الأمام ، إلى الذرية . إلى الناشئة الجديدة . إلى الجيل المقبل . وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء . إلى الأبوة . إلى الحياة المروية . إلى الجيل الذاهب .

ومن ثم تحتاج البنية إلى استجاشة وجدانها بقوة لتندخف إلى الخلف ، وتتلفت إلى الآباء والأمهات .

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد . إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات ، وكما تمتص الغائبة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فئات ، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر ، كذلك يمتص الأولاد ، كل رحيق . وكل عافية ، وكل جهد ، وكل اهتمام من الوالدين ، فإذا هما شيخوخة قانية - إن أمهلهم الأجل - وهما مع ذلك سعيدان .

فأما الأولاد فسرعان ما يندسون هذا كله ويندفعون بدورهم إلى الأمام . إلى الزوجات والذرية . . وهكذا تندفع الحياة .

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء . إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ، ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف .

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين ، في ضرورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد ، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله ، (١) .

هذا ، وقد ساق المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات ، كثيرا من الأحاديث والآثار التي ترجح الأبناء إلى رعاية الآباء ، واحترامهم ، والعطف عليهم ، والرحمة بهم ، والاهتمام بشؤونهم .

قال الإمام ابن كثير : وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة ، منها الحديث المروي عن أنس وغيره : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما صعد المنبر قال : آمين . آمين . آمين .

فقالوا : يا رسول الله ، علام أمنت ؟ قال : أتاني جبريل فقال : يا محمد ، رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك ، فقل : آمين . ثم قال : رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له ، قل : آمين . فقلت : آمين . ثم قال : رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخله الجنة . قل آمين فقلت آمين .

وعن مالك بن ربيعة الساعدي قال : بينما أنا جالس عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، هل بقي على من بر أبوي شيء بعد موتهما أبرهما به ؟ قال نعم ، خصال أربع . الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقيهما ، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما ، فهو الذي بقي عليك بعد موتهما من برهما ، (٢) .

وقال القرطبي : أمر الله - سبحانه - بعبادته وتوحيده ، وجعل بر الوالدين مقرونا بذلك . كما قرن شكرهما بشكره ، فقال : وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا .

(١) د في ظلال القرآن ، ج ١٥ ص ٢٢٢١

(٢) راجع تفسير ابن كثير ٥ ص ١٢

وقال : « إن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » .

وفى صحيح البخارى عن عبد الله قال : سألت النبى - صلى الله عليه وسلم - :
أى الأعمال أحب إلى الله - تعالى - ؟

قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : « ير الوالدين » . قلت ثم
أى : قال : الجهاد فى سبيل الله ...

ثم قال القرطبى - رحمه الله - : ومن عقوب الوالدين مخالفتهم فى
أغراضهما الجائزة لهما ، كما أن من برهما موافقتهم على أغراضهما . وعلى هذا
إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهم فيه ، ما لم يكن ذلك الأمر معصية
ولا يختص برهما بأن يكونا مسلمين ، بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن
إليهما .

ففى صحيح البخارى عن أسماء قالت : قدمت أمى وهى مشركة فاستغثت
النبى - صلى الله عليه وسلم - فقلت : إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها - أى
وهى راغبة فى برى وصلى ، أو وهى راغبة عن الإسلام كارهة له - قال :
صلى أمك .

ثم قال القرطبى : ومن الإحسان إليهما والبر بهما ، إذا لم يتعين الجهاد
ألا يجاهد إلا بإذنهما . فعن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبى - صلى
الله عليه وسلم - يستأذنه فى الجهاد فقال : أحمى والدك ؟ قال : نعم . قال :
ففيهما جاهد .

قال ابن المنذر : فى هذا الحديث النهى عن الخروج بغير إذن الأبوين
ما لم يقع النفير ، فإذا وقع وجب الخروج على الجميع ...

ثم قال : ومن تمام برهما صلة أهل ودتهما ، ففى الصحيح عن ابن عمر قال :
سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن من أبر البر صلة الرجل
أهل وذأبيه بعد أن يولى » ...

وكان - صلى الله عليه وسلم - يهدي لصدائق خديجة برابها ووفاء لها وهي زوجته ، فما ظنك بالوالدين ، (١) ...

وبعد أن بين - سبحانه - ما يجب على الإنسان نحو خالقه - عز وجل - ونحو والديه ، أتبع ذلك ببيان ما يجب على هذا الإنسان نحو أقاربه ، ونحو المسكين وابن السبيل ، ونحو ماله الذي هو نعمة من نعم الله عليه . فقال - تعالى - :

« وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ، فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ كَانَ بِمُبَادِرِ خَيْرٍ بَصِيرًا (٣٠) » .

قال أبو حيان في البحر : « لما أمر الله - تعالى - ببر الوالدين ، أمر بصلة القرابة . قال الحسن : نزلت في قرابة النبي - صلى الله عليه وسلم - . والظاهر أنه خطاب لمن خوطب بقوله : « لما يبلغن عندك الكبر . . » ، وألحق هنا ما يتعين له من صلة الرحم ، وسد الخلة ، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه . قال فخره : ابن عباس وعكرمة والحسن وغيرهم ، (٢) . والمراد بذوى القربى : من تربطك بهم صلة قرابة سواء أكانوا من المحارم أم لا .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢١٨ .

(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ٦ ص ٢٩

والمسكين : هو من لا يملك شيئاً من المال ، أو يملك ما لا يسد حاجته .
وهذا النوع من الناس في حاجة إلى العناية والرعاية ، لأنهم - في الغالب -
يفضلون الاكتفاء بالقليل ، على إراقة ماء وجوههم بالسؤال

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :
ليس المسكين الذي يطوف على الناس فترد ، اللقمة واللقمتان ، والتمبرة
والتمرتان ، قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال الذي لا يجد غنى يغنيه ،
ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً .

وابن السبيل هو المسافر المنقطع عن ماله سعى بذلك - كما يقول الألوسي
لملازمته السبيل - أي : الطريق في السفر ، أو لأن الطريق تبرزه فكانها ولدته ، (١) .

وهذا النوع من الناس - أيضاً - في حاجة إلى المساعدة والمعاونة ، حتى
يستطيع الوصول إلى بلده .

وفي هذا الأمر تنبيهه إلى أن المسلمين وإن اختلفت أوصانهم ، ينبغي أن
يسكنوا في التعاضد والتعاون على متاعب الحياة كالأسرة الواحدة .

والمعنى : وأعط - أيها العاقل - ذوى قرباك حقوقهم الثابتة لهم من البر ،
وصلة الرحم ، والمعاونة ، والزيارة ، وحسن المعاشرة ، والوقوف إلى جانبهم
في السراء والضراء ، ونحو ذلك مما توجبه تعاليم دينك الحنيف .

وأعط - كذلك - المسكين وابن السبيل حقوقهما التي شرعها الله - تعالى -
لهما ، من الإحسان إليهما ، ومعاونتهما على ما يسد حاجتهما .

وقدم - سبحانه - الأقارب على غيرهم ، لأنهم أولى بالمعروف ، ولأن
إعطاءهم إحسان وصله رحم .

روى الإمام أحمد والترمذي والفساني وغيرهم ، عن سليمان بن عامر قال :

(١) تفسير الألوسي ج ٢ ص ٤٦ .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الصدقة على المسكين صدقة .
وعلى ذى الرحم اثنتان : صدقة وصلة ،

وقوله - سبحانه - : ولا تبذر تبذيراً ، نهى عن وضع المال فى غير
موضعه الذى شرعه الله - تعالى - ، وأخوذ من تفريق البذر وإلقائه فى
الأرض كيفما كان من غير تعهد لمواقعه ، ثم استعير لتضييع المال فى غير
وجوهه .

قال صاحب الكشف : التبذير تفريق المال فيما لا ينبغى ، وإفناقه على
وجه الإمراف ، وكانت الجاهلية تنحدر لبلها وقتيأسر عليها ، وتبذر أموالها
فى الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك فى أشعارها ، فأمر الله - تعالى - بالنفقة
فى وجوهها ، مما يقرب منه ويؤلف . . . (١)

وقال ابن كثير : وقوله ، ولا تبذر تبذيراً ، : لما أمر بالإففاق نهى عن
الإمراف فيه ، بل يكون وسطاً ، كما قال - تعالى - : والذين إذا أنفقوا لم
يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً .

وقال ابن مسعود : التبذير : الإففاق فى غير حق . وكذا قال ابن عباس .
وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبدراً . ولو أنفق
مداً فى غير حقه كان تبذيراً ، (٢)

وقوله : : إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه
كفوراً ، تعليل للنهى والتبذير ، وتنفير منه بأبلغ أسلوب
والمراد بأخوة الشياطين : المماثلة لهم فى الصفات السيئة ، والسلوك
القيس .

قال الإمام الرازى : والمراد من هذه الإخوة ، التشبيه بهم فى هذا الفعل

(١) تفسير الكشف > ٢ ص ٤٦ ،

(٢) تفسير ابن كثير > ٥ ص ٦٦ طبعة دار الشعب

القبیح ، وذلك لأن العرب يسمون الملازم للشيء أخاه ، فيقولون : فلان أخو السكرم وأخو السفر ، إذا كان مواظبا على هذه الأعمال^(١)

أى : كن - أيها العاقل - متوسطا في نفقتك ، ولا تبذر تبذيرا . لأن المبذرين يماثلون ويهاهون الشياطين في صفاتهم القبيحة ، وكان الشيطان في كل وقت وفي كل حال جحودا لنعم ربه ، لا يشكره عليها ، بل يضعها في غير ما خلقت له هذه النعم

وفي تشبيهه المبذر بالشيطان في سلوكه السيئ ، وفي عصيانه لربه ، إشعار بأن صفة التبذير من أقبح الصفات التي يجب على العاقل أن يبتعد عنها ، حتى لا يكون مماثلا للشيطان اجاحد لنعم ربه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يجب على المؤمن فعله في حال عدم قدرته على تقديم العون للأقارب والمحتاجين ، فقال - تعالى - : « وإما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ، فقل لهم قولا ميسورا ،

ولفظ « إما » مركب من « إن » الشرطية ، ومن « ما » المزيدة . أى : وإن تعرض عنهم .

وقوله « تعرض » من الإعراض ، بمعنى صرف الوجه عن السائل حياء منه ، بسبب عدم القدرة على تلبية طلبه .

وقوله « ابتغاء » مفعول لأجله منصوب بتعرض : وهو من باب وضع المسبب موضع السبب . لأن الأصل : « وإما تعرض عنهم لإعسارك .

والمراد بالرحمة : إنتظار الحصول على الرزق ، وحلول الفرج بعد الضيق والميسور : اسم مفعول من يسر الأمر - بالبناء المفعول - مثل مسعد الرجل ، ومعناه : السهل اللين .

والمعنى : « وإما تعرض - أيها المخاطب - عن ذى قرابتك وعن المسكين

وابن السبيل ، بسبب إعساارك وانتظارك لرزق يأتيك من الله - عز وجل -
فقل لهم في هذه الحالة قولاً ليناً رفيقاً يدل على اهتمامك بشأنهم ، ويدخل
السرور على نفوسهم ، كأن تقول لهم مثلاً - : ليس عندي اليوم ما أقدمه
لكم ، وإن يرزقني الله بشيء فسأجعل لكم نصيباً منه .

قال القرطبي ما ملخصه : وهو تأديب عجيب ، وقول لطيف بديع ، أى
لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر غنى وقدره فتحرهم ، وإنما يجوز
أن تعرض عنهم عند عجز يعرض ، وعائق يحوق ، وأنت عند ذلك ترجو من
الله - تعالى - فتح باب الخير ، لتتوصل به إلى مواساة السائل ، فإن قعد بك
الحال فقل لهم قولاً ميسوراً ، أى ليناً لطيفاً . . ولقد أحسن من قال :

إن لم تكن ورقاً يوماً أجود بها للسائلين فإنى لسن العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقى إما نوالى وإما حسن مردود^(١)

ثم أرشد - سبحانه - عباده إلى أفضل الطرق لإتفاق أحوالهم والتصرف
فيها ، فقال - تعالى - : ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل
البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً ،

وقوله «مغلولة» من الغل - بضم الغين - وأعماله الطوق الذى يجعل في العنق
وتربط به اليد ، كما يربط المذنب والأسير . وهو كناية عن البخل والتقتير .

قال صاحب الكشف ما ملخصه : غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود
ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط . ولا فرق عنده بين هذا
الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه ، لأنهما كلامان متعقبان على حقيقة واحدة .
حتى أنه يستعمله في ذلك لا يعطى عطاء قط ، ولا يمنعه إلا بإشارته من غير
استعمال يد وقبضها وبسطها . ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلاً

لقالوا : ما أبسط يده بالنوال ؛ لأن بسط اليد وقبضها عبارتين متعاقبتين للبخل والجود ... (١) .

وقوله ، محسورا ، من المحسور بمعنى الانقطاع عن الشيء ، والمعجز عن الحصول عليه .

يقال : فلان حسره السير ، إذا أثر فيه أثرا بليغا جعله يعجز عن اللحاق برفقائه .

ويقال : بعير محسور . أى : ذهب قوته وأصابه الكلل والإعياء . فصار لا يستطيع النهوض بما يوضع عليه من أحمال .
والمقصود من الآية الكريمة : الأمر بالتوسط والاعتدال فى الإنفاق ، والنهى عن البخل والإسراف .

وقد شبه - سبحانه - مال البخیل ، بحال من يده مربوطة إلى عنقه ربطا محكما بالقيود والسلاسل ، فصار لا يستطيع تحريكها أو التصرف بها .
وشبه حال المسرف والمبذر ، بحال من مديده وبسطها بسطا كبيرا ، بحيث أصبحت لا تمسك شئنا يوضع فيها سواء أكان قليلا أم كثيرا .

والمعنى : كن - أيها الإنسان - متوسطا فى كل أمورك ، ومعتدلا فى إنفاق أموالك ، بحيث لا تكن بخيلا ولا مسرفا ، فإن الإسراف والبخل يؤديان بك إلى أن تصير ملوما . أى : مذموما من الخلق والخالق محسورا ، أى : مغموما منقطعاً عن الوصول إلى مبتغاك بسبب ضياع مالك ، واحتياجك إلى غيرك .

قال الألوسى ما ملخصه : فالآية الكريمة تحض على التوسط ، وذلك هو الجود الممدوح ، بخير الأمور أوسطها . وأخرجه أحمد وغيره عن ابن عباس

قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ما عال من اقتصد » . وأخرجه البيهقي عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة » . وفي رواية عن أنس مرفوعا : « التدبير نصف المعيشة » ، والتودد نصف العقل ، والهم نصف الهرم ، وقلة العيال أحد اليسارين وكان يقال : حسن التدبير مع العفاف ، خير من الغنى مع الإسراف .^(١)

ثم بين - سبحانه - أن مرجع الأمور كلها إليه ، فهو المعطى وهو المانع ، فقال - تعالى - : « إن ربك يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر » ، إنه كان لعباده خيرا بصيرا .

أى : « إن ربك - أبها الإنسان العاقل يسطر الرزق ويضيقه ويقدره على من يشاء من خلقه » . إذ كل شيء فى هذا الكون يسير على حسب ما تقتضيه حكمته ومشينته ، وهو - سبحانه - العليم بهواطن الناس وبظواهرهم ، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم ، ولا يعطى أو يمنع ، إلا لحكمة هو يعلمها .

قال - تعالى - : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حضت على إيتاء ذوى القربى والمساكين وابن السبيل حقوقهم . وعلى الاعتدال فى إنفاق المال ، ونهت عن الشح والتبذير ، وأسندت العطاء والمنع إلى الله - تعالى - . الخبير البصير بالظواهر والبواطن .

ثم يسوق - سبحانه - جملة من النواهي التى يؤدى الوقوع فيها إلى فساد أحوال الأفراد والجماعات ، وإلى شيوع الفاحشة فى الأمم ، مما يؤدى إلى اضطعلاها وذهاب ريعها ، فقال تعالى - :

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَا ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا السَّكِيلَ إِذَا كُنْتُمْ وَرَثَةً بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ ، كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَانْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طَوْلًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلَا تَجْمَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩) » .

يقوله - سبحانه - : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ ... » ، نهى عن قتل الأولاد بعد بيان أن الأرزاق بيده - سبحانه - ، يبسطها لمن يشاء ، ويضيقها على من يشاء .

والإملاق : الفقر . يقال : أملك الرجل إذا افتقر قال الشاعر :

ولم يأت على الإملاق يا قوم ماجد أعد الأضيافى الشواء المصهبا

قال الألومى : وظاهر اللفظ النهى عن جميع أنواع قتل الأولاد ، ذكورا كانوا أو إناثا مخافة الفقر والفاقة .

لسكن روى أن من أهل الجاهلية من كان يمد البنات مخافة العجز عن النفقة عليهن ، فنهى في الآية عن ذلك ، فيكون المراد بالأولاد البنات ، وبالقتل الوأد ... (١)

أى : ولا تقتلوا - أيها الآباء - أولادكم خشية فقر متوقع ، فنحن قد تكفلنا برزقهم ورزقكم ، وأرزاق غيركم من مخلوقاتنا التي لا نحصى .

قال - تعالى - : وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ... ،

ولا شك أن الحياة حق لهؤلاء الصغار كما أنها حق لكم ، فمن الظلم البين الإعتداء على حقوقهم ، والتخلص منهم خوفا من الفقر المتوقع في المستقبل ، مع أن الله - تعالى - هو الرازق لهم ولكم في كل زمان ومكان .

وقد ورد النهى عن قتل الأولاد هنا بهذه الصيغة ، وورد في سورة الأنعام بصيغة أخرى ، هي قوله - تعالى - : ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم . ،

وليست أحدهما تكرر إلا للاختلاف ، وإنما كل واحدة منهما تعالج حالة معينة .

فهنا يقول - سبحانه - : ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياكم ، لأن النهى موجه بالأصالة إلى الموسرين ، الذين يقتلون أولادهم لamen أجل فقر كائن فيهم ، وإنما من أجل فقرهم يتوهمون حص - وله في المستقبل بسبب الأولاد ، لذا قال - سبحانه - : نحن نرزقكم وإياكم ، فقدم رزق الأولاد لأنهم سبب توقع الفقر ، في زعم آبائهم - لكي يمتنع الآباء عن هذا التوقع ولكي يضمن الأولاد رزقهم ابتداء مستقلا عن رزق الآباء .

وقال - سبحانه - هناك : من إملاق ، لأن النهى متوجه أصالة إلى الآباء والمعسرين : أى لا تقتلوهم بسبب الفقر الموجود فيكم - أيها الآباء - ، فقد

يجعل الله بعد عمر يسرا . ولذا قال - سبحانه - « نحن نرزقكم وإياهم ، لجعل الرزق للآباء ابتداء ، لكي يطمئنهم - سبحانه - على أنه هو الكفيل برزقهم وبرزق أولادهم .

وفي كلتا الحالتين ، القرآن الكريم ينهى عن قتل الأولاد ، ويغرس في نفوس الآباء الثقة بالله - تعالى - ، والإعتماد عليه .

وجملة « نحن نرزقهم وإياكم ، تعليل للنهي عن قتل الأولاد ، بإبطال موجبه - في زعمهم - وهو الفقر .

أى : نحن نرزقهم لا أنتم ، ونرزقكم أنتم معهم ، وما دام الأمر كذلك ، فلا تقدموا على تلك الجريمة المنكرة ؛ وهى قتل الأولاد ، لأن الأولاد ، قطعة من أبيهم ، والشأن - حتى في الحيوان الأعجم - أنه يضحى من أجل أولاده ، ويحميهم ، ويتحمل الصعاب في سبيلهم .

وقوله « إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ، تعليل آخر للنهي عن قتل الأولاد جىء به على سبيل التأكيد .

والخطئ : هو الإثم - وزنا ومعنى - ، مصدر خطىء - كإثم إثماء من باب علم .

أى : أن قتل الأولاد كان عند الله - تعالى - إثمًا كبيراً فاحشاً ، يؤدي إلى التعاسة والشقاء في الدنيا والآخرة :

والحق أن المجتمع الذى يبيع قتل الأولاد ، خوفاً من الفقر أو العار ، لا يمكن أن يصلح شأنه ، لأنه مجتمع 'نفعى' تسوده الأثرة والأنانية والقشاوم والأوهام ، لأن أفرادهم يظنون أن الله يخلق خلقاً لا يدبر لهم رزقهم ، ويعتدون على روح بريئة طاهرة ، تخوفاً من فقر أو عار مترقب ، وذلك هو الضلال المبين .

ورحم الله الإمام الرازى فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه :

لأن قتل الأولاد وإن كان لخوف الفقر ، فهو سوء ظن بالله . وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى في تخريب العالم . فالأول ضد التعظيم لأمر الله - تعالى - والثاني ضد الشفقة على خلقه ، وكلاهما مذموم ، (١)

ولقد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - برعاية الأبناء ، وحذر من الإعتداء عليهم في أحاديث كثيرة ، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزني بحليلة جارك (٢)

وبعد أن نهى - سبحانه - عن قتل الأولاد المؤدى إلى افناء النسل ، أتبع ذلك بالنهى عن فاحشة الزنا المؤدية الى اختلاط الأنساب ، فقال - تعالى - : « ولا تقر بوا الزنا ، أنه كذب فاحشة وساء سبيلا ،

والزنا : وطء . المرأة بدون عقد شرعى يجوز للرجل وطأها .

والفاحشة : ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال . يقال فحش الشيء ، فحشاء كقبح قبحا - وزنا ومعنى - ، ويقال أفحش الرجل ، إذا أتى الفحش بضم الفاء وسكون الحاء - ، وهو القبيح من القول أو الفعل . وأكثر ما تكون الفاحشة اطلاقا على الزنا .

وتعليق النهى بقربانها ، للمبالغة في الزجر عنها ، لأن قربانها قد يؤدى الى الوقوع فيها ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

وهذا لون حكيم من ألوان اصلاح النفوس ، لأنه اذا حصل النهى عن القرب من الشيء ، فلأن ينهى عن فعله من باب أولى .

فكأنه - سبحانه - يقول : كونوا - أيها المسلمون - بعيدين عن كل المقدمات

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢٠ ص ١٩٦

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٦٩

التي تفضى إلى فاحشة الزنا كخالطة النساء ، والخلوة بهن ، والنظر اليهن ...
فإن ذلك يفتح الطريق الى الوقوع فيها .

قال بعض العلماء : وكثيراً ما يتعلق النهى فى القرآن بالقربان من الشئ ،
وضابطه بالإستقراء :

أن كل منهى عنه من شأنه أن تميل النفوس اليه ، وتدفع اليه الأهواء ،
جاء النهى فيه عن قربان ، ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل
فى النفس مكانة تصل بها إلى اقتراف المحرم ، ومن ذلك قوله - تعالى - :
« ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالنى هي أحسن » ، « ولا تقربوا الزنا ... » ،
« ولا تقربوهن حتى يطهرن » .

أما المحرمات التي لم يؤلف ميل النفوس اليها ، ولا إقتضاء الشهوات لها ،
فإن الغالب فيها ، أن يتعلق النهى عنها بنفس الفعل لا بالقربان منه .

ومن ذلك قوله - تعالى - : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ... » وقوله
- تعالى - : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ... »

فهذه وإن كانت فواحش ، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية ، يميل اليها
الإنسان بشهوته . بل هي فى نظر العقل على المقابل من ذلك ، يجد الإنسان فى
نفسه مرارة ارتكابها ، ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها ، أو فى حكم
الكاره ... (١)

وقوله : « إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » ، تعليل للنهى عن الإقتراب منه
أى : ابتعدوا عن مقدمات الزنا فضلاً عن الوقوع فيه ذاته ، لأنه كان
- وما زال - فى شرع الله ، وفى نظر كل عقل سليم فعلة فاحشة ظاهرة القبح
وبئس الطريق طريقة ، فإنها طريق تؤدي إلى غضب الله - تعالى - وسخطه .

(١) تفسير القرآن العظيم ص ٤١١ لفضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت .

ومما لاشك فيه أن فاحشة الزنا من أقبح الفواحش التي تؤدي إلى شيوع الفساد والأمراض الخبيثة في الأفراد والمجتمعات ، وما وجدت في أمة إلا وكانت عاقبتها خسرأ .

ولقد تحدث الإمام الرازي عن تلك المفاصد التي تقترب على الزنا فقال ما ملخصه :

الزنا أشتمل على أنواع من المفاصد : أولها : اختلاط الأنساب واشتباهاها ، فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي أتت به الزانية ، أهر منه أو من غيره ...

وثانيها : أنه إذا لم يوجد سبب شرعي لأجله يكون هذا الرجل لتلك المرأة ، لم يبق في حصول ذلك الاختصاص إلا التوائب والتقاتل ...

وثالثها : أن المرأة إذا باشرت الزنا ، استقذرها كل طبع سليم ، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة ، ولا يتم السكن والإزدواج ...

ورابعها : أنه إذا فتح باب الزنا ، فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة وحينئذ لا يبقى بين فروع الإنسان ، وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب .

وخامسها : أنه ليس المقصود من المرأة قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل واعداد مهماته . . . وهذه المهمات لا تتم إلا إذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد، منقطعة الطمع عن سائر الرجال وذلك لا يحصل إلا بتحريم الزنا ... فثبت بما ذكرنا أن العقول السليمة تفضي على الزنا بالقبح (١)

ولقد سد الإسلام جميع المنافذ التي تؤدي إلى ارتكاب هذه الفاحشة ، وسلك لذلك وسائل من أهمها :

١ - تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية ، ومنع الاختلاط بين الرجال والنساء

الافى حدود الضرورة الشرعية ، ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ،
مارواه الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :
« لا يخلون أحدكم بامرأة الا مع ذى محرم ،

وروى الشيخان - أيضا - عن عقبه بن عامر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال : إياكم والدخول على النساء . فقال رجل من الأنصار :
أفرايت الحمى - بفتح الحاء وسكون الميم - وهو قريب الزوج كإخيه وابن
عمه - فقال - صلى الله عليه وسلم - : الحمى الموت (١) . أى : دخوله قد يؤدى
إلى الموت .

٢ - تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية . وجوب غض البصر .

قال - تعالى - « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ... »
وقال - سبحانه - « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن
فروجهن ... » (٢)

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال : كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى مدرك ذلك لا محالة : العينان زناهما
النظر ، والأذانان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ... والقلب يهوى
ويشتمى ، ويصدق ذلك انفرج أو يكذبه ، (٣) .

٣ - وجوب التستر والاحتشام للمرأة ، فإن التبرج والسفور يهوى
الرجال بالنساء ، ويحرك الغريزة الجنسية بينهما .

قال - تعالى - : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين

(١) رياض الصالحين ص ٦٣٤ باب تحريم الخلوة بالأجنبية .

(٢) سورة النور الآيتان ٣٠ ، ٣١

(٣) رياض الصالحين ص ٦٢٢ الإمام النووي .

عليهن من جلا بيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين . . . (١)

د - الحض على الزواج ، وتيسير وسائله ، والبعد عن التغالى فى نفقاته ، وتخفيف مؤنه وتكاليفه فإن الزواج من شأنه أن يحصن الإنسان ، ويجعله يقضى شهوته فى الحلال . . .

فإذا لم يستطع الشاب الزواج ، فعليه بالصوم فإنه له وقاية - كما جاء فى الحديث الشريف - .

ه - إقامة حدود الله بحزم وشدة على الزناة سواء أكانوا من الرجال أم من النساء ، كما قال - تعالى - . الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، (٢) .

وهذا الجلد إنما هو بالنسبة للبكر ذكر أو أنثى ، أما بالنسبة للمحصن وهو المتزوج أو الذى سبق له الزواج ، فمقوبته الرجم ذكر أو أنثى ، وقد ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة .

فى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قضى فى زان لم يتزوج وزانية متزوجة ، بقوله لوالد الرجل : د على ابنك مائة جلدة وتغريب عام ، ثم قال - صلى الله عليه وسلم - لأحد أصحابه واسمه أنيس : أغديا أنيس إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها ، فغدا عليها فاعترفت فرجمها .

وما لاشك فيه أنه لو تم تنفيذ حدود الله - تعالى - على الزناة ، لحقت هذه الفاحشة محققا ، لأن الشخص إن لم يتركها خوفا من ربه - عز وجل - لتركها خوفا من تلك العقوبة الرادعة ، ومن فضيخته على رموس الاشهاد .

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٩

(٢) سورة النور الآية ٢

هذه بعض وسائل الوقاية من تلك الفاحشة القبيحة ، ولوا تبعها المسلمون ،
لظهرت أمتهم من رجسها ، ولحفظت في دينها وديارها .

ثم نهى - سبحانه - عن قتل النفس المعصومة الدم ، بعد نهيه عن قتل
الاولاد ، وعن الاقتراب من فاحشة الزنا فقال - تعالى - : ولا تقتلوا النفس
التي حرم الله إلا بالحق .

أى : ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها ، إلا بالحق الذي يبيح قتلها
شرعا ، كردة ، أو قصاص ، أو زنا يوجب الرجم .

قال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - ناهياً عن قتل النفس بغير حق
شرعى ، كما ثبت في الصحيحين - عن عبد الله بن مسعود - أن رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - قال : لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله
وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن ،
والتارك لدينه المفارق للجماعة .

وفي السنن . لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم (١) .

وقوله - إلا بالحق ، متعلق بـ لا تقتلوا ، والباء للسببية ، والإستثناء
مفرغ من أعم الاحوال أى : لا تقتلونها في حال من الاحوال ، إلا في حال
ارتكابها لما يوجب قتلها .

وذلك ؛ لأن الإسلام ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء بناء الله - تعالى -
فلا يحل لأحد أن يهدمه إلا بحق .

وبهذا يقرر الإسلام عصمة الدم الإنسانى ، ويعتبر من يعتدى على نفس
واحدة ، فكأنما قد اعتدى على الناس جميعا . قال - تعالى - : من أجل ذلك
كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض

فكانها قتل الناس جميعا ، ومن أحياءها فكأنها أحياء الناس جميعا ... ،^(١)
وقوله - سبحانه - ، « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا
يسرف في القتل إنه كان منصورا » ، إرشاد لولى المقتول إلى سلوك طريق
العدل عند المطالبة بحقه .

والمراد بوليه . من يلى أمر المقتول ، كآبيه وابنه وأخيه وغيرهم من
أقاربه الذين لهم الحق في المطالبة بدمه . فإن لم يكن للمقتول ولى ،
فالحاكم ولىه .

والمراد بالسلطان : القوة التى منحتها شريعة الله - تعالى - لولى المقتول
على القاتل ، حيث جعلت من حق هذا الولى المطالبة بالقصاص من القاتل ،
أو أخذ الدية منه ، أو العفو عنه ، ولا يستطيع أحد أن ينافى في هذا الحق ،
أو أن يجبره على التنازل عنه .

والمعنى : ومن قتل مظلوما ، أى : بدون سبب يوجب قتله ، فإن دمه لم
يذهب هدرا ، فقد شرعنا لوليه سلطانا ، على القاتل ، لأنه - أى الولى - إن
شاء طالب بالقصاص منه ، وإن شاء أخذ الدية ، وإن شاء عفا عنه . وبذلك
يصير الولى هو صاحب الكلمة الأولى في التصرف في القاتل ، حتى لو كانه
مملوك له .

وما دامت شريعة الله - تعالى - قد أعطت الولى هذا السلطان على القاتل ،
فعليه أن لا يسرف في القتل ، وأن لا يتجاوز ما شرعه الله - تعالى - .
ومن مظاهر هذا التجاوز : أن يقتل اثنين - مثلا - في مقابل قتل واحد ،
أو أن يقتل غير القاتل ، أو أن يمثل بالقاتل بعد قتله .

قال الألوسى ما ملخصه : كان من عادتهم في الجاهلية ، أنهم إذا قتل منهم
واحد ، قتلوا قاتله ، وقتلوا معه غيره

وأخرج البيهقي في سننه عن زيد بن أسلم أنه قال : إن الناس في الجاهلية كانوا إذا قتل من ليس شريفاً شريفاً ، لم يقتلوه به ، وقتلوا شريفاً من قومه ، فنهوا عن ذلك ، كما نهوا عن المثلة بالقاتل .

وقرأ حمزة والكسائي : فلا تسرف بالخطاب للولي على سبيل الالتفات ، (١) .

وقوله : فإنه كان منصوراً ، تذييل المقصود به تعليل النهي عن الإصراف في القتل . والضمير يعود إلى الولي - أيضاً - .

أى : فلا يسرف هذا الولي في القتل ، لأن الله - تعالى - قد نصره عن طريق ما شرعه له من سلطان عظيم ومن مظاهره : المطالبة بالقصاص من القاتل ، أو بأخذ الدية ، ومن مظاهره - أيضاً - وقوف الحاكم وغيره إلى إى جانبه حتى يستوفى حقه من القاتل ، دون أن ينازعه منازع فى هذا الحق .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله : فإنه ، يعود إلى المقتول ظلياً ، على معنى : أن الله - تعالى - قد نصره فى الدنيا بمشروعية القصاص والدية حتى لا يضيع دمه ، ونصره فى الآخرة بالثواب الذى يستحقه ، وما دام الأمر كذلك فعلى وليه أن لا يسرف فى القتل .

ويدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب . لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة .

قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال فى ذلك : وأشبه ذلك بالصواب عندى ، قول من قال : عنى بها - أى بالهاء فى إنه - الولي ، وعليه عادت ، لأنه هو المظلوم ووليهِ المقتول ، وهى إلى ذكره أقرب من ذكر المقتول ، وهو المنصور - أيضاً - لأن الله - جل ثناؤه - قضى فى كتابه المنزل ، أن سلطه على قاتل وليه ، وحكمه فيه ، بأن جعل إىه قتله إن شاء ، واستبقاه على الدية

إن أحب ، والعفو عنه إن رأى . وكفى بذلك نصرة له من الله - تعالى - ،
فلذلك هو المعنى بالها . التي في قوله : إنه كان منصوراً ، (١) .

والماتمل في هذه الآية الكريمة التي هي أول آية نزلت في شأن القتل كما
قال الضحاك (٢) - : يراها قد عالجت هذه الجريمة علاجا حكما .

فهي أولا : تنهى عن القتل ، لأنه من أكبر الكبائر التي تؤدي إلى غضب
الله - تعالى - وسخطه ، قال - تعالى - : ومن يقتل مؤمدا متعمدا فجزاؤه
جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ، (٣) .

وجاء النهي عنه في بعض الآيات بعد النهي عن الإشراك بالله - عز وجل - .
قال - سبحانه - : والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس
التي حرم الله إلا بالحق ، (٤) .

كما جاء النهي عنه في كثير من الأحاديث النبوية ، ومن ذلك ما جاء في
الصحيحين عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - قال : أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء ، .

وفي حديث آخر يقول - صلى الله عليه وسلم - الأدمي بنيان الرب ، ملعون
من هدم بنيان الرب ، .

وفي حديث ثالث : لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل
مسلم ، لأكبهم الله في النار ، .

وهذا النهي الشديد عن قتل النفس من أسبابه : أنه يؤدي إلى شيوع الغل
والبغض والتقاتل بين الأفراد والجماعات .

(١) تفسير ابن جرير ج ٨ ص ٦٠ : طبعة دار المعرفة - بيروت

(٢) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ٧٠

(٣) سورة النساء الآية ٩٣

(٤) سورة الفرقان الآية ٢١

إذ النفس البشرية في كل زمان ومكان ، يؤلمها ، ويشير غضبها وانتقامها ،
أن ترى قاتل عزيز لديها يمشى على الأرض . . .

وهي ثانيا : تسوق لولى المقتول من التوجيهات الحكيمة ، ما يهدى نفسه ،
ويقلل من غضبه ، ويطفىء من نار ثورته المشتعلة . .

وقد أجاد صاحب الظلال - رحمه الله - في توضيح هذا المعنى فقال :

« وفي تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل ، وتجنيد سلطان الشرع
وتجنيد الحاكم لنصرته ، قلبية للفطرة البشرية ، وتهذبة للغليان الذي تستشعره
نفس الولي . الغايان الذي قد يحرقه ويدفعه إلى الضرب يمينا وشمالا ، فيحرق
انغضب والافعال على غير هدى . فأما حين يحس أن الله قد ولاه على دم القاتل .
وأن الحاكم يجند لنصرته على القصاص ، فإن نائوته تهدأ ، ونفسه تسكن ،
ويقف عند حد القصاص العادل الهادي . »

والإنسان لإنسان ، فلا يطالب بغير ما ركب في فطرته من الرغبة العميقة
في القصاص . لذلك يعترف الإسلام بهذه الفطرة ويلبّيها في الحدود المأموّنة ،
ولا يتجاهلها فيفرض التسامح فرضا . إنما هو يدعو إلى التسامح ويؤثره ،
ويحبب فيه ، ويأجر عليه ، وليكن بعد أن يعطى الحق . فلولي الدم أن يقتص
أو يصفح .

وشعور ولي الدم بأنه قادر على كليهما ، قد يمنح به إلى الصفح والتسامح ،
أما شعوره بأنه مرغم على الصفح فقد يهيج نفسه ، ويدفع به إلى الغلو
والجور ، (١) .

هذا ، والذي نعتقده وندين الله - تعالى - عليه ، أنه لا علاج لجريمة
القتل - وغيرها - إلا بتطبيق شريعة الله - تعالى - التي جمعت بين الرحمة
والعدل .

وبالرحمة والعدل : تتلاقى القلوب بعد التفرق ، وتلتئم بعد التصدع ،
وتتسامى عن الانتقام إلى ما هو أعلى منه وهو العفو .

وبعد أن نهى - سبحانه - عن إكلاف النفوس عن طريق القتل والزنا ،
أتبع ذلك بالنهي عن إكلاف الأموال التي هي قرام الحياة ، وبدأ - سبحانه -
بالنهي عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالنى هي أحسن ، ثم ثنى بالأمر بإيفاء
الكيل والميزان عند التعامل ، فقال - تعالى - :

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالنى هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا
بالعهد إن العهد كان مسئولا ٣٤ وأوفوا الكيل إذا كتم ، وزنوا بالقسطاس
المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا ٣٥ .

واليتيم : هو الصغير الذى مات أبوه مأخوذ من اليتيم بمعنى الانفراد ،
ومنه الدرّة اليتيمة .

والخطاب فى قوله : « ولا تقربوا . . . » لأولياء اليتيم ، والأوصياء
على ماله .

والأشد : قوة الإنسان ، واشتعال حرارته ، من الشدة بمعنى القوة .
يقال : شد النهار إذا ارتفع واكتمل ، وهو مفرد جاء بصيغة الجمع . أو هو
جمع لا واحد له من لفظه ، أو جمع شدة كأنعم ونعمة .

أى : ولا تقربوا - أيها الأولياء على اليتيم - ماله الذى منحه الله لإياه عن
طريق الميراث أو غيره ، إلا بالطريقة التى هي أحسن الطرق ، والى من
شأنها أن تنفعه ، كالمحافظة عليه ، واستثماره له ، وإنفاقه فى الوجوه المشروعة .
واعلموا أن كل تصرف مع اليتيم أو فى ماله ، لا يقع فى تلك الدائرة -
دائرة الانفع والأحسن - فهو تصرف محظور ومنهى عنه ، وسيحاسبكم الله
- تعالى - عليه .

وتعليق النهى بالقبض ، المستغنى عنه ، عن التصرف فى مال اليتيم ،
إلا بالطريقة التى أحسن .

وقوله : « حتى يبلغ أشده » ، ليس غاية للنهي ، إذ ليس المعنى : فإذا بلغ أشده فاقربوه ، لأن هذا المعنى يقتضى إباحة أكل الولي لمال اليتيم بعد بلوغه وإنما هو غاية لما يفهم من النهي ، فيكون المعنى لا تقربوا مال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسن ، واستمروا على ذلك حتى يبلغ أشده ، أى : حتى يصير بالغاً عاقلاً رشيداً ، فإذا ما صار كذلك ، فسلوا إليه ماله بأمانته واستعفاف عن التطلع إلى شيء منه .

هذا ، وقد أمرت شريعة الإسلام ، بحسن رعاية اليتيم ، وبالمحافظة على حقوقه ، ونهت عن الإساءة إليه ، بأى لون من ألوان الإساءة :
قال - تعالى - : « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن فحطوهم فإخوانكم ... » (١) .

وقال - سبحانه - : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون في بطونهم نارا ، وسيصلون سعيراً » (٢) .

وقال - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الذى رواه الإمام البخارى عن سهل بن سعد رضى الله عنه - « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى » (٣) .

وروى الشيخان عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أنه قال : اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات ،
ومن الحكم التى من أجلها أمر الإسلام بالعطف على اليتيم ، ونهى عن ظلمه ، أنه إنسان ضعيف فقد الأب الحانى ، والعائل والنصير منذ صغره ...

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٠

(٢) سورة النساء الآية ١٠

(٣) من كتاب رياض الصالحين ، ص ١٣٧ للإمام النووى

فإذا نشأ في بيته ترعاه وتكرمه ... شب مجال من حوله ، وللمجتمع الذي يعيش فيه .

وإذا نشأ في بيته تقهره وتذله وتظلمه .. ، نظر إلى من حوله ، وإلى المجتمع الذي يعيش فيه ، نظرة العدو إلى عدوه ...

وكانه يقول لنفسه : إذا كان الناس لم يحسنوا إلى في صغري وفي حالة ضعفي ، فلماذا أحسن إليهم في حال كبري وقوتي !!

وإذا كانوا قد حرموني حقي الذي منحه الله لي فلماذا أعطيهم شيئاً من خيري وبري !!

هذه بعض الأسباب التي من أجلها أمر الإسلام أتباعه برعاية اليتيم وإكرامه ، وصيانة حقوقه من أي اعتداء أو ظلم .

وبعد أن نهى - سبحانه - عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ، أمر بالوفاء بالعهد فقال : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً » .

والعهد : ما من شأنه أن يراعى ويحفظ ، كالوصية واليمين . وعهد الله : أوامره ونواهيه وعهد الناس : ما يتعهدون عليه من معاملات وعقود وغير ذلك مما تقتضيه شئون حياتهم .

أي : « وأوفوا بالعهد الذي بينكم وبين الله - تعالى - ، واثق بينكم وبين الناس ، بأن تؤدوها كاملة غير منقوصة ، وأن تقوموا بما تقتضيه من حقوق شرعية . وقوله « إن العهد كان مسئولاً » ، تعليل لوجوب الوفاء بالعهد .

أي : كوفوا أوفياء بعهدكم لأن صاحب العهد كان مسئولاً عنه ، أمام الله - تعالى - وأمام الناس . فالكلام على حذف مضاف كما في قوله - سبحانه - « واسأل القرية » .

وقال - سبحانه - « وأوفوا بالعهد إن العهد ... » ، بالإظهار دون الإضمار للإشارة بكمال العناية

ويجوز أن يكون المعنى : وأوفوا بالعهد إن العهد كان مستولاً أى : كان مطلوباً الوفاء به وقد مدح الله - تعالى - الذين يوفون بعهدهم فى آيات كثيرة، منها قوله - تعالى - : « إنما يتذكر أولوا الألباب » الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، (١) .

وقوله - تعالى - : والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ، (٢) .

وبعد أن أمر - سبحانه - بالوفاء بصفة عامة ، أتبع ذلك بالوفاء فى شئون البيع والشراء ، فقال - تعالى - : « وأوفوا السكيل إذا كلمتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلاً » .

والقسطاس : الميزان الذى يوزن به فى حالتى البيع والشراء .

قال صاحب الكشف : قرئ « بالقسطاس » بكسر القاف وضمها - ... قبل كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرها ، (٣) .

وقال الألومى ماملاً خصه : وهذا اللفظ رومى معرب .. وقيل عربى ... وعلى القول بأنه رومى معرب - وهو الصحيح - لا يقدح استعماله فى القرآن فى عربيته المذكورة فى قوله - تعالى - : « إنما أنزلناه قرآناً عربياً ، لأنه بعد التعريب والسماع فى فصيح الكلام ، يصير عربياً ، فلا حاجة إلى إنكار تعريبه ... » (٤) .

وقوله : « تأويلاً » من الأول - بفتح الهمزة وسكون الواو - بمعنى الرجوع . يقال : آل هذا الأمر كذا ، إذا رجع إليه .

(١) سورة الرعد الآية ١٩ ، ٢٠ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

(٣) تفسير الكشف ج ٢ ص ٤٤٨ .

(٤) تفسير الألومى ج ١٥ ص ٧٢ .

والمعنى : وأنتموا أيها المؤمنون الكيل إذا كلمت لغيركم عند بيعكم لهم ما تريدون بيعه ، وزنوا لهم كذلك بالميزان المستقيم العادل ما تريدون وزنه لهم .

وقيد - سبحانه - الأمر بوجوب إتمام الكيل والميزان في حالة البيع ، لأنها الحالة التي يكون فيها التطفيف في العادة . إذ أن البائع هو الذي غالبا ما يطفف المشتري في المكيال والميزان ولا يعطيه حقه كاملا .

قال - تعالى - : « ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » .

واسم الإشارة في قوله « ذلك خير وأحسن تأويلا » يعود إلى تمام الكيل والميزان بالقسطاس المستقيم .

أى : ذلك الذى أمرناكم به . من وجوب إتمام المكيال والميزان عند التعامل ، خير لكم في الدنيا ، لأنه يرغب الناس في التعامل معكم ، أما في الآخرة فهو أحسن عاقبة ومالا ، لما يترتب عليه من الثواب الجزيل لكم من الله - عز وجل - .

ثم ختم - سبحانه - تلك التوجيهات السامية السديدة ، بالنهى عن تتبع مالا علم الإنسان به ، وعن الفخر والتكبر والخيلاء . . . فقال - تعالى - :

ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا ٢٦ ولا تمش في الأرض مرحا ، إنك إن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا ٢٧ كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها ٢٨ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله إلها آخر ، فتلقى في جهم ملوما مدحورا ٢٩ .

قال القرطبي - رحمه الله - ماملخصه : قوله - تعالى - : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، أى : ولا تتعصم ما لا تعلم ولا يعينك - من قول أو فعل - قال قتاده : لا تقل رأيت وأنت لم تر ، وسمعت وأنت لم تسمع ، وعلمت وأنت لم تعلم . . .

ثم قال : وأصل القفو البهت ، والقذف بالباطل ، ومنه قوله - عليه الصلاة والسلام - : نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ، ولا نفتني من أيننا ، أى : لا نسب أمنا .

ويقال : قفوته أقفوه ... إذا اتبعت أثره . وقافية كل شيء آخره ، ومنه اسم النبي - صلى الله عليه وسلم - : المقفى ، لأنه آخر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، ومنه القائف ، وهو الذى يتبع الأثر ... (١)

وقال صاحب الكشف - رحمه الله - : قوله : ولا نقف ما ليس لك به علم : يعنى ، ولا تكون فى إقباعك ما لا علم لك به من قول أو فعل ، كمن يتبع مسلما لا يدري أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال . والمعاد : النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، وأن يعمل بما لا يعلم . ويدخل فيه النهى عن التقليد - الأعمى - دخولا ظاهرا لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فسادة ... (٢)

وقوله : إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولاً ، تحذير شديد من أن يقول الإنسان قولاً لا علم له به ، أو أن يفعل فعلاً بدون تحقق ، أو أن يحكم حكماً بلا بينة أو دليل .

أى : إن السمع الذى تسمع به - أيها المكلف - ، والبصر الذى تبصر به ، والفؤاد - أى القلب - الذى تحيا به ، كل أولئك الأعضاء ستكون مسئولا عن أفعالها يوم القيامة ، وسيقال لك بتأنيب وتوبيخ : لماذا سمعت ما لا يحل لك سماعه ، ونظرت إلى ما لا يجوز لك النظر إليه ، وسعيت إلى ما لا يصح لك أن تسعى إليه !!

وعلى هذا التفسير يكون السؤال فى قوله - تعالى - : كان عنه مسئولا ، للإنسان الذى تتبع ما ليس له به علم من قول أو فعل .

(١) تفسير القرطبي ١٠ ص ٢٥٧ .

(٢) تفسير الكشف ٢ ص ١٤٩ .

ومن الآيات التي تشهد لهذا التفسير قوله - تعالى - : د فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ، (١) .

ومنهم من يرى أن السؤال موجه إلى تلك الأعضاء ، لتتطرق بما اجتريحه صاحبها ، ولتكون شاهدة عليه ، فيكون المعنى :

إن السمع والبصر والفؤاد ، كل واحد من أولئك الأعضاء ، كان مسئولاً عن فعله ، بأن يقال له : هل استعملك صاحبك فيها خلقت من أجله أولاً ؟ ويكون هذا السؤال للأعضاء من باب التوبيخ لأصحابها ، كما قال - تعالى - :
• اليوم نختم على أفواههم وقلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ، (٢)

وكما قال - سبحانه - : د ويوم يحشر أعداء الله على النار فهم يوزعون .
حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، (٣) .

واسم الإشارة د أولئك ، على التفسيرين يعود إلى السمع والبصر والفؤاد ، إما لأن هذا الاسم يشار به إلى العقلاء ويشار به إلى غير العقلاء ، كما في قول الشاعر :

ذُئِمَّ المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

وإما لأن هذه الأعضاء أخذت حكم العقلاء ، لأنها جزء منهم ، وشاهدة عليهم .

وعلى كلا التفسيرين أيضاً ، يتمثل التحذير الشديد للانسان عن أن يتبع ما ليس له به علم .

(١) سورة الحجر الآية ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) سورة يس الآية ٦٥ .

(٣) سورة فصلت الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

قال الجمل : وقوله - تعالى - د كل أولئك ، مبتدأ ، خبره جملة د كان عنه مسئولاً ، ، والضمير في د كان ، وفي د عنه ، وفي د مسئولاً ، يعود على كل .
أى : كان كل واحد منها مسئولاً عن نفسه ، يعنى ، عما فذل به صاحبه : ويجوز أن يكون الضمير في د عنه ، لصاحب السمع والبصر والفؤاد (١)

وشبيه بهذه الآية فى النهى عن اتباع مالا علم للانسان به . قوله - تعالى - :
« قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ،
وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » (٢).

وقوله - سبحانه - يأيها الناس كوا انما فى الارض حلالاً طيباً : ولا تتبعوا
خطوات الشيطان لانه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن
تقولوا على الله ما لا تعلمون ، (٣) .

قال الإمام ابن كثير : ومضمون ما ذكره - فى معنى قوله - تعالى - :
ولا تقف ما ليس لك به علم أن الله - تعالى - نهى عن القول بلا علم ،
كما قال - سبحانه - : اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم
وفى الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » وفى سنن
أبى داود : « بنس مطية الرجل زعموا ، وفى الحديث الآخر : « إن أفرى
الفرى - أى أكذب الكذب - أن يرى الرجل عينيه ما لم ترى » (٤) .

وقال بعض العلماء : وهذه الكلمات القليلة - التى اشتملت عليها الآية -
تقيم منجاً كاملاً للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمى الذى عرفته البشرية حديثاً
جداً ، ويضيف إليه استقامة القلب ، ومراقبة الله ، ميزة الإسلام على المناهج
العقلية الجافة !

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٢٥ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٣٣ (٣) سورة البقرة الآية ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٧٢ .

فالتثبت من كل خبر ، ومن كل ظاهرة ، ومن كل حركة ، قبل الحكم عليها ، هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق ...

فلا يقول اللسان كلمة ، ولا ينتقل رواية ، ولا يروي حادثة ، ولا يحكم العقل حكماً ، ولا يبرم الإنسان أمراً . إلا وقد تثبت من كل جزئية ، وعن كل ملاحظة ، ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها ... (١) .

ثم ينتقل القرآن الكريم من النهى عن أن يتبع الإنسان ما لا علم له به ، إلى النهى عن التفاخر والتكبر والإعجاب في النفس فيقول : ولا تمش في الأرض مرحاً

والمرح في الأصل : شدة الفرح ، والتوسع فيه ، مع الخيلاء والتعالى على الناس ، يقال : مرح - بزنة فرح - يمرح مرحاً ، إذا اشتد فرحه ومشى مشية المتكبرين . وهو مصدر وقع موقع الحال .
أى : ولا تمش - أيها الإنسان - في الأرض مشية الفخور المتكبر المختال ، بل كن متواضعاً متأدباً بأدب الإسلام في سلوكك .

وتقيد النهى بقوله : في الأرض ، للتذكير بالمبدأ والمعاد ، المانع من التكبر والخيلاء ، إذ من الأرض خلق وإليها يعود ، ومن كان كذلك كان جديراً به أن يتواضع لا أن يتكبر .

قال - تعالى - : منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : : إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا ، تعليل للنهى عن التفاخر مع السخرية والتهكم من المتفاخر المغرور .

أى : إنك - أيها الماشى في الأرض مرحاً - لن تخرق الأرض بوطئك

(١) من تفسير د في ظلال القرآن ، ج ١٥ ص ٢٢٢٧ .

عليها ، أو بمشيك فوقها ، وإن تبلغ - مهما ارتفعت قامتك - الجبال في الطول والعلو . وما دام شأنك كذلك ، فكن متواضعا ، فمن تواضع لله - تعالى - رفعه .

وقوله « طولاً » تميز محمول عن الفاعل . أى : إن يبلغ طولك الجبال ، وشبيه به هذه الآية في النهي عن التعالى والتطاؤل ، قوله - تعالى - : « ولا تصغر خدك للناس ، ولا تمس في الأرض مرحاً » ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، (١) .

وقد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالتواضع ، ونهى عن التكبر والغرور ، وبين سوء عاقبة ذلك في أحاديث كثيرة ، منها ما رواه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله - تعالى - أوحى إلى أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد » ، (٢) .

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً » ، (٣) .

وروى الترمذي عن سلمة بن الأكوع قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه - أى يرتفع ويتكبر - حتى يكتب في الجبارين - فيصيبه ما أصابهم » ، (٤) .

ورحم الله القائل :

ولا تمس فوق الأرض إلا تواضعا فكم تحتها قوم هموا منك أرفع
وإن كنت في عز وحرز ومنعة فكم مات من قوم هموا منك أضع

(١) سورة لقمان الآية ١٨ .

(٢) ، (٣) ، (٤) من كتاب رياض الصالحين ص ٢٨٥ للإمام النووي ،

ثم ختم - سبحانه - تلك التكاليف ، التي يخلب عليها طابع النهى عن الرذائل بقوله : « كل ذلك كان سيئته عند ربك مكروها » .

واسم الإشارة ، ذلك ، يعود إلى ما تقدم ذكره من التكاليف والأوامر والنواهي ، التي لا يتطرق إليها النسخ ، والتي تبلغ خمسة وعشرين تكليفا ، تبدأ بقوله - تعالى - لا تجمل مع الله لها آخر ، ثم يأتي بعو ذلك النهى عن عقوق الوالدين ، والأمر بصلة الأرحام ، وبالعطف على المسكين وابن السبيل ، ثم النهى عن البخل ، والإسراف ، وقتل الأولاد ، والاقتراب من الزنا ، وقتل النفس إلا بالحق ، والاعتداء على مال اليتيم . . . إلخ .

والضمير في ، سيئته ، يعود إلى ما نهى الله عنه من أفعال ، كالشرك ، وعقوق الوالدين ، والزنا .

أى : كل ذلك الذى بيناه لك فيما سبق ، كان الفعل السيئ منه ، عند ربك مكروها ، أى : ميقوضا عنده - سبحانه - وأما الفعل الحسن كالوفاء بالعهد ، وإعطاء ذى القربى حقه ، فهو محمود عند ربك - عز وجل .

قال الآلوسى : ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن أكثره من الكبائر - كالشرك والزنا . . . - للإيدان بأن مجرد الكراهة عنده - تعالى - كافية في وجوب الكف عن ذلك .

و توجيه الإشارة إلى الكل ، ثم تعيين البعض دون توجيهها إليه ابتداء ، لما قيل : من أن البعض المذكور جملة ، بل على وجه الاختلاط لنكتة اقتضته ، وفيه إشعار يكون ماعدا مرضيا عنده - سبحانه - .

ولنما لم يصرح بذلك ، إيدانا بالغنى عنه ، أو اهتماما بشأن التنفير من النواهي . . . (١) .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : « كل ذلك كان سيئة » ، بالتاء والتنوين .

وعلى هذه القراءة يكون اسم الإشارة ، يعود إلى المنهيات السابقة فقط ، ويكون المعنى : كل ذلك الذى نهيناك عنه فى الآيات السابقة ، من الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، واتباع ما ليس لك به علم . . . كان اقترافه سيئة من السيئات المبغوضة عند ربك ، المحرمة فى شرعه ، المعاقب مرتكبها .

ثم ختم - سبحانه - تلك الأحكام المحكمة ، والتكاليف السامية ، بقوله : ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا . .

أى : ذلك الذى أمرك به ، ونهيناك عنه - أيها الرسول الكريم - بعض ما أوحاه الله - تعالى - عليك من الحكمة ، التى هى علم الشرائع ومعرفة الحق ، والعمل به ، وحذار أن تجعل بعد هذا البيان الحكيم ، مع الله - تعالى - إلها آخر - أيها المخاطب - فتلقى وتطرح فى جهنم ، ملوما من نفسك ومن غيرك ، مدحورا أى : مبعدا من رحمة الله - تعالى - .

قال صاحب الكشف : ولقد جعل الله - تعالى - فاتحتها - أى تلك الآيات المشتملة على تلك الأوامر والنواهي - وخاتمتها ، النهى عن الشرك ، لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها ، وعن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذ فيها الحكماء ، وحك بيافوخه السماء ، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم من دين الله أضل من النعم (١) .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة التى اشتملت على بضع وعشرين تكليفا ، والنى ابتدأت بقوله - تعالى - لا تجعل مع الله إلها آخر . . . وانتهت بقوله - سبحانه - ولا تجعل مع الله إلها آخر . . . قد ربطت قواعد السلوك والآداب : والتكاليف الفردية والاجتماعية ، بإخلاص العباداة لله - تعالى -

لأن هذا الإخلاص لله - تعالى - في العقيدة والعبادة والقول والعمل . . . هو رأس كل حكمة وملاكمها ، كما قال صاحب الكشف - رحمه الله - .

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما ذكر من الأوامر والنواهي في الآيات السابقة ، التي بدأها وختمها بالنهاي عن الإشراك بالله - تعالى - أتبع ذلك بإقامة الأدلة على استحالة أن يكون له شريك أو ولد ، بل كل من في السموات ومن الأرض ، خاضع لسلطانه ، وما من شيء إلا ويسبح بحمده ، فقال - تعالى - :

« أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ ، وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا ، وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) » .

والخطاب في قوله - تعالى - : « أَفَأَصْفَاكُمْ . . . » للكافرين الذين قالوا ، الملائكة بنات الله .

والإصفاء بالشئ : جعله خالصا . يقال : أصفى فلان فلانا بالشئ ، إذا أثر به . ويقال للأشياء التي يختص السلطان بها نفسه : الصوافي . وفعله صفا يصفو وتضمن هنا معنى التخصيص .

والاستفهام للانكار والتوبيخ والتهكم .

والمعنى - كما يقول صاحب الكشف - أنفصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد ، وهم الذكور ، ولم يجعل فيهم نصيبا لنفسه ، واتخذ

أدونهم ، وهن البنات ، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم ، بل تئدوهن وتقتلونهن !!
فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم . فإن العبيد لا يؤثرون
بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ، ويكون أردوها وأدونها
للسادات ، (١) .

والمقصود من الجملة السكرية نفي ما زعموه من أن الملائكة بنات الله بأبلغ
وجه ، أى : لم يخصكم ربكم بالبنين ؛ ولم يتخذ من الملائكة إناثا ، لأنه سبحانه
تفزه عن الشريك والولد والوالد والشبيه .

قال - تعالى - : لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ،
سبحانه هو الله الواحد القهار ، (٢) .

وقال - تعالى - : ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى ، (٣) .
وقوله - سبحانه - : إنا أنعم عليكم لتقولون قولا عظيما ، تسفيهه لأقوالهم الباطلة
وأفسكارهم الفاسدة ، وعقولهم السقيمة .

أى : إنا أنعم بنسبتكم البنات إلى الله - تعالى - ، لتقولون قولا عظيما في
قبحه وشناعته ، وفي استهجان العقول السليمة له ، وفيما يترقب عليه من عقوبات
ألمية من الله - تعالى - لكم .

قال - تعالى - : وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا . تسكاد
السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن
ولدا . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من في السموات والأرض
إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتية يوم القيامة
فردا (٤) ..

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٥٠ .

(٢) سورة الزمر الآية ٤ .

(٣) سورة النجم الآية ٢١ ، ٢٢ .

(٤) سورة مريم الآيات من ٨٨ - ٩٥ .

ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن الذي أنزله على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - قد أشتعل على ألوان متعددة من الهدايات والآداب والأحكام ، فقال - تعالى - : ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعذركم ، وما يزيدكم إلا نفورا . .

وقوله - تعالى - : صرفنا ، من التصريف ، وهو في الأصل صرف الشيء من حالة إلى أخرى ، ومن جهة إلى أخرى .

والمراد به هنا : بينا ، وكررنا ، ومفعوله محذوف للعالم به .

والمعنى : ولقد بينا وكررنا في هذا القرآن أنواعا ، من الوعد والوعيد ، والقصص ، والأمثال ، والمواعظ والأخبار ، والآداب والتشريعات ، ليتذكر هؤلاء الضالون ويتعظوا ويحترزوا ، ويوقفوا بأنه من عند الله - تعالى - فيهديهم ذلك إلى اتباع الحق ، والسير في الطريق القويم .

وقوله - تعالى - : وما يزيدكم إلا نفورا ، تصوير بديع لإصرارهم على كفرهم وعنادهم ، وإيثارهم الغي على الرشد .

والنفور : التباء ، والإعراض عن الشيء . يقال : نفرت الدابة تنفرا - بكسر الفاء وضمها - نفورا ، إذا جزعت وتباءدت وشردت .

أي : وما يزيدكم هذا البيان والتكرار الذي أشتعل عليه القرآن الكريم ، إلا تباعدا عن الحق ، وإعراضا عنه ، وعكوبا على باطلهم ، بسبب جحودهم وعنادهم وحسدهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - على ما آناه الله من فضله . وكان بعض الصالحين إذا قرأ هذه الآية قال : زادني لك خضوعا ، ما زاد أعداءك نفورا ، .

ثم أمر الله - تعالى - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يوبخهم على شرهم ، وأن يسوق لهم الدلائل الواضحة على فساد عقولهم ، فقال - تعالى - : قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لا يبتغوا إلى ذي العرش سبيلا ، .

وقد قرأ جمهور القراء ، كما تقولون ، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم
« كما يقولون » .

وللمفسرين في تفسير هذه الآية إتجاهان ، أما الإتجاه الأول فيرى أصحابه
أن المعنى :

قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين ، لو كان مع الله - تعالى -
آلهة أخرى - كما يزعمون - إذا لطلبوا إلى ذى العرش - وهو الله عز وجل -
طريقا وسبيلا لتوصلهم إليه ، لكي ينازعوه في ملكه ، ويقاسموه إياه ، كما
هي عادة الشركاء ، وكما هو ديدن الرؤساء والملوك فيما بينهم .

قال - تعالى - : ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل
إله بما خلق ، ولعلنا بعضهم على بعض ، سبحانه الله عما يصفون ، (١) .

وقال - سبحانه - : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ، فسبحان الله رب
العرش عما يصفون ، (٢) .

وهذا الإتجاه قد صدر به صاحب الكشاف كلامه فقال ما ملخصه : قوله
« إذا لا يتغوا إلى ذى العرش سبيلا » جواب عن مقالة المشركين وجزاء للـ « و » .
أي : إذا لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة ، كما يفعل الملوك
بعضهم مع بعض ... ، (٣) .

وأما الإتجاه الثاني فيرى أصحابه أن المعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء
المشركين . لو كان مع الله - تعالى - آلهة أخرى - كما يزعمون - ، إذا لا يتغوا
- أي الآلهة المزعومة - إلى ذى العرش سبيلا وطريقا ليقتربوا إليه ،
ويعترفوا بفضله ، ويخلصوا له العبادة ، كما قال - تعالى - : أولئك الذين

(١) سورة المؤمنون الآية ٩١

(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٢

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٥٠

يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محظورا ، (١) .

وقد اقتصر ابن كثير على هذا الوجه في تفسيره للآية فقال: يقول - تعالى -: قل يا محمد هؤلاء المشركين الزاعمين أن الله شريكا من خلقه ، لو كان الأمر كما تقولون ، من أن معه آلهة تعبد . . . لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة . . . (٢)

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن الرأي الأول أظهر ، لأن في الآية فرض المحال ، وهو وجود الآلهة مع الله - تعالى - ، وافترض وجودها المحال لا يظهر منه أنها تقرب إليه - سبحانه - ، بل الذي يظهر منه أنها تنازعه لو كانت موجودة ، ولأن هذا الرأي يفاصله - أيضا - قوله - تعالى - بعد ذلك : « سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » .

أى : تنزه الله - تعالى - عما يقوله المشركون في شأنه وتباعد ، وعلوا علوا كبيرا ، فإنه - جل شأنه - لا ولد له ، فلا شريك له . . . قال - تعالى - : قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ،

والتعبير بقوله - سبحانه - : « إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا » يشير إلى الإرتفاع والقسامي على تلك الآلهة المزعومة ، وأنهادون عرشه - تعالى - وتحتته ، وليست معه . . .

ثم بين - سبحانه - أن جميع الكائنات تسبح بحمده فقال - تعالى - : تسبح له السموات السبع ، والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا نفقهون تسبيحهم . . .

(١) سورة الإسراء الآية ٥٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٧٦

والتسبيح : مأخوذ من السبح ، وهو المر السربع في الماء أو في الهواء ، فالمسبح مسرع في تنزيه الله وتبرئته من السوء ، ومن كل مالا يليق به - سبحانه - .
أى تنزه الله - تعالى - وتمجده ، السموات السبع ، والأرض ، ومن فيهن من الإنس والجن والملائكة وغير ذلك ، وما من شيء من مخلوقاته التى لا تحصى إلا ويسبح بحمد خالقه - تعالى - ، « ولكن ، أنتم يا بنى آدم ، لا تفقهون تسبيحهم ، لأن تسبيحهم بخلاف لغتكم ؛ وفوق مستوى فهمكم ، وإنما الذى يعلم تسبيحهم هو خالقهم عز وجل ، وصدق - سبحانه - إذ يقول : ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ، .

والمتدبر فى هذه الآية الكريمه ، يراها تبعث فى النفوس الخشية والرهبة من الخالق - عز وجل - ، لأنها تصرح بتصريحاً بليغاً بأن كل جماد ، وكل حيوان ، وكل طير ، وكل حشرة ... بل كل كائن فى هذا الوجود يسبح بحمده - تعالى - .

وهذا التصريح يحمل كل إنسان عاقل على طاعه الله ، وإخلاص العباد له ، ومداومة ذكره ... حتى لا يكون وهو الذى كرمه ربه وفضله أقل من غيره طاعة لله - تعالى - .

وقوله : إنه كان حليماً غفورا ، تذييل قصد به بيان فضل الله - تعالى - ورحمته بعباده مع تقصيرهم فى تسبيحه وذكره .
أى : ، إنه كان حليماً ، لا يعاجل المقصر بالعقوبة ، بل يمهله لعله يرعوى وينزجر عن تقصيره ومعصيته ، « غفورا ، لمن تاب وآمن وعمل صالحا واعتدى إلى صراطه المستقيم .

هذا ، ومن العلماء من يرى أن تسبيح هذه الكائنات بلسان الحال . قال بعض العلماء تسبيح هذه الكائنات لله - تعالى - هو دلالته بإمكانها وحدوثها ، وتغير شئونها ، وبديع صنعها ، على وجود مبدعها ، ووحده ، وقدرته ، وتنزهها عن لوازم الإمكان والحدوث ، كما يدل الأثر على المؤثر .

فهي دلالة بلسان الحال ، لا يفقهها إلا ذووا البصائر . أما الكافرون فلا يفقهون هذا التسبيح ، لفرط جهلهم ، وانطماس بصيرتهم ... ، (١)

ومنهم من يرى أن تسبيحها بلسان المقال ، أى أن التسبيح بمعناه الحقيقي . فالكل يسبح بحمد الله ؛ ولكن بلفظه الخاصة التي لا يفهمها الناس .

قال الإمام ابن كثير ماملخصة : وقوله : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، أى : وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله » واسكن لا تفقهون تسبيحهم ، أى : لا تفقهون تسبيحهم - أيها الناس - لأنها بخلاف لغتكم . وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد .

وهذا أشهر القولين كما ثبت في صحيح البخاري وغيره ، عن ابن مسعود أنه قال : « كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل ،

وفي حديث أبي ذر : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أخذ في يده حصيات ، فسمع هن تسبيح كحنين النحل . وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان - رضى الله عنهم - وهو حديث مشهور في المسانيد

ثم قال وبشهد لهذا القول آية المسجدة في أول سورة الحج - وهي قوله - تعالى - : « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجن والانس ، وكثير حق عليه العذاب » ، (٢)

وقال القرطبي : قوله - تعالى - : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن » أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل ، لما أسند اليه فعل

(١) صفوة البيان لمعاني القرآن ج ١ ص ٥٧ ؛ لفضيلة الشيخ حنين مخلوف

(٢) الآية ١٨ من سورة الحج وراجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٧٦

العاقل وهو التسييح . وقوله : « ومن فيهن » يريد الملائكة والإنس والجن ، ثم
عمم بعد ذلك الأشياء كلها في قوله : « وإن من شيء » إلا يسبح بحمده .
وإختلف في هذا العموم هل هو مخصص أولا . فقالت فرقة : ليس
مخصوصا ، والمراد به تسييح الدلالة ، كل محدث يشهد على نفسه بأن الله
- عز وجل - خالق قادر .

وقالت طائفة : هذا التسييح حقيقة ، وكل شيء على العموم يسبح تسييحا
لا يسمعه البشر : ولا يفقهه ، ولو كان ما قاله الأولون من أنه أثر الصفة
والدلالة ، لكان أمرا مفهوما ، والآية تنطق بأن هذا التسييح لا يفقه . . .
ويستدل لهذا القول من الكتاب بقوله - تعالى - : « ولقد آتينا داود منا
فضلا يا جبال أوبي معه والطير . . . »

وقوله - تعالى - . « وأذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أواب . » إنا سخرنا
الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق . . .

ثم قال : فالصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ، ولو كان
ذلك التسييح تسييح دلالة ، فأى تخصيص لداود ، وإنما ذلك تسييح المقال ،
بخلق الحياء والإنطاق بالتسييح . وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر
القرآن من تسييح كل شيء فالقول به أولى (١)

والذى نطمئن اليه النفس أن التسييح حقيقى وبلسان المقال ، لأن هذا
هو الظاهر من الآية الكريمة ، ولأن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية
تؤيد ذلك .

وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة على وحدانيته ، وأثبت أن كل شيء
يسبح بحمده ، أتبع ذلك ببيان أحوال المشركين عند سماعهم للقرآن الكريم ،

وببيان ما جعله الله - تعالى - على حواسهم بسبب جحودهم وعنادهم ، فقال - تعالى - :

« وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وجعلنا على قلوبهم أكنةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ، وَلَوْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نحن أعلم بما يستمعُونَ به ، إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ، إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْجُورًا (٤٧) انظر كيف ضربوا الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلًا (٤٨) » .

والخطاب في قوله - تعالى - : وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنَ ، للرسول - صلى الله عليه وسلم - وقوله ، حجاباً ، من الحجب بمعنى المنع .

قال صاحب المصباح : حجبته حجباً - من باب قتل - منعه . ومنه قيل للستر حجاب ، لأنه يمنع المشاهدة . وقيل للبواب : حاجب ، لأنه يمنع من الدخول . والأصل في الحجاب : جسم حائل بين جسدين ، وقد يستعمل في المعاني فقيل : العجز حاجب ، أى : بين الإنسان ومراده (١)

وقوله ، مستورا ، أى : ساترا ، فهو من إطلاق لاسم المفعول وإرادة لاسم الفاعل . كيمون بمعنى يامن . ومشثوم بمعنى شائم .

ولاختصار بعضهم أن مستورا على معناه الظاهر ، من كونه لاسم مفعول ، لأن ذلك الحجاب مستور عن أعين الناس فلا يرونه ، أو مستورا به القارىء فلا يراه غيره ويجوز أن يكون مستورا ، أى : ذا ستر فهو للنسب كما كان

مهول : ذو هول . . وللمفسرين في تفسير هذه الآية أقوال ، أشهرها قولان :

أولها يرى أصحابه ، أن المراد بالحجاب المستور ، ما حجب الله به قلوب هؤلاء الكافرين عن الإنتفاع بهدى القرآن الكريم ، بسبب جحودهم وجهلهم وإصرارهم على كفرهم . فهو حجاب معنوى خفى ، حال بينهم وبين الإنتفاع بالقرآن .

فهم يستمعون إليه ، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ، ويمانعون فطرتهم عن التأثر به ، فكان إستماعهم له كعدمه ، وعاقبهم الله على ذلك بأن طمس بصائرهم عن فهمه .

والمعنى : وإذا قرأت - أيها الرسول الكريم - القرآن الهادى إلى الطريق التى هى أقوم ، جعلنا - بقدرتنا - ومشيتنا - ، بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة ، حجابا يحجبهم ويمنعهم عن إدراك أسرارهم وهداياتهم ، وساترا بينك وبينهم ، بحيث لا يصل القرآن إلى قلوبهم وصول إنتفاع وهداية .

ويشهد لهذا المعنى قوله - تعالى - : وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل لنا جملون ، (١)

ومن المفسرين الذين لاكتفوا بهذا القول ، فلم يذكروا غيره ، الإمام البيضاوى ، فقد قال - رحمه الله - قوله : وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا يحجبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم ، مستورا ، ذا ستر ، كقوله - تعالى - : وعده ماتيا ، أو مستورا عن الحس . . . ، (٢)

أما القول الثانى فىرى أصحابه : أن المراد بالحجاب المستور ، أن الله - تعالى - يحجب فيه - صلى الله عليه وسلم - عن أعين المشركين ، بحيث لا يرونه فى أوقات معينة ، لحكم منها النجاة من شرورهم .

(١) سورة فصلت الآية ٥

(٢) تفسير البيضاوى ج ١ ص ٥٨٧

فيكون المعنى : وإذا قرأت القرآن - أيها الرسول الكريم - جددنا بينك وبين هؤلاء الكافرين ، حجابا ساترا لك عنهم بحيث لا يرووك ، عندما تكون المصلحة في ذلك .

وقد استشهد أصحاب هذا القول بما أخرجه الحافظ أبو يعلى عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما نزلت سورة «تبت يد أبي لهب ، جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة ، وفي يدها فهر - أي حجر - وهي تقول : مذمما أتينا ، وأمره عصينا ، ودينه قلينا : ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس ، وأبو بكر إلى جنبه .

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : لأنها لم تراني ، وقرأ قرآنا لمعتصمة منها ، - ربما قرأه - : وإذا قرأت القرآن جددنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا .

فجاءت حتى قامت على أبي بكر ، فلم تر النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فقالت : يا أبا بكر ، بلغني أن صاحبك هجاني : فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك .

فأنصرفت وهي تقول : لقد علمت قریش أنى بذت سيدها ، (١)

ومن المفسرين الذين استظهروا هذا القول ، الإمام القرطبي ، فقد قال بعد أن ذكر ما روى عن أسماء بنت أبي بكر - رضى الله عنهما - : وقال سعيد بن جبیر : لما نزلت سورة «تبت يدأ أبي لهب وتب ، جاءت امرأة أبي لهب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ومعه أبو بكر ، فقال أبو بكر لو تنحيت عنها لثلاث سمعتك ما يؤذيك فإنها امرأة بذية .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : « لانه سيحال بيني وبينها ، فلم تره .
فقلت لأبي بكر : يا أبا بكر هجانا صاحبك .

فقال أبو بكر : والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله . فاندفعت راجعة .
فقال أبر بكر : يا رسول الله ، أما رأيتك ؟
قال : لا . ما زال ملك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت ،

ثم قال القرطبي : وقيل : الحجاب المستور ، طبع الله على قلوبهم حتى
لا يفقهوه ؛ ولا يدركوا ما فيه من الحكمة . قاله قتادة . وقال الحسن : أى
أنهم لإعراضهم عن قراءة تلك ، وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب فى عدم
رؤيته لك ، حتى كان على قلوبهم أغطية . . .
ثم قال : والقول الأول أظهر فى الآية ، (١)

ويبدو لنا أن كلا القولين صحيح فى ذاته ، وأن كل واحد منهما يحكى
حالات معينة ، ويشهد لذلك ما نقله الجمل فى حاشيته على الجلالين عن شيخه
فقد قال - رحمه الله - . قوله : « حجابا مستورا ، أى : ساترا لك عنهم فلا يرونك
وهذا بالنسبة لبعضهم ، كان يحجب بصره عن رؤية النبى - صلى الله عليه وسلم
إذا أراد بمكره وهو يقرأ القرآن ؛ وبعضهم كان يحجب قلبه عن إدراك معانى
القرآن . . . وبعضهم كان ينفر عند قراءة القرآن .. (٢)

وقوله - تعالى - : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا
ولإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولغو على أدبارهم نفورا ، يؤكد أن
المشركين كانوا طوائف متعددة بالنسبة لموقفهم من القرآن الكريم ، ومن
النبى - صلى الله عليه وسلم -

أى : وجعلنا على قلوب هؤلاء الذين يؤمنون بالآخرة دأكنة أن يفقهوه .
أى : أغطيه تسترها وتمنعها من فقه القرآن الكريم ، وفهمه فهما سليما .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٦٩

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٦٨ - بتصرف وتلخيص -

وجعلنا - أيضا - : د في آذانهم وقرأ ، أى : صمما وثقلا عظاما يمنهم من سماعه سماعا يفهمهم .

وقوله - سبحانه - : ولذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولما على أدبارهم نفورا ، بيان لرديلة أخرى من ردائلهم المتعددة .

أى : ولذا ذكرت أيها الرسول الكريم - ربك في القرآن وحده . دون أن تذكر معه آلهتهم المزعومة انفضوا من حولك ورجعوا على أعقابهم نافرين شاردين ، كأنهم حرم مستنفرة . فرت من قسورة .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد صورتا قبائح المشركين المتنوعة أبلغ تصوير ، لتزيد في فضيحتهم وجهلهم ، ولتجول المؤمنين يزدادون إيماننا على إيمانهم .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال علمه . وأنه - تعالى - سيجازى هؤلاء الكافرين بما يستحقون من عقوبات ، فقال - عز وجل - نحن أعلم بما يستمعون به . إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ، إذ يقول الظالمون إن تنبعون إلا رجلا مسحورا .

والإباء في قوله - سبحانه - د بما يستمعون ، متعلقة بأعلم . ومفعول يستمعون ، محذوف ، تفديره ، القرآن .

قال الألوصى : قوله : د نحن أعلم بما يستمعون به ، أى : متلبسين به من اللغو والاستخفاف ، والاستهزاء بك وبالقرآن . يروى أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يقوم عن يمينه رجلا من بنى عبد الدار ، وعن يساره رجلان منهم ، فيصفقون ويصفرون ويحلمطون عليه بالأشعار - إذا قرأ القرآن - .

ويجوز أن تكون الإباء للسببية أو بمعنى اللام . أى : نحن أعلم بما يستمعون بسببه أو لأجله من الهزء ، وهم متعلقة يستمعون ... وأفضل التفضيل في العلم والجهل يتعدى بالإباء ، وفي سوى ذلك يتعدى باللام ، فيقال : هو أكسى

للفقراء ، والمراد من كوفه - سبحانه - أعلم بذلك : الوعيد لهم ... (١) .

وإذ في قوله : إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ، ظرف لأعلم .

ولفظ « نجوى » مصدر بمعنى التجاوى والمسارة في الحديث . وقد جعلوا عين النجوى على سبيل المبالغة ، كما في قولهم : قوم عدل .

ويجوز أن يكون جمع نجى ، كقتلى جمع قتيل ، أى : وإذا هم متناجون في أمرك .

والمعنى : نحن - أيها الرسول الكريم - على علم تام بأحوال المشركين عند استماعهم للقرآن الكريم . حين تملوه عليهم ، وبالطريقة التي يستمعون إليك . وعلى علم تام بأحوالهم حين يستمعون إليك فرادى ، وحين يستمعون إليك ثم يتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ، والتواصى بمحاصيتك .

فإنجزة الكريمة وعيد شديد للمشركين على استماعهم المصحوب بالاستهزاء والسخرية من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن القرآن ، وتسلية له - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم ، وبيان لشمول علم الله - تعالى - لكل أحوالهم الظاهرة والخفية .

وقوله - تعالى - : إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ، بدل من قوله - تعالى - : وإذ هم نجوى ، .

والمسحور . هو الذى سحر فاختلط عقله ، وزالت عنه الهيئة السوية .
أى : ونحن أعلم بهؤلاء الأشرقياء - أيضا - عندما يقول بعضهم لبعض : لا تتبعوا محمدا - صلى الله عليه وسلم - فيما يدعو إليه ، فإنكم إن اتبعتموه تمكونون قد اتبعتم رجلا مسحورا ، أصابة السحر فأخرجه عن وعيه وعقله .

وقال - سبحانه - « إذ يقول الظالمون ، بالإظهار دون الإضمار ، لتسجيل
الظلم عليهم فيما تفوهوا به ، وأنهم سيستحقون عقوبة الظالم .

وقوله - تعالى - « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون
سبيلا ، تسلية عظيمة - للرسول - صلى الله عليه وسلم ، وثبتت له والمؤمنين
على الطريق الحق الذي هداهم الله - تعالى - إليه .

أى : انظر ونأمل - أيها الرسول الكريم - كيف أن هؤلاء المشركين ،
قد بلغ بهم الجحود والفجور ، أنهم مثلوا لك الأمثال ، فوصفوك قارة بآنك
مسحور ، وقارة بآنك شاعر .

وهم في وصفهم هذا ، قد ضلوا عن الحق ضلالا بعيدا ، وصاروا كالخيران
الذى التبت عليه الطرق ، فأمسى لا يعرف السبيل الذى يسلكه .

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآيات ،
ما يدل على أن المشركين كانوا يستمعون إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -
عند قراءته للقرآن ، فقال :

قال محمد بن إسحاق في السيرة : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ،
أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن
شريق ... خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
وهو يصلى بالليل في بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع إليه ، وكل لا يعلم
بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . حتى إذا
تفرقوا . حتى إذا جمعهم الطريق ، قتلوا وموا ، وقال بعضهم لبعض :
لا تعودوا ، فلورآكم بعض سفهاءكم لأوقعتم في نفسه شيئا ، ثم انصرفوا ،

حتى إذا كانت الليلة التالية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا
يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . حتى إذا جمعهم الطريق ، فقال
بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، أخذ كل رجل منهم مجلسه . فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان ابن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد - صلى الله عليه وسلم - ؟ فقال أبو سفيان : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها . ولا ما يراد بها .

فقال الأخنس : وأنا والذي حملت به . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل . فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال : ماذا سمعت ؟ ! تنازعت وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحلوا فحملنا ، وأعطوا وأعطينا ، حتى إذا انجائنا على الركب ، وكنا كفرس رهان قالوا : منا بنى يأتيه الوحي من السماء ، فنتى ندرك هذه ؟ والله لا تؤمن به أبدا ولا نصدقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه (١) .

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم الباطلة ، في شأن البعث والحساب يوم القيامة ورد عليها بما يزهق باطلهم ، فقال - تعالى - :

« وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاتًا ، أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ، قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ

رءوسهم ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريباً (٥١) يوم
يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً (٥٢) .

قال الإمام الرازي : اعلم أنه - تعلم لما تكلم أولاً في الإلهيات ، ثم أتبعه
بذكر شهادتهم في النبوات ، ذكر في هذه الآية شهادت القوم في إنكار المعاد
والبعث والقيامة ... ، (١) .

والرفات : ما تكسر وبلى من كل شيء كالفتات . يقال : رفت فلان الشيء
يرفته - بكسر الفاء وضمها - ، إذا كسره وجعله يشبه التراب .
والاستفهام في قوله - تعالى - : «أئذا كنا...» وفي قوله : «أئنا لمبعوثون...»
للاستبعاد والإنكار .

أى : وقال الكافرون المنكرون لوحدانية الله - تعالى - ، ولنبوة النبي -
صلى الله عليه وسلم - ، وللبعث والحساب ، قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم -
على سبيل الإنكار والاستبعاد ، أئذا كنا يا محمد ، عظاماً بالية ، ورفاتاً يشبه
التراب في تفتته ودقته ، أئنا لمعادون إلى الحياة مرة أخرى ، بحيث تعود إلينا
أرواحنا ، وتدب الحياة فينا ثانية ، ونبعث على هيئة خلق جديد ، غير الذي
كنا عليه في الدنيا ؟

وقولهم هذا ، يدل على جهلهم المطبق ، بقدرة الله - تعالى - التي لا يعجزها
شيء ، وكرر - سبحانه - الاستفهام في الآية الكريمة ، الإشعار بإيغالهم في
الجهود والإنكار .

والعامل في ، إذا ، مخدوف ، والتقدير : أنبعث أو نحشر إذا كنا عظاماً
ورفاتاً ، وقد دل على هذا المخدوف قوله - تعالى - : «مبعوثون» .

وقوله - سبحانه - : «قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٢٠ ص ٢٢٤ .

صدوركم ، أمر من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بالرد عليهم فيها استبعده واذكروه من إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل الرد على استبعادهم ، والتحقيق من شأنهم ، والتعجيز لهم : « كونوا » - إن استطعتم - حجارة ، كالتي تعبدونها من دون الله ، « أو حديد » كالذي تستعملونه في شئون حياتكم ، « أو ، كونوا خلقا ، أى : مخلوقا سوى الحجارة والحديد ، مما يكبر ، أى : يعظم ويستبعد في صدوركم ، المظلمة قبوله للحياة ، قل لهم : كونوا أى شيء من ذلك أو غيره إن استطعتم - ، فإن الله - تعالى - لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى ، لكي يذاسبكم على أعمالكم ، ويجازيكم عليها بما تستحقون من عقاب .

فال مقصود من الجملة الكريمة ، بيان أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شيء . . .

قال الجمل : أجابهم الله - تعالى - بما معناه : تحولوا بعد الموت إلى صفة نزعهم أنها أشد نفاة للحياة ، وأبعد عن قبولها ، كصفة الحجرية والحديدية ونحوهما . فليس المراد الأمر ، بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجز ثم الله - تعالى - عن الإعادة ، (١) .

وقوله - تعالى - : « فسيقولون من يعيدنا ، أى : فسيقولون لك - أيها الرسول الكريم - من يعيدنا إلى الحياة مرة أخرى بعد أن نكون حجارة أو حديدا أو غيرهما ؟

وقوله - سبحانه - : « قل الذى فطركم أول مرة ، رد على جهالاتهم وإنكارهم للبعث والحساب .

أى : قل لهم : الله - تعالى - الذى فطركم وخلقكم ، أول مرة ، على غير

مثال سابق ، قادر على أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى . كما قال - تعالى - :
« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى
السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » (١) .

ثم بين - سبحانه - ما يكون منهم من استهزاء وسوء أدب عندما يسمعون
من الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذه الإجابات السديدة ، فقال : « فسيفضون
إليك رؤوسهم ويقولون متى هو ، » .

أى : فسيحجر كون إيلك رؤوسهم عندما يسمعون ردك عليهم ، ويقولون
على سبيل الاستهزاء والسخرية والتكذيب ، متى هو ذلك اليوم الذى سنعود
فيه إلى الحياة بعد أن نصير عظاما ورقا .

فالجملة الكريمة تصور تصويرا بليغا ما جبلوا عليه من تكذيب بيوم القيامة
ومن استهزاء بمن يذكرهم بأحوال ذلك اليوم العصيب . ومن استبعاد حصوله
كما قال - تعالى - : « حكاية عنهم فى آية أخرى » . ويقولون متى هذا الوعد إن
كنتم صادقين ، .

وقوله - تعالى - : « قل عسى أن يكون قريبا ، تذييل قصد به التهديد
والوعيد لهم .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التأنيب والوعيد : عسى
هذا اليوم الذى تستبعدون حصوله ، يكون قريبا جدا وقوعه .

ولا شك فى أنه قريب ، لأن عسى فى كلام الله - تعالى - لما هو محقق
الوقوع ، وكل ما هو محقق الوقوع فهو قريب ، ولأن الرسول
- صلى الله عليه وسلم - قال : بعثت أنا والساعة كهاتين - وأشار بالسبابة
والوسطى - .

ثم بين - سبحانه - أحوالهم عندما يدعون فى هذا اليوم الهائل الشديد
فقال : « يوم يدعونكم فتستجيبون بحمده » .

(١) سورة الروم الآية ٢٧ .

والظرف « يوم » منصوب بفعل مضمر أى : اذكروا يوم يدعوكم... ، ويجوز أن يكون منصوبا على البدلية من « قريبا » .

والداعى لهم هو « لإسرافيل » - عليه السلام - عندما يأذن الله - تعالى - له بالنفخ فى الصور ، كما قال - تعالى - : ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ،^(١) .
وكما قال - سبحانه - : فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شىء نذكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ،^(٢) .

وقوله « بحمده » ، حال من ضمير المخاطبين وهم الكفار ، والباء للابته .

أى : اذكروا - أيها المكذبون - يوم يدعوكم الداعى إلى البعث والنشور فتلبون نداه بسرعة وانقياد ، حال كونهم حامدين الله - تعالى - على كمال قدرته ، وناسين ما كنتم تزعمون فى الدنيا من أنه لا بعث ولا حساب ...

قال صاحب الكشف : وقوله « بحمده » ، حال منهم . أى : حامدين ، وهى مبالغة فى انقيادهم للبعث ، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويتمنع ، ستركبه وأنت حامد شاكر ، يعنى : أنك تحمل عليه وتقسر قسرا ، حتى أنك تلين لين المسموح - أى الذليل - الراغب فيه ، الحامد عليه .

وعن سعيد بن جبير : ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : سبحانه اللهم وبحمدك ،^(٣) .

وقوله « فتستجيبون بمعنى تجيبون ، إلا أن الاستجابة تقتضى طلب الموافقة ، فهى أوكد من الإجابة ، وأسرع فى التلبية .

(١) سورة الزمر . الآية ٦٨

(٢) سورة القمر . الآيات ٦ ، ٧ ، ٨

(٣) تفسير الكشف ج ٢ ص ٦٧٢

وجملة ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ، حالية ، أى : والحال أنكم تظنون عند بعضكم أنكم ما لبثتم في الدنيا أو في قيوركم إلا زمنا قليلا .

قال قتاده : إن الدنيا تحقرت في أعينهم وقلّت ، حين رأوا يوم القيامة ، لهول ما يرون فقالوا هذه المقالة .

وشبه هذه الآية قوله - تعالى - : قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين (١) .

وقوله - تعالى - : ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون (٢) . وقوله - تعالى - : كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها (٣) .

ثم ترك القرآن الكريم أولئك الذين كفروا بالبعث والنشور في طغيانهم يعمهون ، ووجه خطابه إلى المؤمنين ، أمرا لإياهم بأن يقولوا الكلمة الطيبة ، ومبيننا لهم ولغيرهم ، أن مصائرهم بيد الله - تعالى - وحده ، فقال - تعالى - :

« وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ، إِنَّ يَشَأْ يَرْجَحْكُمْ ، وَإِنْ يَشَأْ يَمْدِّبْكُمْ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) » .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » الآية

(١) سورة المؤمنون الآية ١١٣ ، ١١٢

(٢) سورة يس الآيات ٥١ ، ٥٢

(٣) سورة النازعات الآية ٤٦

نزلت في عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلاً من العرب شتمه ، وسبه عمر وهم بقتله ، فكدت تثير فتنة ، فأنزل الله فيه : « وقل أعبادي يقولوا التي هي أحسن » .
وقيل : نزلت لما قال المسلمون : إئذ لنا يا رسول الله في قتال المشركين ، فقد طال إيدؤهم لنا . فقال : « لم أؤمر بعد بالقتال » (١) .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - أعبادي المؤمنين ، أن يقولوا عند محاورتهم لغيرهم ، الكلمة التي هي أحسن ، والعبارة التي هي أرق والطف .
وذلك لأن الكلمة الطيبة ، تزيد في المودة التي بين المؤمنين ، وتسكسرحدة العداوة التي بينهم وبين أعدائهم .

قال - تعالى - : ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، أدفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (١) .

قال الألوسي : ومقول فعل الأمر محذوف ، أي : قل لهم قولوا التي هي أحسن يقولوا ذلك . فجزم يقولوا لأنه جواب الأمر . وإلى هذا ذهب الأخفش .
وقال الزجاج : إن قوله « يقولوا » هو المقول ، وجزمه بلام الأمر محذوفة ، أي : قل لهم ليقولوا ... (١) .

وقوله - سبحانه - : « إن الشيطان ينزغ بينهم » تعليل للأمر السابق .

أي : إن الشيطان يتربص بكم ، ويتلص السقطات التي تقع من أفواهكم ، والعيثات التي تنطق بها ألسنتكم ، لكي يسمع الشر بينكم ، ويبذر بذور السوء والبغضاء في صفوفكم ، ويهيج أعداءكم عليكم .

وينزغ بمعنى يفسد . يقال : نزغ - كنزعه - ينزغه ، إذا طعن فيه وأغتابه .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٧٦

(٢) سورة فصلت الآية ٣٤

(٣) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ٩٤

وقوله : « إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ، تعليل الحرص الشيطان على الإفساد بينهم .

أى إن الشيطان حريص على الإفساد بين الناس ، لأنه ظاهر العداوة لهم منذ القدم ولقد حذرنا الله - سبحانه - من الشيطان وكيدته فى كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليسكوفوا من أصحاب السعير ، (١) » .

وقوله - تعالى - : « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ، (٢) » .

قال الإمام ابن كثير ماملخصه : يأمر الله - تبارك وتعالى - عبده ورسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يأمر عباد الله المؤمنين ، أن يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الحسن ، والكلمة الطيبة ، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفعال ، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، فإنه عدو لآدم وذريته ... وعداوته ظاهرة بينه ، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان ينزغ فى يده . أى : فربما أصابه بها .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لا تشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى أحدكم ، لعل الشيطان أن ينزغ فى يده ، فيقع فى حفرة من النار ، (٣) .

ثم بين - سبحانه - أن مصير جميع الخلائق إليه ، وأنه محيط بأحوالهم فقال . ربكم أعلم بكم ، إن يشأ يرحمكم ، وإن يشأ يعذبكم

(١) سورة فاطر . الآية ٦

(٢) سورة الأعراف . الآية ٢٧

أى : ربكم - أيها الناس - أعلم بكم من أنفسكم ، وهو - سبحانه -
 إن يشأ بفضل يرحمكم ، أن يوفقكم لطاعته وتقواه ، وإن يشأ بعدله يذبكم ،
 بسبب معاصيكم وفسوقكم عن أمره ، لا يسأل - عز وجل - عما يفعل ،
 . ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

وقوله - تعالى - : « وما أرسلناك عليهم وكيلا ، بيان لوظيفة الرسول
 - صلى الله عليه وسلم -

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلى الناس ، لتكون
 حفيظا ورقيا ، ومو كولا إليك أمرهم في إيجابهم وإكراههم على الدخول
 في الإسلام ، وإنما أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه
 وسراجا منيرا .

ثم إنقل - سبحانه - من بيان كمال علمه بأحوال الناس ، إلى بيان كمال
 علمه بجميع من في السموات والأرض ؛ فقال - تعالى - : « وربك أعلم
 بمن في السموات والأرض » .

أى : وربك - أيها الرسول الكريم - أعلم بأحوال من في السموات
 والأرض من إنس وجن وملاك ، وغير ذلك ، ولا يخفى عليه شيء من خواهرم
 أو بواطنهم ، ولا يعزب من علمه - تعالى - شيء من طاعتهم أو معصيتهم ،
 ولا يعلم أحد سواه من هو أهل منهم للتشرف بحمل رسالته ، وتبليغ وحيه
 كما قال - تعالى - : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

وقوله - سبحانه - . « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينادود
 زبور » ، بيان لمظاهر من مظاهر علمه المطلق ، وفضله العميم : وعظاته الواسع
 والذبور : هو الكتاب الذي أنزله الله - تعالى - على داود - عليه السلام
 أى : ولقد فضلنا - على علم وحكمة منا - بعض النبيين على بعض ، بأن
 جعلنا منهم من كلم الله ، ومنهم من اتخذناه خليلا لنا ، ومنهم من آتيناه
 البينات وأيدناه بروح القدس ، ومنهم من آتيناه الزبور وهو داود - عليه السلام -

قال الإمام ابن كثير : وقوله - تعالى - : « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ، وقوله - تعالى - : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، لا ينافي ما ثبت من الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا تفضلوا بين الأنبياء ، فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشبه والعصبية ، لا بمقتضى الدليل ، فإذا دل الدليل على شيء وجب إتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل عن بقية الأنبياء ، وأن أولى العزم منهم أفضلهم ، وهم الخمسة المذكورون نصا في قوله - تعالى - : « ولقد أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، »

ولا خلاف في أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أفضلهم . . . (١) وإنما خص كتاب داود بالذكر ، لأن اليهود زعموا أنه لاني بعد موسى ، ولا كتاب بعد التوراة ، فكذبهم الله - تعالى - في ذلك ، ولأن في هذا الإيتاء إشارة إلى أن تفضيل داود لم يكن بسبب ما أعطاه الله من ملك ، بل بسبب ما أعطاه من كتاب فيه إشارة إلى تفضيل الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمه ، قال - تعالى - : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ، » (٢)

والمراد بالعباد الصالحين : محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمه . قال صاحب الكشف : فإن قلت : هلا عرف الزبور ، كما عرف في قوله : « ولقد كتبنا في الزبور ، » ؟

قلت : يجوز أن يكون الزبور وزبور ، كالعباس وعباس ، والفضل وفضل ، ويجوز أن يريد : « آتينا داود بعض الزبور » وهي المكتب ، وأن يريد ما ذكر فيه - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الزبور ، فسمى ذلك زبوراً ، لأنه بعضها كما سمي بعض القرآن قرآناً ، (٣)

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٦

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٥

(٣) تفسير الكشف ج ١ ص ١٠٠

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يتحدى المشركين، بأن يبين لهم : أن آلهتهم المزعومة لا تملك دفع الضر عنهم ، أو جلب الخير لهم ، بل إن هذه الآلهة لتخاف عذاب الله ، وترجو رحمته ، فقال - سبحانه - :

« قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) » .

أورد المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها :
قال ابن كثير : قال العوفي عن ابن عباس في قوله : « قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ »

قال : كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا .
وروى البخاري وغيره عن ابن مسعود في قوله : « أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ، قال : كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن ، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء - أي الإنس - بدينهم . . . فنزلت هذه الآية » (١) .

وقال القرطبي : لما ابتليت قريش بالقحط ، وشكوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، أنزل الله هذه الآية : « قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ . . . » (٢) .

والمراد بالزعم هنا : الظن الكاذب الذي لا أساس له من الحقيقة والواقع .
قال الألوسي ماملخصه : والزعم قريب من الظن ، ويقال إنه القول

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٦

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٧٩

المشكوك فيه ، ويستعمل بمعنى الكذب ، حتى قال ابن عباس : كل ما ورد في القرآن زعم فهو كذب .

وقد يطلق على القول الخفق ، والصدق الذي لا شك فيه . . . فقد ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : زعم جبريل كذا

وهو مما يتعدى إلى مفعولين ، وقد حذفنا هنا ، أى : زعمتموهم آلهة . . والظاهر أن المراد من الموصول - الذين - كل من عبد من دون الله من العقلاء ، (١)

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى في العبادة . قل لهم على سبيل الإرشاد والتحذير : هذه الآلهة التي تعبدونها ، اطلبوا منها أن تدفع عنكم ما تنزل بكم من ضر كمرض أو فقر أو قحط ، أو أن تحواه منكم إلى غيركم . . .

فإذا لم تستطع ذلك - وهي بكل تأكيد لا تستطيع وإن استطيع - فأنركوا عبادتها ، وأخلصوا العبادة والطاعة لمن هو على كل شيء قدير ، وهو الله - عز وجل - .

وأكتفى -- سبحانه -- بذكر كشف الضر ، لأنه هو الذي تتطلع إليه النفوس عند نزول المصائب ، أكثر من تطلعها إلى جلب النفع ، إذ عند نزول الضر ، لا تشغل الألسنة والقلوب إلا برجاء كشفه .

ثم بين - سبحانه - أن كل معبود - سوى الله - عز وجل - يفتقر إلى عونهِ - سبحانه - ، وإلى رجاء الثواب منه ، وإلى دفع العذاب عنه ، فقال - تعالى - : أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه . . . ، واسم الإشارة « أولئك » يعود على المعبودين من دون الله ، وهو مبتدأ ، وخبره .

قوله : « يبتغون وما عطف عليه من قوله : « ويرجون رحمته » ويخافون عذابه » .

والضمير في « يدعون » يعود إلى المشركين ، وفي يبتغون يعود إلى المعبودين و « أيهم » بدل من واو الفاعل في يبتغون ، و « أقرب » خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره : هو أي : يبتغيها الذي هو أقرب ، والجملة صلة أي .

والوسيلة : ما يتقرب به الإنسان إلى خالقه من الأعمال الصالحة .

والمعنى : أولئك المعبودون الذين يزعم المشركون أنهم آلهة . ويسمونهم أربابا ، وينادونهم لكشف الضر عنهم ، هؤلاء المعبودون « يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب »

أي : يتقربون إلى خالقهم وما لك أسرهم بصالح الأعمال ، ويبتغي أكثرهم صلاحا وطاعة لله - تعالى - الرضا منه - عز وجل -

وإذا كان هذا شأن أكثرهم قربا فكيف يكون حال من هو أقل منه ؟ لاشك أنه يكون أشد طلبا لرضا الله - تعالى - وعفوه ، وأشد حرصا على طاعته

وقوله - تعالى - « ويرجون رحمته » ويخافون عذابه ، زيادة بيان لشدة حرص هؤلاء المعبودين على طاعة الله - تعالى -

أي : وهم فوق ذلك يرجون رحمة الله - تعالى - وفضله ، بأن يحشرهم مع الأبرار ، ويخشون عذابه ونقمته ؛ ويتضرعون إليه أن يجنبهم عذاب النار ، وبالرجاء والخشية يحثي الصالحون الأخيار ، إذ الرجاء يدفع المؤمن إلى الإكثار من العمل الصالح ، والخشية تمنعه من الوقوع في المعاصي .

وقوله - تعالى - : « إن عذاب ربك كان محذورا » تذييل قصد به التعليل لما قبله وهو خوف العذاب .

أى : إن عذاب ربك كان جديرا وقينا بأن يحذر ، ويحترق من كل عاقل .
وقدم - سبحانه - الرجاء على الخوف ، لأن متعلقه أسبق ، ولأنه
يجانب الله - تعالى - أظهر ، ففي الحديث القدسي : « إن رحمتي سبقت غضبي » .
هذا ، وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « قل ادعوا الذين زعمتم من دون
الله ، لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وما لهم فيهما من
شرك ، وما له منهم من ظهير » (١) .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد قررنا بأسلوب منطقي بليغ ، أن الله
- تعالى - هو الخالق لكل شيء ، وأنه وحده هو المتصرف في شؤون عباده ،
وأن كل مخلوق سواه - سبحانه - محتاج إلى عونه وعفوه ورضاه ، وأن الذين
زعمهم المشركون آلهة كهيسى وعزير والملائكة ... ما هم إلا من عباد الله
الذين يبتغون إليه الوسيلة ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سنته التي لا تتخلف ، وبين جانباً من
مظاهر فضله على هذه الأمة ونبيها - صلى الله عليه وسلم . فقال - تعالى - :

« وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، أَوْ مُعَذِّبُوهَا
عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ
نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا نُوحًا النُّوحَ الْمُبَشِّرَةَ
فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ
أَحَاطَ بِالنَّاسِ ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ
الْمَلْمُؤَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) » .

والمقصود بالقرية في قوله - تعالى - : « وإن من قرية إلا نحن مهلكوها »

قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً : قرى الكفار والظالمين ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين ، فيكون المعنى :

وما من قرية من قرى الظالمين ، إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة بالموت أو الخراب ، أو معذبوها عذاباً شديداً ، يستأصل شأفتها ، ويقطع دابرها ، كما فعلنا مع قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم .

ومن المفسرين الذين ساروا على ذلك ، الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : هذا إخبار من الله - عز وجل - ، بأنه قد حتم وقضى ، بما كتب ، عنده في اللوح المحفوظ ، أنه مامن قرية إلا سيهلكها ، بأن يبيد أهلها جميعهم ، أو يعذبهم عذاباً شديداً ، إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم ، كما قال - تعالى - عن الأمم الماضية : وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذهمليم شديد ، (١) .

ويرى آخرون ، أن المقصود بالقرية هنا : القرى كلها سواء أكانت للمؤمنين أم للكافرين .

ومن المفسرين الذين ذهبوا إلى ذلك الألوسي - رحمه الله - فقد قال : قوله - تعالى - : « وإن من قرية ، الظاهر العموم ، لأن ، وإن ، نافية ، ومن ، زائدة لاستغراق الجنس . أى : وما من قرية من القرى ، إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة ، بإماتة أهلها حتف أنوفهم أو معذبوها عذاباً شديداً ، بالقتل وأنواع البلاء ... وروى عن مقاتل أنه قال : الهلاك للصالحة والعداب للظالمة ... » (٢) .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن هناك آيات كثيرة تؤيده ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » ، (٣) . وقوله - سبحانه - : « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٧ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ١٠٠ .

(٣) سورة القصص الآية ٥٩ .

وأهلها غافلون،^(١) . وقوله - عز وجل - : وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون،^(٢) ، ولأن الله - تعالى - قيد الإهلاك بكونه قبل يوم القيامة ، وكونه كذلك يقتضى أنه للقرى الظالمة . إذ الإهلاك يوم القيامة يشمل جميع القرى ، سواء أكان أهلها مؤمنين أم كافرين ، بسبب انقضاء عمر الدنيا .

وقوله - سبحانه - : كان ذلك في الكتاب مسطورا ، تأكيد لقضاء الله النافذ ، وحكمه الثابت .

أى : كان ذلك ، الإهلاك والتعذيب ، في الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ . مسطورا ، أى : مكتوبا وثابتا .

قال القرطبي : مسطورا ، أى : مكتوبا . والسطر : الخط والكتابة ، وهو فى الأصل مصدر . والسطر - بالتجريك - مثله ، وهو جمع أسطار ، مثل سبب . وجمع السطر - بسكون الطاء - أسطر وسطور مثل أفلس وفلوس . والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ ،^(٣) .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على الأمة الإسلامية ، ورحمته بها ، فقال - تعالى - : وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ... ، وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية آثارا منها ما أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : سأل أهل مكة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا . فقيل له : إن شئت أن تستأنى بهم ، وإن شئت أن يأثمهم الذى سألوا . فإن كفروا ، هلكوا كما هلك من كان قبلهم من الأمم .

(١) سورة الأنعام الآية ١٣١ .

(٢) سورة هود الآية ١١٧ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٨٠ .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : دلائل استأني بهم ، ، وأنزل الله قوله :
« وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » (١)

قال الألوسي : والمنع لغة : كف الغير وقصره عن فعل يريد أن يفعله ،
ولاستحالة ذلك في حقه - تعالى - لاستلزامه العجز المحال المخافى للربوبية قالوا :
لأنه مستعار هذا للصرف والترك » (٢)

وقوله : « أن نرسل » في محل نصب لأنه مفعول ثان لمنعنا ، أو في محل جر ،
على حذف الجار ، أي : من أن نرسل . وقوله : « إلا أن كذب بها » في محل
رفع لأنه فاعل منعنا ، والتقدير : وما منعنا من إرسال الآيات إلا تكذيب
الأولين .

والمراد بالآيات : ما اقترحه المشركون على النبي - صلى الله عليه وسلم -
من قلب الصفا ذهباً ، ومن إزاحة الجبال عن مكة ليزرعوا مكانها

والمعنى : وما كان سبب تركنا لإجابة المقترحات التي طلبها المشركون منك
- أيها الرسول الكريم - إلا علمنا بأنهم سيكذبون بها إذا جاءتهم ، كما كذب
بأمثالها أشباههم الأولون ، وفي هذه الحالة فإنهم سيستحقون مثلهم عذاب
الاستئصال كما جرت بذلك سنتنا .

وقد اقتضت حكمتنا ورحمتنا - بامتك أيها الرسول الكريم - ، ألا نعذبهم
عذاب الاستئصال والمحو ، بل نؤخر عذاب الضالين منهم إلى يوم القيامة .

قالوا : ومن الحكم في هذا التأخير : الإظهار لمزيد شرف النبي - صلى الله
عليه وسلم - ، كما قال - تعالى - : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ، والرعاية
لشأن من سيولد من بعضهم من المؤمنين ، ولمن سيؤمن من هؤلاء المقترحين ،
إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا هو - سبحانه - .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٧ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ١٠٣ .

قال صاحب الكشف : استعير المنع اترك لإرسال الآيات من أجل صارف الحكمة والمراد الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا ، ومن إحياء الموتى وغير ذلك .

وعادة الله في الأمم ، أن من اقترح منهم آية فأجيب لها ، ثم لم يؤمن ، أن يعاجل بعذاب الاستئصال . فالمعنى : وما صرفنا عن إرسال ما يقترحوه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم ، كعاد ونمود ، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أو لشك ، وقالوا : هذا سحر مبين كما يقولون في غيرها . واستوجبوا العذاب المستأصل . وقد عزمنا أن تؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة ، (١) .

ثم ساق - سبحانه - مثالا للسابقين الذين أجيبوا إلى ما اقترحوه ، ولكنهم لم يؤمنوا ، فأخذهم عذاب الاستئصال ، فقال - تعالى : : وآتيناهم نمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، .

ونمود : هم قوم صالح - عليه السلام - ، وخصمهم بالذکر ، لأنهم معروفون لأهل مكة أكثر من غيرهم ، لمرورهم على ديارهم عند أسفارهم إلى بلاد الشام . والناقة المراد بها : ناقة صالح - عليه السلام - التي طلبها قومه منه ، فأخرجها الله - تعالى - لهم لتكون معجزة له ، ولسكنهم لم يؤمنوا به ، بل عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، فأهلكهم الله - تعالى - بالصيحة التي جعلتهم في دارهم جائنين .

وقوله : مبصرة ، أى : معجزة واضحة ، يراها الناس بأعينهم بدون خفاء أو لبس ، قال الجمل : مبصرة ، بكسر الصاد - باتفاق السبعة ، والإسناد مجازى . أى : يبصرونها خارجة من الصخرة . وقرئ : شاذا بفتح الصاد . ثم قال : وفي السمين : مبصرة حال ، وهو إسناد مجازى ، إذ المراد الإبصار

المعنون ، وهو الاهتداء بها ، والتوصل بها ، إلى تصديق نبيهم ، وعلى هذا تظهر السببية ، فإن وجودها سبب في هذا المعنى ... ، (١)

وقال الآلوسی : وقوله : مبصرة ، على صيغة اسم الفاعل حال من الناقة ، والمراد : ذات إبصار ، أو ذات بصيرة يبصرها الغير ويتبصر بها ، فالصيغة للنسب ... ، (٢)

والمعنى : لقد تركنا لإجابة المطالب التي اقترحها قومك - يا محمد - ، رحمة بهم ، لأننا لو أعطيناهم إياها ثم استمروا في تكذيبهم لك لأهلكناهم كما أهلكنا السابقين . فقد أجبنا قوم صالح - عليه السلام - إلى ما طلبوه من نبيهم ، بأن أخرجنا لهم الناقة ، وجعلناها معجزة واضحة نيرة في الدلالة على صدقه ، فقابلوها بالتكذيب والجحود ، وظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقربها .

قال - تعالى - : فاعقروا الناقة - أي ذبحوها - ، وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبجوا في دارهم جائمين ، (٣) .

وقال - سبحانه - : كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فاعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها . ،

وقوله - سبحانه - : وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ، تذييل قصد به الزجر عن تكذيب ما يأتي به الأنبياء من هدايات ومعجزات تدل على صدقهم .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ح ٢ ص ٦٣٢ .

(٢) تفسير الآلوسی ح ١٥ ص ١٠٤ .

(٣) سورة الأعراف الآيتان ٧٧ ، ٧٧ .

والباء في قوله : بالآيات ، الملائسة ، ومفعول : نرسل ، محذوف ،
ود تخويفا ، مفعول لأجله .

والمعنى : وما نرسل رسالنا ملتبسين بالآيات والمعجزات الدالة على صدقهم ،
إلا تخويفا لأقوامهم من سوء عاقبة تكذيبهم لها ، فإنهم إن كذبوها يصيبهم
من العذاب ما يصيبهم .

قال القرطبي قوله : وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ، فيه خمسة أقوال :
الأول : العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل ، من دلائل الإنذار
تخويفا للكافرين . الثاني : أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصي . الثالث :
أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكمل ثم إلى مشيب ، لتعتبر
بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك . الرابع : القرآن . الخامس : الموت
الذريع ، (١) .

ثم ذكر - سبحانه - ما يزيد النبي - صلى الله عليه وسلم - ثباتا على ثباته ،
ويقيننا على يقينه ، وما يدل على شمول علمه - تعالى - ونفاذ قدرته ، وبلغ
حكيمته فقال : وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس . . .

أي : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن قلنا لك على لسان وحيانا :
إن ربك - عز وجل - قد أحاط بالناس علما وقدره ، فهم في قبضته ، وتحت
نصرته ، وقد عصمك منهم ، فاءض في طريقك ، وبلغ رسالة ربك ، دون
أن تخشى من كفار مكة أو من غيرهم ، عدوانا على حياتك ، فقد عصمك
- سبحانه - منهم .

وفي هذه الجملة ما فيها من التسليم للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، ومن التبشير له
بلاصحابه ، بأن العاقبة ستكون لهم ، ومن الحض لهم على المضى في طريقهم
بأن يخشوا أحدا إلا الله .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٨١ .

والمراد بالرؤيا في قوله - تعالى - : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » : ما رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - وعابته بعينيه من عجائب ، ليلة الإسراء والمعراج .

أى : وما جعلنا ما رأيته وعابته ليلة إسراءنا بك من غرائب ، إلا فتنة للناس . يتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، وسليم القلب من مريضه .

وأطلق - سبحانه - على ما أراه لنبيه ليلة الإسراء لفظ الرؤيا مع أنه كان يقظة ، لأن هذا اللفظ يطلق حقيقة على رؤيا المنام ، وعلى رؤية اليقظة ليلا فإنه قد يقال لرؤية أمين رؤيا ، كما في قول الشاعر يصف صائدا : و كبر للرؤيا وهش فواده ... أى : وسر لرؤيته للصيد الذي سيصيده . أو أطلق عليه لفظ الرؤيا على سبيل التشبيه بالرؤيا المنامية ، نظرا لما رآه في تلك الليلة من عجائب سماوية وأرضية ، أو أطلق عليه ذلك بسبب أن ما رآه قد كان ليلا . وقد كان في سرعته كأنه رؤيا منامية .

وكان ما رآه - صلى الله عليه وسلم - في تلك الليلة فتنة للناس ، لأنه لما قص عليهم ما رآه ، أرتد بعضهم عن الإسلام ، وتردد البعض الآخر في قوله ، وضائق عقولهم عن تصديقه ، زاعمة أنه لا يمكن أن يذهب - صلى الله عليه وسلم - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم يعرج إلى السموات العلا ثم يعود إلى مكة . كل ذلك في ليلة واحدة .

وبعضهم يرى أن المراد بالرؤيا هنا : ما رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - من أنه سيدخل مكة هو وأصحابه

وبعضهم يرى أن المراد بها هنا : ما أراه الله - تعالى - لنبيه في منامه ، من مصارع المشركين قبل غزوة بدر ؛ فقد قال - صلى الله عليه وسلم - قبل بدء المعركة : والله لسكأني أنظر إلى مصارع القوم . ثم أوما إلى الأرض وقال : هذا مصرع فلان . وهذا مصرع فلان .

والذى ترجحه هو الرأى الاول ، لانه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ،
ولانه على الرايين الثانى والثالث يترجح أن الآية مدنية ، لأن غزوة بدر وفتح
مكة كانا بعد الهجرة ، والتحقيق أن هذه الآية مكية .

قال القرطبي ماملخصه : قوله - تعالى - : « وما جعلنا الرؤيا التى أرىناك
إلا فتنة للناس .. » لما بين أن إنزال آيات القوآن تتضمن التخويف ، ضم
إليه ذكر آية الإسراء ، وهى المذكورة فى صدر السورة . وفى البخارى
والترمذى عن ابن عباس فى قوله - تعالى - : « وما جعلنا الرؤيا التى أرىناك إلا
فتنة للناس » قال : هى رؤيا عين أرىها النبى - صلى الله عليه وسلم - ليلة أسرى به
إلى بدء المقدس

وكانت السبعة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبى - صلى الله عليه وسلم -
بأنه أسرى به .

وقيل : كانت رؤيا نوم . وهذه الآية تقضى بفساده ، وذلك أن رؤيا
المنام لا فتنة فيها ، وما كان أحد ليهكرها .

وعن ابن عباس قال : الرؤيا التى فى هذه الآية ، هى رؤيا رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - أنه يدخل مكة فى سنة الحديبية - فرده المشركون عن
دخولها فى تلك السنة - ، فافتن بعض المسلمين لذلك ، فنزلت هذه الآية
وفى هذا التأويل ضعف . لأن السورة مكية ، وتلك الرؤيا كانت
بالمدينة (١)

وقوله - سبحانه - : « والشجرة الملعونة فى القرآن » ، معطوف على الرؤيا .
أى : « وما جعلنا الرؤيا التى أرىناك والشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة
للناس » .

والمراد بالشجرة الملعونة هنا : شجرة الزقوم ، المذكورة فى قوله - تعالى - :

• أذلك خير نولا أم شجرة الزقوم • إنا جعلناها فتنة للظالمين • إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم • طلعها كأنه رموس الشياطين ، (١) .

والمراد بطلعها : لعل الآكلين منها وهم المشركون ، أو هي ملعونة لأنها تخرج في أصل الجحيم • أو هي ملعونة لأن طلعها مؤذ وضار ، والعرب تقول لكل طعام ضار : إنه ملعون .

قال الآلوسی : وروی فی جعلها فتنة لهم : أنه لما نزل فی شأنها فی سورة الصافات وغيرها مانزل ، قال أبو جهل وغيره : هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يقول يذبت فيها الشجر ، وما نعرف الزقوم إلا بالتمر والزبد ، ثم أمر جارية له فأحضرت عمرا وزبدا ، وقال لأصحابه : تزقوا .

وافقتن بهذه الآية أيضا بعض الضعفاء ، ولقد ضلوا في ذلك ضلالا بعيدا ... ، (٢)

وقوله - تعالى - : ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا ، تدبيل قصديه بيان ما جبل عليه هؤلاء المشركون من جحود ، وقسوة قلب ...

أى : ونخوف هؤلاء المشركين بعذاب الدنيا ، وبعذاب الآخرة . وبشجرة الزقوم التي طلعها كأنه رموس الشياطين ... فما يزيدهم هذا التخويف والتهديد إلا طغيانا متجاوزا في ضخامته وكبره كل حد ، وكل عقل سليم .

وعبر - سبحانه - بصيغة المضارع الدالة على الاستقبال . مع أن تخويفهم ولإزدياد طغيانهم قد وقعا ، للإشعار بالتجدد والاستمرار .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقّت من سنن الله - تعالى - في خلقه ، ومن فضله على هذه الأمة ، ومن تبشيره وإنذاره ، ووعدته ووعيده ، ما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، وما يصرف الطاغين عن طغيانهم لو كانوا يعقلون .

(١) سورة الصافات الآيات ٦١ - ٦٥ .

(٢) تفسير الآلوسی ١٥٧ ص ١٠٦ .

ثم ساق - سبحانه - جانباً من قصة آدم وإبليس ، از زيادة التسليمة للرسول - صلى الله عليه وسلم - والإشعار بأن الحسد والغرور ، كما منعاً لإبليس من السجود لآدم ، فقد منعاً مشر كى مكة من الإيمان بالنبى - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - :

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ، لَنْ أُوخِّرَ تَنْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَشَرَّ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) » .

وقوله - سبحانه - : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، ... » ، تذ كير لى آدم بما جرى بين أبيهم وبين إبليس ، ليعتبروا ويتعظوا ، ويستمروا على عبادتهم لإبليس وجنده .

أى : « واذكروا - يا بنى آدم - وقت أن قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، سجود تحية وتسكريم ، فسجدوا ، امتثالاً لأمر الله - تعالى - ، بدون تردد أو تلغم ، إلا إبليس ، فإنه أبى السجود لآدم - عليه السلام - . وقال ، بتكبر وعصيان لأمر ربه - عز وجل - : « أَسْجُدْ ، وأنا المخلوق من ناره لمن خلقت طيناً ، أى : أَسْجُدْ لمن خلقت من طين ، مع أنني أفضل منه .

والتعبير بقوله ، فسجدوا ، بفاء التثنية ، يفيد أن سجودهم - عليهم السلام - كان فى اعقاب أمر

وقوله - تعالى - : « قال أسجد ... » استئناف بياني ، فيكأنه قيل : فماذا كان موقف إبليس من هذا الأمر ؟ فكان الجواب أن إبليس فسق عن أمر ربه وقال ما قال .

والاستفهام في « أسجد » ، للإنكار والتعجب ، لأنه يرى - لعنه الله - أنه أفضل من آدم .

وقوله : « طينا » منصوب بنزع الخافض أي : من طين .

وفد جاء التصريح بإبلاء إبليس عن السجود لآدم ، بأساليب متنوعة ، وفي آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » . فـ « جدوا » إلا لإبليس أبي واستكبر وكان من الكافرين ، (١) .

وقوله - تعالى - : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » . إلا لإبليس أبي أن يكون مع الساجدين ، (٢) .

ثم فصل - سبحانه - ما قاله إبليس في اعتراضه على السجود لآدم فقال : « قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة ، لأحتسبن ذريته إلا قليلا » .

ورأى هنا عملية فتتعدى إلى مفعولين ، أولهما « هذا » ، والثاني محذوف لدلالة الصلة عليه ، والكاف حرف خطاب مؤكد للمعنى التاء قبله ، والاسم الموصول « الذي » بدل من « هذا » أو صفة له ، والمراد من التكريم في قوله « كرمت علي » : التفضيل .

والمعنى : قال إبليس في الرد على خالقه - عز وجل - : أخبرني عن هذا الإنسان المخلوق من الطين ، والذي فضلتني على ، لماذا فضلتني على وأمرتني بالسجود له مع أنني أفضل منه ، لأنه مخلوق من طين ، وأنا مخلوق من نار !!

(١) سورة البقرة الآية ٣٠ .

(٢) سورة الحجر الآية ٣٠ ، ٣١ .

وجملة لما ذا كرمته على ، واقعة موقع المفعول الثاني .

وه مقصود إبليس من هذا الاستفهام ، التهور من شأن آدم - عليه السلام -
والتقليل من منزلته . ولم يحبه - سبحانه - على سؤاله ، تحقير له . وإهمالا
لشخصه ، بسبب إعتراضه على أمر خالقه - عز وجل .

ثم أكد إبليس كلاله فقال : ولئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن
ذريته إلا قليلا . . . إذ أن اللام في قوله ولئن . . . موطئة للقسم ،
وجوابه لأحتنكن .

وأصل الاحتناك : الاستيلاء على الشيء ، أو الإستئصال له . يقال :
حنك فلان الدابة يحنكها - بكسر النون ورفعها - إذا وضع في حنكها - أى
في ذقنها - الرسن ليقودها به . ويقال : احتناك الجراد الأرض ، إذا أكل
نباتها وأتى عليه .

والمعنى : قال إبليس - متوعدا ومهددا - : لئن أخرتن - يا لمحنى - إلى
يوم القيامة ، لأستولين على ذرية آدم ، ولأقودنهم إلى ما أشاء من المعاصي
والشهوات ، إلا عددا قليلا منهم فإنى لا أستطيع ذلك بالنسبة لهم ، لقوة
إيمانهم ، وشدة إخلاصهم .

وهذا الذى ذكره - سبحانه - عن إبليس في هذه الآية من قوله : لأحتنكن
ذريته إلا قليلا ، شبيه به قوله - تعالى - : ثم لآتينهم من بين أيديهم ، ومن
خلفهم ، وعن أيمنهم ، وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ، (١) .
وقوله - تعالى - : قال فبعرنك لأغوينهم أجمعين . إلا على عبادك منهم
المخلصين ، (٢) .

قال بعض العلماء : وقول إبليس في هذه الآية : لأحتنكن ذريته . . .

(١) سورة الأعراف الآية ١٧

(٢) سورة ص الآية ٨٣

قاله ظاناً منه أنه سيقع . وقد تحقق له هذا الظن - في كثير من بنى آدم - كما قال - تعالى - : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين »^(١) .

وقوله - تعالى - : « قال إذهب فن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً » بيان لما توعد الله - سبحانه - به لإبليس وأتباعه .

والأمر في قوله « إذهب » للإهانة والتحقير « أى : « قال ، الله - تعالى - لإبليس « إذهب ، مطروداً ملعوناً ، وقد أخرناك إلى يوم القيامة ، فافعل ما بدالك مع بنى آدم ، فن أطاعك منهم ، فإن جهنم جزاؤك وجزاؤهم ، جزاء مكملًا متمماً لا نقص فيه .

وقال - سبحانه - : « فإن جهنم جزاؤكم » مع أنه قد تقدم غائب ومخاطب في قوله « فن تبعك منهم » ، تغليباً لجانب المخاطب - وهو إبليس - على جانب الغائب وهم أتباعه . لأنه هو السبب في إغواء هؤلاء الأتباع وقوله : « جزاء » مفعول مطلق ، منصوب بالمصدر قبله .

وقوله « موفوراً » اسم مفعول ، من قولهم وفرو الشيء فهو وفور وموفور أى : مكمل متمم . وهو صفة لقوله : « جزاء » .

وهذا الوعيد الذى توعد الله - تعالى - به لإبليس وأتباعه ، جاء ما يشبهه في آيات كثيرة ، منها قوله - سبحانه - : « قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وعن تبعك منهم أجمعين » .

ثم أضاف - سبحانه - إلى إهانته وتحقيره لإبليس وأوامر أخرى ، فقال - تعالى - : « واستفز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركتهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .

قال الجمل : أمر الله - تعالى - إبليس بأوامر خمسة ، القصد بها : التهديد والاستدراج ، لا التكليف ، لأنها كلها معاص ، والله لا يأمر بها ،^(٢) :

(١) سورة سبأ الآية ٢٠ (٢) حاشية الجمل على الجلائن ج ٢ ص ٦٣٤

وهذه الأوامر الخمسة هي : اذهب ، واستفزز . . . وأجلب . . . وشاركهم وعدم .

وقوله : واستفزز ، من الاستفزاز ، بمعنى الاستخفاف والإزعاج . يقال : استفزز فلان فلانا إذا استخف به ، وخدعه ، وأوقعه فيما أراد منه . ويقال : فلان استفززه الخوف ، إذا أزعجه .

وقوله : د وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، أصل الإجلاب : الصياح بصوت مسموع . يقال : أجلب فلان على فرسه وجلب عليه ، إذا صاح به ليستحثه على السرعة في المشى .

قال الألوسي : قوله د وأجلب عليهم ، أى : صح عليهم من الجلبة وهي الصياح . قاله الفراء وأبو عبيدة . وقال الزجاج : أجلب على العدو ، جمع عليه الخيل . وقال ابن السكيت : جلب عليه : أعان عليه . وقال ابن الأعرابي : أجلب على الرجل ، إذا توعده الأمر ، وجمع عليه الجمع .
والخيل : يطلق على الأفراس ولا واحد له من لفظه ، وعلى الفرسان مجازا ، وهو المراد هنا .

ومنه قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - في بعض غزواته لأصحابه : يا خيل الله اركبى . . والرجل - بكسر الجيم - بمعنى راجل - كحذر بمعنى حاذر - هو الذى يمشى رجلا ، أى غير راكب . . . (١) .

واللهي . قال الله - تعالى - لإبليس : اذهب أيها اللعين مذموما مدحورا ، فإن جهنم هي الجزاء المعد لك ولأتباعك من ذرية آدم ، وافعل ما شئت معهم من الاستفزاز والخداع والإزعاج وهو الحديث وأجلب عليهم ما تستطيع جلبه من مكائد ، وما تقدر عليه من وسائل ، كأن تناديهم بصوتك ووسوتك إلى المعاصي ، وكأن تحشد جنودك على اختلاف أنواعهم لحربهم وإغوائهم وصددهم عن الطريق المستقيم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته ، وإجلاله بحيلة ورجله ؟

قلت : هو كلام وارد مورد التمثيل . مثلث حاله في تسلطه على من يغويه ، بمغوار أوقع على قوم ، فصوت يهيم صوتا يستفزهم من أماكنتهم ، ويقلقهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم بحنقه ، من خيالة ورجالة حتى استأصلهم ، وقيل : بصوته ، أى : بدعائه إلى الشر ، وبحيلة ورجله : أى كل راكب وماس من أهل العيث . وقيل : يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال ، (١) .

وعلى أية حال ، فالجملة الكريمة تصوير بديع ، لعداوة إبليس لأدم وذريته ، وأنه معهم في معركة دائمة ، يستعمل فيها كل وسائل شروره ، لبشغلتهم عن طاعة ربهم ، وليصرفهم عن الصراط المستقيم ، ولكنه لن يستطيع أن يصل إلى شيء من أغراضه الفاسدة ، ماداموا معتصمين بدين ربهم - عز وجل - . وقوله - سبحانه - : « وشاركهم في الأموال والأولاد وعودهم ، معطوف على ما قبله .

أى : وشاركهم في الأموال ، بأن تخضعهم على جمعها من الطرق الحرام ، وعلى إنفاقها في غير الوجه الذى شرعها الله ، كأن يستعملوها فى الربا والرشوة وغير ذلك من المعاملات المحرمة .

وشاركهم فى الأولاد بأن نخضعهم على أن يذممهم وتنشئة تخالف تعاليم دينهم الخفيف ، بأن تيسر لهم الوقوع فى الزنا الذى يترتب عليه ضياع الأنساب ، وبأن تظاهرهم على أن يسموا أولادهم بأسماء يبغضها الله - عز وجل - ، إلى غير ذلك من وساوسك التى تعرى الآباء بأن يربوا أبناءهم تربية يالفون معها الشرور والآثام ، والفسوق والعصيان :

قال الإمام ابن جرير بعد أن ساق عددا من الأقوال فى ذلك : وأولى

الاقوال بالصواب أن يقال : كل ولود ولدته أنثى ، عصى الله فيه ، بتسميته بما يكرهه الله ، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله به أو فيه ، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه ، من ولد ذلك الولد له أو منه ، لأن الله لم يخصص بقوله : « وشاركهم في الأموال والأولاد » ، معنى الشركة فيه ، بمعنى دون معنى ، فكل ما عصى الله فيه أو به ، وأطيع الشيطان فيه ، أو به فهو مشاركة ... (١) .

وقد علق الإمام ابن كثير على كلام ابن جرير بقوله : وهذا الذي قاله ابن جرير - متجه ، فقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « يقول الله - عز وجل - إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » .

وفي الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لو أن أحداً إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً » (٢) .

وقوله : « وعدمهم » ، أى : وعدمهم بما شئت من المواعيد الباطلة الكاذبة ، كأن تعدم بأن الدنيا هي منتهى آمالهم . فعليهم أن يمتنعوا بها كيف شاؤا بدون تقيد بشرع أو دين أو خلق . وكان تعدم بأنه ليس بعد الموت حساب أو عقاب ، أو جنة أو نار ...

وقوله - سبحانه - « وما يعدم الشيطان إلا غرورا » ، تحذير من الله تعالى - لعباده من اتباع الشيطان : ومن السير وراء خطواته .

وأصل الغرور : تزوين الباطل بما يوهم بأنه حق ، يقال : غر فلان فلانا ، إذا أصاب غرته - أى غفلته - وقال منه ما يريد : وغر فلان فلانا فهو يغره

(١) تفسير ابن جرير ج ١٥ ص ٨٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٠ .

غرورا ، إذا خدعه ، وأصله من الغر ، وهو الأثر الظاهر من الشيء . ومنه غرة الفرس لأنها أبرز ما فيه . ولغظ ، غرورا ، صفة لموصوف محذوف .
والتقدير : وعدمهم - أيها الشيطان - بما شئت من الوعود الكاذبة ، وما يعد الشيطان بنى آدم إلا وعدا غرورا .

ويجوز أن يكون دفعه لا لأجله فيكون المعنى : وما يعدم الشيطان إلا من أحل الغرور والخدعة .

وفي الجملة الكريمة التفات من الخطاب إلى الغيبة ، إهمالا لشأن الشيطان ، وبيانا لحاله مع بنى آدم ، حتى يحترسوا منه ويحذروه .

ثم ختم - سبحانه - الآيات بغرس الظمأنينة في قلوب المؤمنين الصادقين ، فقال - تعالى - : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلًا ، .
أى : إن عبادى الصالحين الذين أخلصوا دينهم لى ، ليس لك - يا إبليس - تسلط واقتدار على إغوائهم وإضلالهم ، وصرفهم عن السبيل الحق إلى السبيل الباطل .

قال - تعالى - : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » (١) .

وقال - سبحانه - « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » إلا من أتبعك من الغاوين (٢) ، والإضافة فى قوله « إن عبادى . . . » للتشريف والتكريم حيث خصهم - سبحانه - بهذا اللون من الرعاية والحماية .

وقوله « وكفى بربك وكيلًا ، أى : وكفى بربك وكيلًا يتوكلون عليه ، ويفوضون إليه أمورهم ، ويعتصمون به لى يقيهم وساوس الشيطان ونزغاته قال الإمام ابن كثير : قوله « وكفى بربك وكيلًا ، أى : حافظا ومؤيدا ونصيرا .

(١) سورة النحل الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) سورة الحجر الآية ٤٢ .

رأى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :
« إن المؤمن لينضى شيطانه - أى ليقهره - كما ينضى أحدكم بعيره في
السفر » (١) .

وقال الجمل في حاشيته : وهذه الآية تدل على أن المعصوم من عصية الله ،
وأن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلال ، لأنه لو كان
الإقدام على الحق ، والإحجام عن الباطل : إنما يحصل الإنسان من نفسه ،
لوجب أن يقال : وكفى بالإنسان نفسه في الاحتراز عن الشيطان . فلما لم يقل
ذلك ، بل قال : وكفى بربك وكيلًا . علمنا أن الكل من الله . ولهذا قال
المحققون : لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعته إلا
بقوته » (٢) .

وبعد أن بين - سبحانه - لبني آدم ما يبيته إبليس من عداوة وبغضاء ، أتبع
ذلك ببيان جانب من نعمه - تعالى - عليهم في البر والبحر وفي السراء والضراء
فقال - عز وجل - :

« رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْجِي لَكُمُ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ
كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا
إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧)
أَفَأَمِنْتُمْ ، أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ، ثُمَّ لَا تَجِدُوا
لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ، فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
عَلِيْنَا بِهِ تَبِيْعًا (٦٩) » .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٠

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٥٥

وقوله - تعالى - : « ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله ... » بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده ، وفضله عليهم .
و « يزجي » من الإزجاء ، وهو السوق شبطا فشيئا . يقال أزجى فلان الإبل ، إذا ساقها برفق ، وأزجت الريح السحاب ، أى : ساقته سوقا رقيقا ، ومنه قوله - تعالى - : « ألم تر أن الله يزجى سحابا ... » .

و « الفلك » ما عظم من السفن . قال الجمل ماملخصه : ويستعمل لفظ الفلك للواحد والجمع ، ويذكر ويؤنث . قال - تعالى - : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون » فأفرد وذكر . وقال - سبحانه - : « والفلك التي تجري في البحر ، فأنت » ويحتمل الإفراد والجمع . قال - تعالى - : « حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ... فجمع ... » (١) .

و « البحر » يطلق على الماء الكثير عذبا كان أو ملحا . وأكثر ما يكون إطلاقا على الماء المالح .

أى : أذكروا - أيها الناس - لتعبدوا وتشكروا ربكم الذي من مظاهر نعمته عليكم ، أن يسوق لكم - بلطفه وقدرته - السفن التي تركبونها في البحر لكي تطلبوا من وراء ركوبها الرزق الذي يصلح معاشكم ، والذي هو لون من ألوان فضل الله عليكم .

وقوله : لتبتغوا من فضله ، تعليل لإزجاء الفلك ، وتصرف بوجوه النفع التي تفضل الله - تعالى - بها عليهم .

وقوله : « إنه كان بكم رحيم » ، تعليل ثان لهذا الإزجاء .

أى : يزجى لكم الفلك في البحر ، لتطلبوا من وراء ذلك ما ينفعكم ، ولأنه - سبحانه - كان أن لا وأبدا ، بكم دائم الرحمة والرأفة .

ثم أنتقل - سبحانه - من الحديث عن مظاهر نعمه عليهم ، في حال سوق السفن ودفعها بهم في البحر برفق وأناة، إلى بيان رعايته لهم في حال اضطرابها وقرضها للفرق ، بسبب هيجان البحر وارتفاع أمواجه ، فقال - تعالى - :
 « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه . . . » .

والمراد : اتصال أحد الشيثين بآخر على وجه الإحساس والاصابة والمراد به هنا : ما يعترضهم من خوف وفزع ، وهم يرون سفينتهم توشك على الفرق . والمراد بالضر هنا : اضطراب الفلك ، وارتفاع الأمواج ، واشتداد العواصف ، وتعريضهم للموت من كل مكان .

المعنى : وإذا أحاطت بكم الأمواج من كل جانب وأنتم على ظهور سفنكم وأوشكتكم على الغرق . . . ذهب وغاب عن خواطركم وأذهماكم ، كل معبود سوى الله - عز وجل - لكي ينقذكم مما أنتم فيه من بلاء ، بل إياه وحده - سبحانه - تدعون ليكشف عنكم ما نزل بكم من سوء .

فالجلة الكريمة تصوير مؤثر بديع لبيان أن الانسان عند الشدائد والمحن لا يتجه بدعائه وضراعه الا الى الله - تعالى - وحده .

قال القرطبي : « ضل ، معناه : تلف وفقد وهي عبارة تحقير لمن يدعى لها من دون الله . والمعنى في هذه الآية : أن الكفار إنما يمتقدون في أصنامهم أنها شافعة ، وأن لها فضلا ، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علما لا يقدر على مدافعة أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد ، فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الخيل ، (١)

وقال الإمام ابن كثير : يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا أمسهم ضر دعوه منييين إليه مخلصين له الدين ، ولهذا قال ، تعالى - : « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، أي : ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير

الله .. تعالى - كما إتفق لعكرمه بن أبي جبرل ، لما ذهب فارا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين فتح مكة ، فذهب هارباً ، فركب في البحر ليدخل الحبشة ، فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعو الله وحده .

فقال عكرمة في نفسه : والله إن كان لا ينفع في البحر غيره ، فإنه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك على عهد لئن أخر جتنى منه ، لأذهب فلأضعن يدي في يد محمد - صلى الله عليه وسلم - فلأجدنه رءوفاً رحيماً . فخرجوا من البحر ، فرجع إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأسلم وحسن إسلامه - رضى الله عنه ، (١) .

وقوله - تعالى - : د فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا ، بيان لطبيعة الإنسان إلا من عصم الله .

أى : فلما نجاكم الله - تعالى - بلطفه وإحسانه : من الفرق ، وأوصلكم سالمين إلى البر ، أعرضتم عن طاعته ، تركتم دعاءه والضرعة إليه ، وكان الإنسان الفاسق عن أمر ربه ، د كفورا ، أى : كثير الكفران والجحود لنعم ربه .. عز وجل ..

قال الألوسى ما ملخصه : وقوله : د وكان الإنسان كفورا ، كالتعليل للإعراض ، ويعلم منه حكم أولئك المخاطبين ، وفيه لطافة حيث أعرض - سبحانه - عن خطابهم بخصوصهم ، وذكر أن جنس الإنسان مجبول على الكفران ، فلما أعرضوا أعرض الله - تعالى - عنهم ، (٢)

وفى معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - ، فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ، (٣)

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٠

(٢) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ١١٦

(٣) سورة العنكبوت الآية ٢٢

وقوله - سبحانه - : « وإذا غشيهم موجة كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجدد بآياتنا إلا كل ختار كفور ، »^(١)
ثم بين - سبحانه - أن قدرته لا يعجزها شيء ، لا في البحر ولا في البر ولا في غيرهما فقال : « أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ، ثم لا تجدوا لكم وكيلا ، والهمزة في قوله « أفأمنتم » ، للاستفهام الإنكارى ، والفاء عطفة على محذوف ، والتقدير : أنجوتهم فأمنتم .

وقوله « يخسف » من الخسف وهو انهيار الأرض بالشيء ، وتغييبه في باطنها و « جانب البر » ، فاحية الأرض ، وسما - سبحانه - جانبا ، لأن البحر يمثل جانبا من الأرض ، والبر يمثل جانبا آخر .

والحاصب : الريح الشديدة ، التي ترمى بالحصباء ، وهي الحجارة الصغيرة . يقال . حصب فلان فلانا ، إذا رماه بالحصباء .

والمعنى : أنجوتهم من الغرق - أيها الناس - ففرحتهم وأمنتم ونسيتم أن الله - تعالى - إذا كان قد أنجاكم من الغرق ، فهو قادر على أن يخسف بكم جانب الأرض ، وقادر كذلك على أن يرسل عليكم ريحا شديدة ترميكم بالحصباء التي تهلككم ؛ ثم لا تجدوا لكم وكيلا تكلون إياه أموركم ، ونصيرا ينصركم ويحفظكم من عذاب الله - تعالى - .

إن كنتم قد أمنتم عذاب الله بعد نجاتكم من الغرق ، فأنتم جاهلون ، لأن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها أن تأخذكم أخذ عزيز مقتدر سواء أكنتم في البحر أو في البر أو قى غيرهما ، إذ جميع جوانب هذا الكون في قبضة الله - تعالى - وتحت سيطرته .

قال صاحب التفسير : فإن قلت فما معنى ذكر الجانب ؟ قلت : معناه . أن الجوانب والأجهات كلها في قدرته سواء . وله في كل جانب برا كان أو بحرا سبب مرصد من أسباب الهلكة ، ليس جانب البحر وحده مختصا بذلك ،

(١) سورة لقمان الآية ٣٢ .

بل إن كان الغرق في جانب البحر ، ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف ، لأنه تغيب تحت التراب ، كما أن الغرق تغيب تحت الماء فالبر والبحر عنده سمان ، يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر ، فعلى العاقل أن يستوى خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان ، (١) .

ثم ساق - سبحانه - مثالا آخر للدلالة على شمول قدرته ، فقال - تعالى - :
« أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ، فيرسل عليكم قاصفا من الريح ، فيغرقكم بما كفرتم ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ، » .

ودأم ، هنا يجوز أن تكون متصلة ؛ بمعنى : أى الأمرين حاصل . ويجوز أن تكون منقطعة بمعنى بل .

والقاصف ، من الريح : هو الريح العاتية الشديدة ، التى تقصف وتحطم كل مامرت به من أشجار وغيرها . يقال : قصف فلان الشيء ، إذا كسره .

والتبيح : فعيل بمعنى فاعل ، وهو المطالب غيره بحق سواء أ كان هذا الحق دينيا أو ثارا أو غيرهما ، مع مداومته على هذا الطلب .

والمعنى : بل أم أمنتم - أيها الناس - « أن يعيدكم ، الله - تعالى - ، فيه ، أى : فى البحر ، لسبب من الأسباب التى تحملكم على العودة لإياه أخرى » فيرسل عليكم ، - سبحانه - وأنتم فى البحر ، قاصفا من الريح ، العاتية الشديدة التى تحطم سفنكم ، فيغرقكم ، بسبب كفركم وجحودكم لنعمة ، « ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ، أى : إنا من السهل علينا أن نفعل معكم ذلك وأكثر منه ، ثم لا تجدوا لكم أحدا ينصركم علينا ، أو يطالبنا بحق لكم علينا ، فنحن لا نسأل عما نفعل ، وأنتم المسئولون .

فلاستفهام هنا - أيضا - للإنكار والتوبيخ .

وقال - سبحانه - : « أن يعبدكم فيه ، ولم يقل أن يعبدكم إليه ، للإشعار باستقرارهم فيه ، وأنه - تعالى - لا يعجزه أن يفعل ذلك .

والتهجير بقوله « قاصفا من الريح ، فيه من الترهيب والإيذار ما فيه لأن لفظ القسيف يدل بمناه اللغوى على التحطيم والتكسير .

وقال - سبحانه - : « بما كفرتم ، لبيان أن الله - تعالى - ما ظلمهم بإهلاكم ، وإنما هم الذين عرضوا أنفسهم لذلك بسبب كفرهم وإعراضهم عن طاعته - سبحانه - .

والضمير في « به » ، يعود إلى الإهلاك بالإغراق المفهوم من قوله « فيغرقكم بما كفرتم ، أي : لا تجدون تبعا يقيمنا بشاركم بسبب ذلك الإغراق الذي أوقعناه بكم . وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد ساقط ألوانا من نعم الله - تعالى - على الناس ، وحذرتهم من جحود هذه النعم ، حتى لا يتعرضوا لعذاب الله ، الذي قد ينزل بهم وهم في البحر أو في البر أو في غيرهما . ثم ذكر - سبحانه - تكريمه لبني آدم ، وتفضيله لهم على كثير من مخلوقاته ، وأحوالهم في الآخرة ، فقال - تعالى - :

« ولقد كرّمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً (٦٩) يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ، فمن أوتى كتابه بيمينه ، فأولئك يقراءون كتابهم ، ولا يظلمون فتيلاً (٧٠) ومن كان في هذه أعمى ، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً (٧١) .

قال الألوسي : قوله : « ولقد كرّمنا بني آدم ... » أي : حملناهم قاطبة برهم وفاجرهم ، ذوى كرم ، أي : شرف ومحاسن جمّة لا يحيط بها نطاق الحصر ... (١)

ومن مظاهر تكريم الله - تعالى - لبنى آدم ، أنه خاقهم في أحسن تقويم .
كما قال - تعالى - : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » ،

وأنه ميزهم بالعقل والنطق والاستعدادات المتعددة ، التي جعلها لهم أهلاً للحمْلِ
الأمانة ، كما قال - سبحانه - : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض
والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » . (١)

وأنه سخر الكثير من مخلوقاته لمنفعتهم ومصلحتهم ، قال - تعالى - : الله
الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات
رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار .
وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من
كل ما سألتوه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظالم كفار . (٢)

وأنه سجل هذا التكريم في القرآن الكريم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه ، وكفاهم بذلك شرفاً وغوراً .

وقوله - تعالى - : « وحملناهم في البر والبحر » ، بيان لنوع من أنواع هذا
التكريم . أي : « وحملناهم بقدرتنا ورعايتنا في البر على الدواب وغير ذلك من
وسائل الانتقال كالقطارات والسيارات وغيرها ، وحملناهم في البحر على السفن
وعبارات البحار التي تنقلهم من مكان إلى آخر » .

وقوله : « ورزقناهم من الطيبات » ، بيان لنوع آخر من أنواع التكريم .
أي : « ورزقناهم بفضلنا وإحساننا من طيبات المطاعم والمشارب والملابس ،
التي يستلذونها ، ولا يستغنون عنها في حياتهم » .

وقوله : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » ، بيان لنوع ثالث من
أنواع التكريم ، أي : « وبسبب هذا التكريم فضلناهم على كثير من مخلوقاتنا
التي لا تحصى ، تفضيلاً عظيماً » .

(١) سورة الأحزاب الآية ٧٢ . (٢) سورة إبراهيم الآية ٢٢-٢٤ .

وعلى هذا التفسير يكون التفضيل لونا من ألوان التكريم الذي منحه الله - تعالى - لبني آدم .

وبعضهم يرى أن هناك فرقا بين التكريم والتفضيل ، ومن هذا البعض الإمام الفخر الرازي ، فقد قال - رحمه الله - ماملخصه : لقد قال الله - تعالى - في أول الآية ، ولقد كرّمنا بني آدم ، وقال في آخرها « وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا » . ولا بد من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل وإلا لازم التكرار .

والأقرب أن يقال : إنه - تعالى - فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية ، مثل : العقل ، والنطق ، والصورة الحسنة ... ثم إنه - تعالى - عرضه بواسطة ذلك لاكتساب العقائد الحقة ، والأخلاق الفاضلة . فالأول : هو التكريم ، والثاني : هو التفضيل « (١) » .

وكان الفخر الرازي يرى أن التكريم يرجع إلى الصفات الخلقية التي إمتاز بها بنو آدم ، أما التفضيل فيرجع إلى ما اكتسبوه من عقائد سليمة ، وأخلاق قويمة .

هذا ، وقد أخذ صاحب الكشف من هذه الجملة وهي قوله - تعالى - : « وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا » أن الملائكة أفضل من البشر ، لأنهم - أي الملائكة - هم المقصودون بالقليل الذي لم يفضل عليه بنو آدم . قال - رحمه الله - : قوله : « وفضلناهم على كثير من خلقنا ... » هو ما سوى الملائكة . وحسب بني آدم تفضيلا ، أن ترفع عليهم الملائكة - وهم هم - ومنزلتهم عند الله منزلتهم ... « (٢) »

ويرى كثير من المفسرين أن المراد بالتفضيل هنا : تفضيل الجنس ، ولا يلزم منه تفضيل كل فرد على كل فرد .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ٢١١ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٥ ص ٢١١ .

قال الجمل ماملخصة : « وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا » المراد تفضيل جنس البشر على أجناس غيره كالملائكة ، ولا يلزم من تفضيل جنس البشر على جنس الملك تفضيل الأفراد ، إذ الملائكة في جملتهم أفضل من البشر غير الأنبياء ، وصلاحه البشر - كالصديق - أفضل من عوام الملائكة ، أى : غير الرؤساء منهم ، على المعتمد من طريقة التفضيل ، (١) .

والذى تطمئن إليه النفس فى هذه المسألة - والله أعلم - ، : أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أفضل من الملائكة جميعا ، لأن الله - تعالى - قد أمر الملائكة بالسجود لآدم الذى جعله خليفة له فى أرضه ، دون غيره من الملائكة ...

وأن الرسل من الملائكة - كجبريل وإسرافيل وعزرائيل وميكائيل - أفضل من عموم البشر - سوى الأنبياء - ، لأن هؤلاء الرسل قد اصطفاهم الله - تعالى - واختارهم لوظائف معينة ، قال - تعالى - والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس .

وأن صلاحه البشر - كالعشرة المبشرين بالجنة - أفضل من عامة الملائكة ، لأن الملائكة ليست فيهم شهوة تدفعهم إلى مخالفة ما أمر الله به ... أما بنو آدم فقد ركب الله - تعالى - فيهم شهوة داعية إلى ارتكاب المعصية ، ومقاومة هذه الشهوات جهاد يؤدي إلى رفع الدرجات ...

ومن العلماء الذين بسطوا القول فى هذه المسألة الإمام الفخر الرازى ، فليرجع إليه من شاء . (٢) .

وقوله - سبحانه - : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » ، شروع فى بيان تفاوت أحوال بنى آدم فى الآخرة ، بعد بيان حالهم فى الدنيا .

(١) حاشية الجمل على الجلالين > ٢ ص ٦٣٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازى > ٥ ص ٢٢١ .

ولفظ : يوم ، منصوب بفعل محذوف ، أى : واذا كر يوم ندعو كل أناس بإمامهم . والمراد بإمامهم هنا : كتاب أعمالهم .

وقد اختار هذا القول الإمام ابن كثير ورجحه فقال : يخبر الله - تعالى - عن يوم القيامة ، أنه يحاسب كل أمة بإمامهم ، وقد اختلفوا في ذلك . فقال مجاهد وقتادة أى : بينهم ، وهذا كقوله - تعالى - : « ولا لكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط » ...

وقال ابن زيد : بإمامهم أى بكتابهم الذى أنزل على نبيهم من الشريعة ، وأختره ابن جرير ...

وروى العوفي عن ابن عباس فى قوله : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم ، أى : بكتاب أعمالهم ...

وهذا القول هو الأرجح لقوله - تعالى - : « وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين ، وقال - تعالى - : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، .. ويحتمل أن المراد بإمامهم : أى كل قوم بمن يأتون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء - عليهم السلام - ، وأهل الكفر ائتموا بأنتمهم فى الكفر ... وفى الصحيحين : « لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ... الحديث ، ...

ثم قال - رحمه الله - ولكن المراد هنا بالإمام ، هو كتاب الأعمال ، (١) . والمعنى : واذا كر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - يوم ندعو كل أناس من بنى آدم الذين كرمناهم وفضلناهم على كثير من خلقنا ، بكتاب أعمالهم الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الذين أخلصوا دينهم لله فقال - تعالى - : « فن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ، ولا يظلمون شيئا ، ...

أى : فمن أوتى من بنى آدم يوم القيامة ، كتابه بيمينه ، بأن ثقلت موازين حسناته على سيئاته ، فأولئك السعداء يقرءون كتابهم بسرور وابتهاج ، ولا ينقصون من أجورهم قدر فتيل ، وهو الخيط المستطيل فى شق النواة ، وبه يضرب المثل فى الشئ القليل و د من ، فى قوله د فمن أوتى ، يجوز أن تكون شرطية ، وأن تكون موصولة ، ودخلت الفاء فى الخبر وهو د فأولئك ، لشبهه بالشرط .

وجاء التعبير فى قوله د أوتى كتابه بيمينه ، بالإفراد د حملا على لفظ من ، وجاء التعبير بالجمع فى د أولئك ، حملا على معناها .

وفى قوله - سبحانه - د بيمينه ، تشرىف وتبشير لصاحب هذا الكتاب الملى - بالإيمان والعمل الصالح وقال - سبحانه - : د فأولئك يقرءون كتابهم ، بالإظهار ، ولم يقل : يقرءونه ، لمزيد العناية بهؤلاء السعداء ، وليبان أن هذا الكتاب تبتهج النفوس بتكرار أسمائه .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من أوتى كتابه بشماله فقال : د ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

والمراد بالعمى هنا : عمى القلب لاعمى العين ، بدليل قوله - تعالى - د فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

والمعنى : ومن كان من بنى آدم فى هذه الدنيا أعمى القلب ، مطموس البصيرة ، بسبب إيثارة الكفر على الإيمان ، فهو فى الدار الآخرة أشد عمى ، وأضل سبيلا منه فى الدنيا ، لأنه فى الدنيا كان فى إمكانه أن يتدارك ما فاتته أما فى الآخرة فلا تدارك لما فاتته .

وعبر - سبحانه - عن الذى أوتى كتابه بشماله بقوله - د ومن كان فى هذه أعمى ، للإرشاد إلى العلة التى بسببها أصابه الشقاء فى الآخرة ، وهى - فقدانه النظر السليم ، وإيثارة الغى على الرشد ، والباطل على الحق ..

وعما يدل على أن المراد به من أوتي كتابه بشماله، مقابلته لمن أوتي كتابه بيمينه، كما جاء في آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرءوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حساييه . فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية . وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : ياليتني لم أوت كتابيه، (١) . وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقّت لبني آدم من التكريم والتفضيل ما من شأنه أن يحملهم على إخلاص العبادة لخالقهم ، وعلى أمتثال أمره ، واجتناب نهيه ، لكي يسكنوا من السعداء في دنياهم وآخرتهم .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من المسالك الخبيثة ، التي سلكها المشركون مع النبي - صلى الله عليه وسلم - لرحزحته عن التمسك بدعوته ، وكيف أن الله - تعالى - قد عصمه من كيدهم ، فقال - سبحانه - :

« وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَنا إِلَيْكَ ، لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ بِأَسْئَلَةٍ (٧٢) وَلَوْ لَا أَنْ تُبَيِّنَ لَكَ ، لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَبًّا قَلِيلاً (٧٣) إِذَا لَأَذُنُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (٧٤) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجَنَّكَ مِنْهَا ، وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً (٧٥) سُنَّةً مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٦) » .

ذكر المفسرون في سبب نزول الآية الأولى من هذه الآيات روايات منها ما جاء عن سعيد بن جبير أنه قال : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يستسلم الحجر الأسود في طوافه ، فمنعته قريش وقالوا : لا ندعك تستلم حتى تلم بآلهتنا ... فأبى الله - تعالى - ذلك ، وأنزل عليه هذه الآية .

وروى عطاء عن ابن عباس قال : نزلت في وفد تقيف ، أتوا النبي - صلى الله عليه وسلم - فسألوه شططا : وقالوا : متعنا بآهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدي لها . وحرم وادينا كما حرمت مكة ، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم ... فنزلت هذه الآية ^(١) .

و د إن ، في قوله د وإن كادوا ليفتنوك ... ، مخففة من الثقيلة ، وأسمها ضمير الشأن .

و د كاد ، من أفعال المقاربة . و د يفتنوك ، من الفتنة ، وأصلها الاختبار والامتحان . يقال : فتن الصائغ الذهب ، أى : اختبره ليعرف جوده من خبيثه ، ويقال : فتن الرجل عن رأيه ، إذا أزلته عما كان عليه ، وهو المراد هنا .

والمعنى : وإن شأن هؤلاء المشركين ، أنهم قاربوا في ظنهم الباطل ، وزعمهم الكاذب ، أن يخدعوك ويبتنوك - أيها الرسول الكريم - عما أوحينا إليك من هذا القرآن ، لكي تفتري علينا غيره ، وتقول علينا أقوالا ما أنزل الله بها من سلطان .

وقوله : د وإذا لا تخذوك خليلا ، بيان لحالهم مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - لو أنه أطاعهم فيما اقترحوه عليه .

قال الجمل ماملخصه : د وإذا حرف جواب وجزاء يقدر بـ الشرطية . وقوله : د لا تخذوك ، جواب قسم محذوف تقديره : والله لا تخذرك . وهو مستقبل في المعنى ، لأن إذا تقتضى الاستقبال ، إذ معناها المجازاة ، وهذا كقوله - تعالى - : ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون . أى : ايمظلوا ، ^(٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٩٩

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٣٩

والمعنى : لو أنك - أيها الرسول الكريم - وافقتهم على مقترحاتهم الفاسدة لأحبوا ذلك منك ، واصاروا أصدقاء لك في مستقبل أيامك .

وقد بين ، قرآن الكريم في كثير من آياته ، أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أعرض عن مقترحاتهم ورفضها ، ولم يلتفت إليها ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « إذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاء ما أتت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي ، إن أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم - قل لو شاء الله ما تلوثه عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ، (١) » .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ،

أي : ولولا تثبيتنا إياك - أيها الرسول الكريم - على ما أنت عليه من الحق والصدق ، بأن عصمتك من كيدهم لقاربت أن تميل إليهم ميلا قليلا ، بسبب شدة إحتياهم وخداهم .

قال بعض العلماء : وهذه الآية أوضحت غاية الإيضاح ، براءة نبينا - صلى الله عليه وسلم - من مقاربة الركون إلى الكفار ، فضلا عن نفس الركون لأن د لولا ، حرف إمتناع لوجود ، فمقاربة الركون منعها د لولا ، الإمتناعية لوجود التثبيت من الله - تعالى - ، لا كرم خلقه - صلى الله عليه وسلم - فأنضح يقينا إلتفاء مقاربة الركون - أي الميل - ، فضلا عن الركون نفسه .

وهذه الآية تبين ما قبلها ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - لم يقارب الركون إليهم مطلقا . لأن قوله : « لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » : أي قاربت تركن إليهم ، هو عين الممنوع بلولا الإمتناعية ، (٢)

(١) سورة يونس ، الآيتان ١٥ ، ١٨

(٢) تفسير أضواء البيان ٣ - ٣٢١ للششيخ محمد الأمين الشنقيطى .

وما يشهد بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يقارب الركون من مقترحات الكافرين ، قول ابن عباس - رضى الله عنهما : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معصوما ، ولكن هذا تعريف للأمة ، لتلايركن أحد منهم إلى المشركين فى شىء من أحكام الله - تعالى - وشرائعه .

وعن قتادة أنه قال : لما نزلت هذه الآية ، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - اللهم لا تكنى إلى نفسى طرفة عين ،

ثم بين - سبحانه - ما كان سيمرتب على الركون اليهم - على سبيل الفرض من عقاب فقال - تعالى - : « إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا ،

والضعف : عبارة عن أن يضم إلى شىء مثله .

أى : لو قاربت - أيها الرسول الكريم - أن تركن اليهم أقل ركون ، أو تميل اليهم أدنى ميل ، لأنزلنا بك عذابا مضاعفا فى الدنيا وعذابا مضاعفا فى الآخرة ، ثم لا تجد لك بعد ذلك نصيرا ينصرك علينا ، أو ظهيرا يدفع عنك عذابنا ، أو يحميك منه ، كما قال - تعالى - : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ،

والسبب فى تضعيف العذاب ، أن الخطأ يعظم بمقدار عظم صاحبه ، ويصغر بمقدار صغره ، ورحم الله القائل :

وكبائر الرجل الصغير مغاثر وصغائر الرجل الكبير كبائر

والرسول - صلى الله عليه وسلم - هو أعظم الخلق على الإطلاق ، لذا توعده الله - تعالى - بمضاعفة العذاب ، لو ركن إلى المشركين أدنى ركون .

وقريب من هذا المعنى قوله - تعالى - « يا أيها النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا ، (١) »

قال صاحب الكشف : وفي ذكر الكيدودة وتقليلها ، مع إتيانها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين ، دليل على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وإرتفاع منزلته ، وفيه دليل على أن أدنى مدهاته للغواية ، مضادة لله وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله . فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآيات أن يجشو عندها ويتدبرها فهي جديرة بالتدبر وبأن يستشعر الناظر فيها الحشمة وإزدياد التصلب في دين الله ، (١)

ثم ذكر - سبحانه - مكيدة أخرى من مكائد المشركين ، وهي محاربتهم لإخراج النبي - صلى الله عليه وسلم - من بلده ، لكي يعكفوا على عبادة آلهتهم الباطلة دون أن ينهزموا عن ذلك أحد ، فقال - تعالى - : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ... »

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما يخصه : قيل نزلت في اليهود إذ أشاروا على النبي - صلى الله عليه وسلم - بسكنى الشام ، بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة كان بعد ذلك ...

ثم قال : وقيل نزلت في كفار قريش ، حين هموا بإخراج الرسول - صلى الله عليه وسلم - من بين أظهرهم ، فتوعدهم الله - تعالى - بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبشوا بعده بمكة إلا زمنا يسيرا ... (٢) . وما ذهب إليه ابن كثير - رحمه الله - من أن الآية مكية ، هو الذي تسكن إليه النفس ، فيكون المعنى : « وإن كادوا ، أى : كفار مكة ، يستفزونك من الأرض ، أى : ليزعجونك ويحملونك على الخروج من الأرض التي على ترابها ولدت وفيها نشأت ، وهي أرض مكة . »

(١) تفسير الكشف ٢ ص ٦٨٥

(٢) تفسير ابن كثير ٣ ص ٥٢

وقوله : « وإذا لا يلبثون خلافاً لك إلا قليلاً » ، بيان لسوء مصيرهم إذا ما أخرجوه - صلى الله عليه وسلم - من مكة .

أى : ولو أنهم استنفزوك وأجبروك على الخروج لإجباراً ، لما لبثوا « خلافاً » ، أى : بعد خروجك إلا زمناً قليلاً ، ثم يصيبهم ما يصيبهم من الهلاك والنقم .

ومع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد خرج من مكة مهاجراً بارئاً به إلا أنه - سبحانه - قد مكن نبيه - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه من مشركى مكة فى غزوة بدر ، فقتلوا منهم سبعين ، وأسروا نحو ذلك ، وكانت المدة بين هجرته - صلى الله عليه وسلم - وبين غزوة بدر ثقل عن سنتين . وهكذا حقق الله - تعالى - وعده لنبيه - صلى الله عليه وسلم - وأنزل وعيده بأعدائه .

ثم بين - سبحانه - أن نصرة رسوله سنة من سنته التى لا تتخلف فقال : « سنة من قد أرسنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنةنا تحويلاً . »

ولفظ « سنة » منصوب على أنه مصدر مؤكد . أى : سن الله ما قصه عليك سنة ، وهذه السنة هى أننا لا نترك بدون عقاب أمة أخرجت رسولها من أرضه ، وقد فعلنا ذلك مع الأقوام السابقين الذين أخرجوا أنبياءهم من ديارهم ولا تجد - أيها الرسول الكريم - لسنةنا وطريقتنا تحويلاً أو تبديلاً ، ولولا أننا قد منعنا عن قومك عذاب الاستئصال لوجدك فيهم ، لأهلكناهم بسبب إيذائهم لك ، وتجاوزهم عليك .

قال - تعالى - : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ... »

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكمت لنا جانباً من المسالك الخبيثة التى تتبعها المشركون مع النبى - صلى الله عليه وسلم - كما حكمت لنا ألواناً من فضل الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - حيث عصمه عن أى ركون إليهم ووعده بالنصر عليهم .

ثم أرشد الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يعينه على التغلب على كيد المشركين ، وإلى ما يزيده رفعة في الدرجة ، وبشره بأن ما معه من حق ، سيزهق ما مع أعدائه من باطل فتعالى - تعالى -

« أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ، عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ مُطَافَاً نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) » .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : وفي نظم هذه الآيات مع ما قبلها وجوه الأول : أنه - تعالى - لما قرر الإلهيات والمعاد والنبوات ، أردفها بذكر الأمر بالطاعات . وأشرف الطاعات . بعد الإيمان بالصلاة ؛ فلمذا أمر بها .

الثاني : أنه - تعالى - لما قال : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا . » أمره - تعالى - بالإقبال على عبادته لكي ينصره عليهم .. كما قال - تعالى - : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ... » (١)

وقوله .. سبحانه .. « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ، أَيْ : دَاوِمِ .. أَيُّهَا الرَّسُولُ الْبَكْرِيمُ .. عَلَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ ، مِنْ وَقْتِ زَوَالِهَا وَمِيلِهَا عَنْ وَسْطِ السَّمَاءِ لُجَّةِ الْغَرْبِ . يُقَالُ : دَلَّكَ الشَّمْسُ تَدْلُكَ .. بِضَمِّ اللَّامِ .. إِذَا مَالَتْ وَانْتَقَلَتْ مِنْ وَسْطِ السَّمَاءِ إِلَى مَا يَلِيهِ . وَمَادَّةٌ دَالِكٌ ، تَدُلُّ عَلَى التَّحَوُّلِ وَالِانْتِقَالِ

ولذلك سمي الدلاك بهذا الاسم . لأن يده لا تكاد تستقر على مكان معين من الجسم .

وتفسير دلوك الشمس هنا بمعنى ميلها وزوالها عن كبد السماء ، مروي عن جمع من الصحابة والتابعين منهم عمر بن الخطاب ، وابنه عبد الله ، وأنس ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد .

وقيل المراد بدلوك الشمس هنا غروبها . وقد روى ذلك عن علي ، وابن مسعود ، وابن زيد .

قال بعض العلماء : والقول الأول عليه الجمهور ، وقالوا - الصلاة التي أمر بها ابتداء من هذا الوقت - هي صلاة الظهر ، وقد أبدوا هذا القول بوجوده منها : ما روى عن جابر أنه قال ، طعم عندي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فقال - صلى الله عليه وسلم - هذا حين دلتك الشمس .

ومن الوجوه - أيضا - النقل عن أهل اللغة ، فقد قالوا : إن الدلوك في كلام العرب : الزوال ، ولذا قيل للشمس إذا زالت . ذالمكة (١) .

وقوله : إلى غسق الليل ، أي : إلى شدة ظلمته .

قال القرطبي : يقال : غسق الليل غسوقا . وأصل الكلمة من السيلان . يقال : غسقت العين إذ سالت تغسق . وغسق الجرح عسقانا ، أي : سال منه ماء أصفر ... وغسق الليل : اجتماع الليل وظلمته .

وقال : أبو عبيدة : الغسق : سواد الليل ... ، (٢) .

والمراد من الصلاة التي تقام من بعد دلوك الشمس إلى غسق الليل : صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٣ ص ٦٠ للرحوم الشيخ محمد علي السابيس .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٠٤ .

وقوله - تعالى - : « وقرآن الفجر ، ممطوف على مفعول ، قم ، وهو الصلاة .

والمراد بقرآن الفجر : صلاة الفجر . وسميت قرآنا ، لأن القراءة ركن من أركانها ، من تسمية الشيء باسم جزئه ، كتسمية الصلاة ركوعا وسجودا وقتوتنا .

وقوله « إن قرآن الفجر كان مشهودا ، تنويه بشأن صلاة الفجر ، وإعلام من شأنها .

أى : داوم - أيها الرسول الكريم - على أداء صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وداوم على صلاة الفجر - أيضا - فإن صلاتها مشهودة من الملائكة ومن الصالحين من عباد الله - عز وجل - .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد ثبتت السنة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قوا ترا من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفا عن سلف ، وقرنا بعد قرن .

روى البخارى عن أبي هريرة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد ، خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر ، .

يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : « وقرآن الفجر إذا قرآن الفجر كان مشهودا » (١) .

وقال الإمام الفخر الرازى : وفى الآية احتمال ، وهو أن يكون المراد من قوله - تعالى - : « إن قرآن الفجر كان مشهودا ، الترغيب فى أن تؤدى هذه الصلاة بالجماعة . ويكون المعنى : إن صلاة الفجر مشهودة بالجماعة الكثيرة ، (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٤ ،

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ٤٢٩ .

وقوله - سبحانه - « ومن الليل » فتجد به نافذة لك ، إرشاد إلى عبادة أخرى من العبادات تطهر القلب ، وتسمو بالنفس إلى مراقب الفلاح ، وتعينها على التغلب على الهموم والآلام .

والجاء والمجرور « ومن الليل » متعلق بقوله « فتجد » أي . تهجد بالقرآن بعض الليل . أو متعلق بمحذوف تقديره : وقم قومة من الليل فتجد « ومن » للتبعية .

قال الجمل : والمعروف في كلام العرب أن الهجود عبارة عن النوم بالليل . يقال : هجد فلان ، إذا نام بالليل .

ثم لما رأينا في عرف الشرع أنه يقال لمن اتبعه بالليل من نومه وقام إلى الصلاة أنه تهجد ، وجب أن يقال : سمى ذلك تهجدا من حيث أنه ألقى الهجود . فالتهجد ترك الهجود وهو النوم (١) .

والضمير في « به » ، يعود إلى القرآن الكريم ، المذكور في قوله - تعالى - « وقرآن الفجر » ، إلا أنه ذكر في الآية السابقة بمعنى الصلاة ، وذكر هنا بمعناه المشهور ، نفي الكلام ما يسمى في البلاغة بالاستخدام .

والنافلة : الزيادة على الفريضة ، والجمع نوافل . يقال : تنفل فلان على أصحابه ، إذا أخذ زيادة عنهم .

أي : واجعل - أيها الرسول الكريم - جافيا من الليل ، تقوم فيه ، لتصل صلاة زائدة على الصلوات الخمس التي فرضها الله - تعالى - عليك وعلى أمتك .

قال - تعالى - : « يأبى المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . »

قلوا : وقيام الليل كان واجبا في حقه - صلى الله عليه وسلم - بصفة خاصة ، زيادة على الصلاة المفروضة .

أخرج البيهقي في إسنه عن عائشة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :
ثلاث هن على فرائض ، وهن لكم سنة : الوتر ، والسواك وقيام الليل .

ومن العلماء من يرى أن قيام الليل كان مندوبا في حقه - صلى الله عليه وسلم -
كما هو الشأن في أمته ، ومعنى : نافلة لك ، أى : زيادة في رفع درجاتك ، فإن
الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، أما غيرك فقد شرعنا النافلة
تكفيرا لخطاياك .

وقوله - عز وجل - : دعى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ، بيان لما يترتب
على أدائه للصلاة بخشوع وخضوع ، من سمو في المسكاة ، ورفعة في
الدرجة .

وكلمة عسى في كلام العرب تفيد التوقع ، أما في كلام الله - تعالى - فتفيد
الوجوب والقطع .

قال الجمل : اتفق المفسرون على أن كلمة دعسى ، من الله - تعالى - تدخل
فيما هو قطعى الوقوع ، لأن لفظ عسى يفيد الإطماع ، ومن أطمع لإنسان
في شئ ، ثم حرمه ، كان عارا عليه والله - تعالى - أكرم من أن يطمع أحدا
ثم لا يعطيه ما أطمعه فيه .

أى : ذاوم أيها الرسول الكريم على عبادة الله وطاعته لتبعثك يوم القيامة
وتقيمك مقاما محمودا ، ومكانا عاليا ، يحمدك فيه الخلائق كلهم .

والمراد بالمقام المحمود هنا ، هو مقام الشفاعة العظمى يوم القيامة .
ليربح الناس من الكرب الشديد ، في موقف الحساب .

وقد ساق الإمام ابن كثير عن تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث في
في هذا منها : ما أخرجه البخاري عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم
القيامة جنأ - جمع جنوة كخطوة وخطا - أى جماعات - كل أمة تتبع نبيا
يقولون : يا فلان الشفاعة . انتهى الشفاعة إلى محمد

- صلى الله عليه وسلم - ، فذلك يوم يبعثه الله مقاما محمودا ، .

وروى الإمام أحمد والترمذي عن أبي بن كعب عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : إذا كان يوم القيامة ، كنت إمام الأنبياء وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم غير نحر ، .

وروى ابن جرير عن أبي هريرة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - سئل عن قوله - تعالى - : : عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ، فقال : : هو المقام الذى أشفع لأمتي فيه ، (١) .

وقال الآلوسى : والمراد بذلك المقام ، مقام الشفاعة العظمى فى فصل القضاء حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه - صلى الله عليه وسلم - ، فقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن الشمس لتدنو حتى يبلع العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك ، استغاثوا بآدم ، فيقول : لست بصاحب ذلك ، ثم موسى فيقول كذلك ، ثم محمد فيشفع فيقضى الله - تعالى - بين الخلق ، فيمشى - صلى الله عليه وسلم - حتى يأخذ بحلقة باب الجنة ، فيومئذ يبعثه الله - تعالى - مقاما محمودا ، يحمده أهل الجمع كلهم ، (١) .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يكثّر من اللجوء إليه عن طريق الدعاء ، بعد أن أمره بذلك عن طريق المداومة على الصلاة ، فقال - تعالى - : : وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ، .

والمدخل والمخرج - بضم الميم فيهما - مصدران بمعنى الإدخال والإخراج ، فهما كالجبرى والمرسى وإضافتهما إلى الصدق من إضافة الموصوف لصفته .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٥

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ١٤٠

قال الآلوسى : واختلف فى تعيين المراد من ذلك ، فأخرج الزبير بن بكار عن زيد بن أسلم ، أن المراد : بالإدخال : دخول المدينة ، وبالإخراج : الخروج من مكة ، ويدل عليه ما أخرجه أحمد ، والطبرانى ، والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه ، وجماعة ، عن ابن عباس قال : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - بمكة ، ثم أمر بالهجرة ، فأنزل الله - تعالى - عليه هذه الآية . وبدأ بالإدخال لأنه الأهم ...

ثم قال : والأظهر أن المراد إدخاله - عليه الصلاة والسلام - إدخالاً مرضياً فى كل ما يدخل فيه ويلاسه من مكان أو أمر ، وإخراجه - من كل ما يخرج منه خروجا مرضياً - كذلك - ، ففكون الآية عامة فى جميع الموارد والمصادر (١)

ويبدوننا أن المعنى الذى أشار إليه الآلوسى - رحمة الله - بأنه الأظهر ، هو الذى تسكن إليه النفس ، ويدخل فيه غيره دخولا أو اياه ، ويكون المعنى : وقل - أيها الرسول الكريم - متضرعا إلى ربك : يارب أدخلنى إدخالاً مرضياً صادقا فى كل ما أدخل فيه من أمر أو مكان ، وأخرجنى كذلك إخراجاً طيباً صادقا من كل أمر أو مكان .

والمراد بالسلطان فى قوله - تعالى - : « واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ، الحجة البينة الواضحة التى تقنع العقول ، والقوة الغالبة التى ترهب المبطلين . أى : واجعل لى - يا إلهى - من عندك حجة تنصرنى بها على من خالفنى ، وقوة تعينى بها على إقامة دينك ، وإزالة الشرك والكفر .

وقد وضع صاحب الكشف هذا المعنى فقال : قوله : « واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ، أى : حجة تنصرنى على من خالفنى ، أو ملسكا وعزا قويا فاصرا للإسلام على الكفر ، مظهرا له عليه ، فأجيبته دعوته بقوله :

« والله يعصمك من الناس » فإن حزب الله هم الغالبون ، ليظهره على الدين كله ، ويستخلفهم في الأرض ، ووعدوه لينزعن ملك فارس والروم فيجعله له .

وعنه صلى الله عليه وسلم - أنه استعمل عتاب بن أسيد ، على أهل مكة وقال : انطلق فقد استعملتك على أهل الله ، فكان شديداً على المريب . ليأمر على المؤمن ، وقال : لا والله لا أعلم متخلفاً يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه ، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق .

فقال أهل مكة : يا رسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد ، أعرأبياً جافياً .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : « لاني رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة ، فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقلًا شديداً ، حتى فتج له فدخلها ، فأعز الله به الإسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم ، فذلك السلطان النصير » (١) .

وقال ابن كثير - بعد أن ساق بعض الأقوال في معنى الآية الكريمة - قوله : « واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً » ، قال الحسن البصري في تفسيرها : ووعدوه ربهم لينزعن ملك فارس والروم وليجعلنه له .

وقال قتادة فيها : إن نبي الله علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان . فسأل سلطاناً نصيراً الكتاب الله . ولحدود الله ، وفرائض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل كل شديدهم ضعيفهم ...

ثم قال ابن كثير : واختار ابن جرير قول الحسن و قتادة ، وهو الأرجح ، لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا يقول - تعالى - : « ولقد أرسلنا رسلاً بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ...

وفي الحديث : « إن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن ، أى : ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ، ما لا يمتنع كثير من الناس عن ارتكابه بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد ، والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع ، (١) .

وفي قوله - تعالى - : « واجعل لى من لدنك » تصوير بديع لشدة القرب والاتصال بالله - تعالى - ، واستمداد العون منه - سبحانه - مباشرة ، واللجوء إلى حماه بدون وساطة من أحد .

ثم بشره - سبحانه - بأن النصر له آت لا ريب فيه فقال - تعالى - « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

والحق فى لغة العرب : الشيء الثابت الذى ليس يزائل ولا مضمحل . والباطل على النقيض منه .

والمراد بالحق هنا : حقائق الإسلام وتعاليمه التى جاء بها النبي - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه - عز وجل -

والمراد بالباطل : الشرك والمعاصى التى ما أنزل الله بها من سلطان والمراد بزهوته : ذهابه وزواله . يقال : فلان زهقت روحه ، إذا خرجت من جسده وفارق الحياة .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الشكر لربك ، والاعتراف له بالنعمة ، والاستبشار بنصره . قل : جاء الحق الذى أرسلنى به الله - تعالى - وظهر على كل ما يخالفه من شرك وكفر ، وزهق الباطل ، واضمححل وجوده وزالت دولته ، إن الباطل كان زهوقا ، أى : كان غير مستقر وغير ثابت فى كل وقت . كما قال - تعالى - : « قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب » . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ، (٢) .

وكما قال - سبحانه - : دبل فتذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ... (١) .

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية أحاديث منها : ما أخرجه الشيخان عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : دخل النبي - صلى الله عليه وسلم - مكة - عند فتحها - وحول البيت ستون وثلاثمائة صنم . فجعل يطعنهم بعود في يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد ، .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن المنذر عن جابر قال : دخلنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة ، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما ، فأمر بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأكبت على وجهها . وقال : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، (٢) .

وقال القرطبي : في هذه الآية دليل على كسر نصب المشركين ، وجميع الأوثان إذا غلب عليهم ، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله ، وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطاير والعيدان والمزاهير التي لا معنى لها إلا للهوبها عن ذكر الله تعالى .. (٣)

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أمرت المسلمين في شخص فيهم - صلى الله عليه وسلم - بالمداومة على كل ما يقرهم من الله - تعالى - ، ولا سيما الصلاة التي هي صلة بين العبد وربّه ، وبشرت النبي - صلى الله عليه وسلم - بفتح المقام المحمود من ربّه - عز وجل ، وبأن مأمه من حق وصدق ، سيزهق مامع أعدائه من باطل وكذب ، فإن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن تكون العاقبة للمتقين .

(١) سورة الأنبياء الآية ١٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٩ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٣١٤ .

ثم مدح - سبحانه - القرآن الكريم الذي أنزله على قلب نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وبين أحوال الإنسان في حالتي اليسر والعسر ، والرخاء والشدة ، وأن كل إنسان يعمل في هذه الدنيا على حسب طبيعته وزيته وميوله ، فقال - تعالى - :

« وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ، فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤) .

قال الفخر الرازي - رحمه الله - : اعلم أنه - تعالى - لما أُنْزِلَ في شرح الإلهيات والنبوات ، والحشر والمعاد والبعث ، وإثبات القضاء والقدر ، ثم أتبعه بالأمور بالصلاة ، ونبه على ما فيها من الأسرار ، وإنما ذكر كل ذلك في القرآن ، أتبعه ببيان كون القرآن شفاء ورحمة . فقال - تعالى - : . ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين . .

ثم قال : ولقظة هـ من ، ههنا ، ليست للتبويض ، بل هي للجنس كقوله : فاجتنبوا الرجس من الأوثان . .

والمعنى : ونزل من هذا الجنس الذي هو قرآن ما هو شفاء ، لجميع القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين ، (٩) .

وبما لاشك فيه ، أن قراءة القرآن ، والعمل بأحكامه وآدابه وتوجيهاته . . . شفاء للنفوس من الوسوسة ، والقلق ، والحيرة ، والغفاق ، والردائل المختلفة ، ورحمة للمؤمنين من العذاب الذي يحزنهم ويشقيهم ،

إنه شفاء ورحمة لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان ، فأشرقت بنور ربها ،
وتفتحت لتلقى ما في القرآن من هدايات وإرشادات .

إنه شفاء للنفوس من الأضرار القلبية كالحسد والطمع والانحراف عن
طريق الحق ، وشفاء لها من الأمراض الجسدية .

قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية : اختلف العلماء في كوفة - أي القرآن -
شفاء على قولين :

أحدهما : أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الريب ، ولكشف
غطاء القلب من مرض الجهل .

الثاني : أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحوه وقدروى الأئمة
واللفظ للدارقطني - عن أبي سعيد الخدري قال : بعثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
في سرية ثلاثين راكب قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا
فأبوا . قال : فلدغ سيد الحى ، فأتونا فقالوا : أفيكم أحد يرقى من العقرب ؟
قال : قلت أنا نعم ، ولكن لا أفعل حتى تعطونا فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين
شاة . قال : فقرأت عليه ، الحمد لله رب العالمين ، سبع مرات فبرأ . فبعثوا
إلينا بالنزل وبعثوا إلينا بالشاة . فأكلنا الطعام أنا وأصحابي ، وأبوا أن يأكلوا
من الغنم ، حتى أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فأخبرته الخبر ، فقال
: ما يدريك أنها رقية ، ؟ قلت : يا رسول الله ، شئ أبقى في روعى . قال :
كلوا وأطعمونا من الغنم ، (١)

والذى تطمئن إليه النفس أن قراءة القرآن الكريم ، والعمل بما فيه من
هدايات وإرشادات وتشريعات ... كل ذلك يؤدي - بإذن الله تعالى - إلى
الشفاء من أمراض القلوب ومن أمراض الأجسام .

قال بعض العلماء : وقوله - تعالى - في هذه الآية : ما هو شفاء ، يشمل
كونه شفاء للقلب من أمراضه ، كالشك والنفاق وغير ذلك . وكونه شفاء

للأجسام إذا رقى عليها به ، كما تدل له قصة الذي رقى الرجل اللديغ بالفاتحة ،
وهي صحيحة مشهورة ، (١)

وبعد أن بين - سبحانه - أثر القرآن بالنسبة للمؤمنين ، أتبع ذلك ببيان
أثره بالنسبة للظالمين ، فقال : « ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » ،

أي : « ولا يزيد ما أنزله من قرآن الظالمين إلا خسارا وهلاكاً ، بسبب عنادهم
وجحورهم للحق بعد إذ تبين .

قال الألوسي : « وإسناد الزيادة المذكورة إلى القرآن ، من أنهم المزدادون
في ذلك لسوء صنيعهم ، باعتباره سبباً لذلك ، وفيه تعجيب من أمردهن حيث
كونه مداراً للشفاء والشفاء .

كما صار في الأصداف درا وفي ثغر الأفاعي صار مما (٢)

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول
يقول أيكم زادته هذه إيمان ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون .
وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وامتنوا وهم
كافرون (٣)

وقوله - تعالى - « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون
في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ، (٤)

ثم صور - سبحانه - حال الإنسان عند اليسر واليسر ، وعند الرخاء
والشدة فقال - تعالى - : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ،
وإذا مسه الشر كان يسوياً »

(١) أضواء البيان ٣ ص ٦٢٤ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

(٢) تفسير الألوسي ١٥ ص ١٤٦

(٣) سورة التوبة ١٣٤ ، ١٢٥

(٤) سورة فصلت الآية ٤٤

أى : وإذا أنعمنا على الإنسان ، بنعمة الصحة والغنى وما يشبههما مما يسره ويهجه ، أعرض . عن طاعتنا وشكرنا ونأى بجانبه ، أى : ولم يتعد عنا ، ولولانا ظهره والنأى : البعد ، يقال : مكان نام ، أى بعيد ، ونأى فلان عن الشيء نأياً ، وإذا لم يتعد عنه .

وقوله - تعالى - : د نأى بجانبه ، تأكيد للإعراض ، لأن الإعراض عن الشيء أن يولى عرض وجهه ، والنأى بالجانب : أن يولى عنه عطفه ، ويولى ظهره ، ويظهر الاستكبار والغرور . وقوله - تعالى - : د وإذا مسه الشر كان يسوسا ، أى : وإذا مس الشر هذا الإنسان من فقر أو مرض ، كان يتوسا وقنوطا من رحمة الله - تعالى - .

فهو في حالة الصحة والغنى يبطر ويتكبر ويطفئ . وفي حالة الفقر والمرض يئس ويقنط ويستولى عليه الحزن والهم .

والمراد بالإنسان هنا جنسه ، إذ ليس جميع الناس على هذه الحالة ، وإنما منهم المؤمنون الصادقون الذين يشكرون الله - تعالى - على نعمه ، ويذكرونه ويطيعونه في السراء والضراء .

قال - تعالى - : ولئن أذقنا الإنسان منا نعمة ثم نزعناها منه إنه ليكفور كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح بخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ، (١) .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد استثنى الذين صبروا وعملوا الصالحات ، من رذيلة الجحود عند اليسر ، واليأس عند العسر .

قال الألوسي مالمخصه : والمراد بالإنسان في قوله - تعالى - : د وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه . . . ، جنسه ، إذ يكفي في صحة الحكم

وجوده في بعض الأفراد ، ولا يضر وجود تقيض في البعض الآخر ، وقيل :
المراد به الوليد بن المغيرة ، .

وفي إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الإهام إلى ضميره - تعالى - ، إيدان
بأن الخير مراد بالذات ، والشر ليس كذلك لأن ذلك هو الذي يقتضيه الكرم
المطلق ، والرحمة الواسعة ، وإلى ذلك الإشارة بقوله - صلى الله عليه وسلم - :
« اللهم إن الخير بيدك والشر ليس إليك » (١) .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن
مسه الشر فيموس قنوط » (٢) .

وقوله - سبحانه - : « وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة
بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون » (٣) .

ثم بين - سبحانه - أنه لا يخفى عليه شيء من أحوال الناس وأعمالهم فقال :
« قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً » .

والتنوين في قوله « كل » عوض عن المضاف إليه . أى : كل فرد .

وقوله : « شاكلته » : أى : طريقته ومذهبه الذي يشاكل ويناسب حاله
في الهداية أو الضلالة .

مأخوذ من قولهم : طريق ذو شواكل ، وهى الطرق التى تشعب منه
وتتشابه معه فى الشكل ، فسميت عادة المرء بها ، لأنها تشاكل حاله .

قال القرطبي قوله « قل كل يعمل على شاكلته » قال ابن عباس : على ناحيته .
وقال مجاهد : على طبيعته .

وقال قتادة : نيته فو قال ابن زيد : على دينه . وقال الفراء : على طريقته
ومذهبه الذى جبل عليه ...

(١) تفسير الألوسى ١٥ ص ١٤٧ ،

(٢) سورة فصلت الآية ٤٩ . (٣) سورة الروم الآية ٣٦ .

وقبل : هو مأخوذ من الشكل . يقال : اسد على شكل ولاشا كلنى . فالشكل : هو المثل والنظير ، كآوله - تعالى - : « وآخر من شكله أزواج » .

والشكل - بكسر الشين - الهيئة . يقال : جارية حسنة الشكل . أى الهيئة . وهذه الأقوال كلها متقاربة ، (١) .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : كل واحد منكم - أيها الناس - يعمل على شاكلته وطريقته التى تشاكل حاله ، وتناسب اتجاهه ، وقتلام مع سلوكه وعقيدته ، فربكم الذى خلقكم وتمهدكم بالرعاية ، أعلم بمن هو أهدي سبيلاً ، وأقوم طريقاً ، وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

فآلاية الكريمة تبشر أصحاب النفوس الطاهرة والأعمال الصالحة ، بالعاقبة الحميدة ، وتمهد المنحرفين عن طريق الحق ، المتبعين خطوات الشيطان ، بسوء المصير ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه خافية ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك جانباً من الأسئلة التى كانت توجه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، كما ذكر الإجابة عليها - لى يجابه النبي - صلى الله عليه وسلم - بها السائلين ، فقال - تعالى - :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَنَنْذَرَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَايِنًا وَكَيْلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنْ فَضَّلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُلْ لَّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ

صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ
إِلَّا كُفُورًا (٨٩) .

ذكر المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - : ويسألونك عن الروح ،
روايات منها : ما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال : بينما أنا أمشي
مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في حرث وهو متوكئ على عسيب - أي على
عصا - إذ ضرب اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقالوا : يا محمد
ما الروح ؟ فأمسك النبي - صلى الله عليه وسلم - فلم يرد عليهم شيئاً ، ففعلت
أنه يوحى إليه ، فقامت مقننى ، فلما نزل الوحي قال : ويسألونك عن
الروح قل الروح من أمر ربي

قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر هذه الرواية وغيرها : وهذا السياق
يقتضى فيما يظهر بآدى الرأى ، أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله
اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن السورة كلها مكية .

وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت
عليه بمكة قبل ذلك .

أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم لإزالتها عليه ،
وهي هذه الآية : . ويسألونك عن الروح

وبما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس
قال : قلت قريش لليهود . أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ؟ فقالوا : سلوه
عن الروح ، فسألوه فنزلت : ويسألونك عن الروح . . . الآية ، (١) .

وكلمة الروح تطلق في القرآن الكريم على أمور منها :

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٦٠

الوحى ، كما فى قوله - تعالى - : « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ... » (١) .

ومنها : القوة والشباب كما فى قوله - تعالى - : « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ... » (٢) .

ومنها : جبريل ، كما فى قوله - تعالى - : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ... » (٣) .

ومنها : القرآن كما فى قوله - سبحانه - : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ... » (٤) .

ومنها : عيسى ابن مريم ، كما فى قوله - تعالى - : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ... » (٥) .

وجمهور العلماء على أن المراد بالروح فى قوله - تعالى - : « ويسألونك عن الروح ... » : ما يحيا به بدن الإنسان ، وبه تكون حياته ، وبمفارقة للجسد يموت الإنسان ، وأن السؤال إنما هو عن حقيقة الروح ، إذ معرفة حقيقة الشيء . تسبق معرفة أحواله .

وقيل المراد بالروح هنا : القرآن الكريم ، وقيل : جبريل ، وقيل : عيسى إلى غير ذلك من الأقوال التى أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرة أقوال .

ويبدو لنا أن مذهب إمامه جمهور المفسرين ، أولى بالاتباع ، لأن قوله - تعالى - بعد ذلك : « قل الروح من أمرى » ، يؤيد هذا الاتجاه .

قال الآلوسى : الظاهر عند المنصف ، أن السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدار البدن الإنسانى ، ومبدأ حياته ، لأن ذلك من أدق الأمور التى

(١) سورة غافر الآية ١٥ (٢) سورة المجادلة الآية ٢٢

(٣) سورة الشعراء الآية ١٩٢ ، ١٩٤

(٤) سورة الشورى الآية ٥٢ (٥) سورة النساء الآية ١٧١

لا يسمع أحدا إنكارها ، ويشرب الجميع إلى معرفتها ، وتتوفر دواعي العقلاء إليها ، وتسلل الأذهان عنها ، ولا تمكّد تعلم إلا بوحى ... ، (١) .

و د من ، فى قوله : د قل الروح من أمر ربى ، بىافية . والمراد بالامر هنا . الشأن .

والمعنى : ويسألك بعض الناس - أيها الرسول - عن حقيقة الروح ، قل لهم على سبيل الإرشاد والزجر : الروح شىء من جنس الأشياء التى استأثر الله - تعالى - وحده بعلم حقيقتها وجوهرها .

وقال - سبحانه - د قل الروح ، بالإظهار ، لسكّال العناية بشأن المسئول عنه .

وإضافة كلمة د أمر ، إلى لفظ الرب - عز وجل - ، من باب الاختصاص العلمى ، إذ الرب وحده هو العليم بشأنها ، وليس من باب الاختصاص الوجودى ، لأن الروح وغيرها من مخلوقات الله - تعالى - .

وفى هذه الإضافة ما فيها من تشرىف المضاف ، حيث أضيف هذا الأمر إلى الله - تعالى - وحده .

قال القرطبى : وقوله - تعالى - د قل الروح من أمر ربى ، دليل على خلق الروح ، أى : هو أمر عظيم ، وشأن كبير من أمر الله - تعالى - ، مبهم له وتاركا تفصيله ، ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها . وإذا كان الإنسان فى معرفة نفسه هكذا ، كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تمجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز ، (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ١٥١

(٢) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٣٢٤

(١٣ - سورة الإسراء)

وقوله : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، من جملة الجواب الذي أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد به على السائلين عن حقيقة الروح .

أى : وما أوتيتم - أيها السائلون عن الروح - من العلم إلا علما قليلا ، بالنسبة إلى عليه - تعالى - الذي وسع كل شيء ، ولا يخفى عليه شيء .
وإن علمكم مهما كثر ، فإنه لا يمتد - كنهه أن يتعلق بحقيقة الروح وأحوالها ، لأن ذلك شيء استأثر الله - تعالى - به وحده ، واقتضت حكمته - عز وجل - أن يجعله فوق مستوى عقولكم .

قال صاحب الظلال عند تفسيره لهذه الآية : والمنهج الذي سار عليه القرآن - وهو المنهج الأقوم - أن يجيب الناس عما هم في حاجة إليه ، وما يستطيع إدراكهم البشرى بلوغه ومعرفة ، فلا يبذل الطاقة العقلية التي وهبها الله لهم فيما لا ينتج ولا يثمر ، وفي غير مجالها الذي تملك وسائله ، وبعضهم عندما سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الروح ، أمره الله أن يجيبهم بأن الروح من أمره - سبحانه - ...

وليس في هذا حجر على العقل البشرى أن يعمل ، ولكن فيه توجيها لهذا العقل أن يعمل في حدوده ، وفي مجاله الذي يدركه .

والروح غيب الله لا يدركه سواه ... ولقد أبدع الإنسان في هذه الأرض ما أبدع ، ولكنه وقف حسيما أمام ذلك السر اللطيف - الروح ، لا يدرك ماهو ؟ ولا كيف جاء ؟ ولا كيف يذهب ؟ ولا أين كان ولا أين يكون ، إلا ما يخبر به العليم الخبير في التنزيل ، (١) .

وقال بعض العلماء : وفي هذه الآية ما يزر الخائضين في شأن الروح ، المتسكفين لبيان ماهيته ، وإيضاح حقيقته ، أبلغ زجر ، ويردعهم أعظم ردع ،

(١) في ظلال القرآن > ١٥ ص ٣٥٧ . للاستاذ سيد قطب - رحمه الله - .

وقد أطلوا المقال في هذا البحث ، بما لا يتسع له المقام ، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين أو دنيا ...

فقد استأثر الله - تعالى - بعلم الروح ، ولم يطلع عليه أنبياءه ، ولم يأذن لهم بالسؤال عنه ، ولا البحث عن حقيقته ، فضلا عن أهمهم المقتدين بهم ... (١) ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر قدرته ، بعد أن بين أن الروح من أمره ، فقال - تعالى - : « واثق شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا » .

واللام في قوله « واثق شئنا ... » موطئة لقسم محذوف ، جوابه « لنذهبن » . أي : والله لئن شئنا لنذهبن بهذا القرآن الذي أوحيناه إليك - أيها الرسول الكريم - ، بحيث نزله من صدرك ، ومن صدور أتباعك ، ونحوه من الصحف حتى لا يبقى له أثر إذ أن قدرتنا لا يهجزها ، ولا يحول دون تنفيذ ما تريده حائل ..

ثم لا تجد لك بعد ذلك من يكون وكيلا عنها . في رد القرآن إليك بمذهبا به ونحوه ، ومن يتمهد بإعادته بعد رفعه وإزالته .

قال الآلوسي : وعبر عن القرآن بالموصول في قوله « بالذي أوحيناه إليك » ، تفخيما لشأنه ، ووصفا له بما في حيز الصلة ابتداء ، لإعلاما بحاله من أول الأمر ، وبأنه ليس من قبيل كلام المخلوق ... (٢)

وقوله : « إلا رحمة من ربك » استثناء واستدراك على قوله : « لنذهبن بالذي أوحيناه إليك » .

أي : والله إن شئنا لإذهاب القرآن من صدرك لأذهبناه ، دون أن تجد أحدا يرده عليك ، ليكننا لم نعلم ذلك بل أبقيناه في صدرك رحمة من ربك .

(١) تفسير فتح البيان للشيخ صدوق حسن خان . ج ٥ ص ٤٠١ .

(٢) تفسير الآلوسي .

قال الجمل : وفي هذا الاستثناء قولان : أحدهما : أنه استثناء متصل : لأن الرحمة تندرج في قوله ، وكيلها .

أى : إلا رحمة منا فإنها إن نالتك فلعلها تسترده عليك والثانى : أنه منقطع ، فيقدر بلسان أو بيل ، ود من ربك ، يجوز أن يتعلق بمحذوف صفة لرحمة - أى لكن رحمة ربك تركته غير مذهب به - ، (١) .

وقوله ، إن فضله كان عليك كبيرا ، بيان لما امتن الله به على نبيه صلى الله عليه وسلم - .

أى : إن فضله كان عليك كبيرا ، حيث أنزل القرآن عليك ، وأبقاه في صدرك دون أن يزيله منه ، وجعلك سيد ولد آدم ، وخاتم رسله ، وأعطاك المقام المحمود يوم القيامة .

قال صاحب الكشف : وهذا امتنان عظيم من الله - تعالى - ببقاء القرآن محفوظا ، بعد المنة المظيمة في تنزيله وتحفيظه . فعلى كل ذى علم أن لا يغفل عن هاتين المننتين والقيام بشكرهما . وهما منة الله عليه بحفظه العلم ، ورسوخه في صدره ، ومنته عليه في بقاء المحفوظ ، (٢) .

ثم أمر الله - تعالى - فيه أن يتحدى المشركين بهذا القرآن فقال - تعالى - : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين الذين قالوا - كما حكى الله عنهم - « لو نشاء لقلنا مثل هذا » ، قل لهم على سبيل التحدى والتعجيز : والله لئن اجتمعت الإنس والجن ، واففقوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، الذى أنزله الله - تعالى - من عنده على قلبي ... لا يستطيعون ذلك . ولو كان بعضهم لبعض مظاهرا ومعينا ومناصرا ، فى تحقيق ما يمتنون به من الإتيان بمثله .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٤٦ .

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٦٩١ .

وخص - سبحانه - الإنس والجن ، بالذكر ، لأن المنكر كون القرآن من عند الله ، من جنسهما لاهن جنس غيرهما كالملائكة - مثلا - ، فإنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولأن التحدى إنما هو هو للإنس والجن الذين أرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - لإيهم ، لهدايتهم إلى الصراط المستقيم .

وقال - سبحانه - : « لا يأتون بمثله » ، فأظهر في مقام الإحصار ، ولم يكتف بأن يقول : لا يأتون به ، لدفع توهم أن يتبادر إلى الذهن أن له مثلا معينا ، وللإشعار بأن المقصود نفي المثل على أى صفة كانت هذه المثلية ، سواء أ كانت فى بلاغته ، أم فى حسن نظمه ، أم فى إخباره عن المغيبات ، أم فى غير ذلك من وجوه إعجازه .

وقوله : « ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ، معطوف على مقدر ، أى : لا يستطيعون الإتيان بمثله لولم يكن بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض ، ولو كان بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض لما استطاعوا أيضا .

والمقصود أنهم لا يستطيعون الإتيان بمثله على أية حال من الأحوال ؛ وبأية صورة من الصور ، لأنه متى افتنى لإيمانهم بمثله مع المظاهرة والمعاونة ، اتنى من باب الأولى الإتيان بمثله مع عدمهما . وقوله : « لبعض » ، متعلق بقوله « ظهيرا » .

ولقد بين - سبحانه - فى آيات أخرى أنهم لن يستطيعوا الإتيان بعشر سور من مثله ، بل بسورة واحدة من مثله .

قال - تعالى - : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » (١) .

وقال - سبحانه - : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » (١) .

ومع عجز المشركين عن الإيمان بسورة من مثل القرآن الكريم ، إلا أنهم استمروا فى طغيانهم يعمهون ، وأبوا التذكر والتدبر ، ولقد صور - سبحانه - أحوالهم أكمل تصوير فقال : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا » .

أى : ولقد صرفنا وكررنا ونوعنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، أى : من كل معنى بديع ، هو كالمثل فى بلاغته ، وإقناعه للنفوس ، وشرحه للصدور ، واشتماله على الفوائد الجملة ...

ومفعول : « صرفنا » محذوف ، والتقدير : ولقد صرفنا الهدايات والعبر بوجوه متعددة ..

وقوله - تعالى - : « فأبى أكثر الناس إلا كفورا » ، بيان لموقف الفاسقين عن أمر ربهم من هدايات القرآن الكريم وتوجيهاته ، وأوامره ونواهيه .
أى : فأبى أكثر الناس الاستجابة لهديه ، وامتنعوا عن الإيمان بأنه من عند الله - تعالى - ، وجحدوا آياته وإرشاداته ، وعموا وصموا عن الحق الذى جاءهم به من نزل عليه القرآن ، وهو رسوله الله - صلى الله عليه وسلم - .

وقال - سبحانه - : « فأبى أكثر الناس » ، بالإظهار فى مقام الإضمار ، للتأكيد والتوضيح .

والمراد بأكثر الناس : أولئك الذين بلغهم القرآن الكريم ، واستمعوا إلى آياته وتوجيهاته وتشريعاته وآدابه ، ولكنهم استجبوا الكفر على الإيمان ، وآثروا الضلالة على الهداية .

وعبر - سبحانه - بالأكثر ، إنصافاً للقلّة المؤمنة التي فتحت صدورها للقرآن ، فأمنت به ، وعملت بما فيه من أوامر ونواه ...

قال الجمل : فإن قيل : كيف جاز قرله ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا ، حيث وقع الاستثناء المفرغ في الإثبات ، مع أنه لا يصح ، إذ لا يصح أن تقول : ضربت إلا زبدا .

فالجواب : أن لفظة ، أبى ، تفيد النفي ، فكأنه قيل : فلم يرضوا إلا كفورا ، (١) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقّت ما يدل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعليه ، وفضله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - وعلى الناس ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

ثم حكى - سبحانه - بعض المطالب المتعمّنة التي طالبها المشركون من النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فقال - تعالى - :

«وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ، أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيَالًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه ، قل سبحانه ربّي هل كنتُ إلا بشراً رسولاً (٩٣) .»

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات رواية طويلة مملوكة : أن نفراً من زعماء قريش اجتمعوا عند الكعبة ، وطالبوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاءهم ، فقالوا له يا محمد : إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك ، وإنا والله

ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ١١ لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين . وسفقت الأقدام ، وشتمت الآلهة ...

فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تطلب شرفا فينا ، سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ...

فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما بي شيء . ما تقولون ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرني أن أكون بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله - تعالى - حتى يحكم بيني وبينكم .

فقالوا له يا محمد : فإن كنت صادقا فيما تقول ، فسل لنا ربك الذي بعثك ، فليسير عنا هذا الجبل الذي قد ضيق علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، ويفجر فيها الأنهار ، ويبعث من معني من آبائنا ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ... وسله أن يبعث معك ملكا يصدقك ، واسأله أن يجعل لنا جنانا وقصورا أو كنوزا من ذهب وفضة .

فقال - صلى الله عليه وسلم - ما بعثت بهذا . فقالوا : فأسقط السماء - كذا عمت - علينا كسفا ...

وقال أحدهم : لا أؤمن بك أبدا ، حتى تتخذ لك سلما إلى السماء ترقى فيه ، ونحن ننظر إليك ..

فأنصرف - صلى الله عليه وسلم - عنهم حزينا ، لما رأى من قباة عدم عن الهدى ، فأنزل الله عليه هذه الآيات تسلية له ... (١)

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ١٥ ص ١١٠ وتفسير ابن كثير ج ٥ ص ١١٥
وتفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٢٨ .

والمعنى : وقال المشركون الذين لا يرجون لقاءنا لرسولنا - صلى الله عليه وسلم - يا محمد : د لن تؤمن لك ، وتبعلك فيما تدعوننا إليه .

د حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أى : حتى تخرج لنا من أرض مكة القليلة المياه ، د ينبوعا ، أى : عينا لا ينضب ماؤها ولا يفور .

يقال : نبع الماء من العين ينبع - بتثنية الباء فيهما - إذا خرج وظهر وكثر .

وقرأ بعض السبعة د تفجر ، بالتخفيف - من باب نصر - وقرأ البعض الآخر د تفجر ، بتشديد الجيم ، من فجر بالتشديد ، والتضعيف للكثير .

والتعريف فى لفظ د الأرض ، العهد ، لأن المراد بها أرض مكة .

وعبر بكلمة د ينبوعا ، للاستعارة بانهم لا يريدون من الماء ما يكفيهم فحسب ، وإنما هم يريدون ماء كثيرا لا ينقوص فى وقت من الأوقات ، إذ اليباء زائدة للبالغة .

وقوله - سبحانه - : د أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، بيان لاقتراح آخر من مقترحاتهم السخيفة .

والمعنى : أو تكون لك بصفة خاصة يا محمد ، د جنة ، أى : حديقة إملتفة الأغصان ، مشتملة على الكثير من أشجار النخيل والأعنان : تجرى الأنهار فى وسطها جريا عظيما هائلا ..

وخصوا النخيل والأعنان بالذكور - كما حكى القرآن عنهم - ، لأن هذين الصنفين يعتبران من أهم الثمار عندهم ، ولأنهما على رأس الزروع المنتشرة فى أراضيهم ، والتي لها الكثير من الفوائد .

وقوله : د خلالها ، منصوب على الظرفية ، لأنه بمعنى وسطها وبين ثناياها . والتنوين فى قوله د تفجيرا ، للتكثير ، أى : تفجيرا كثيرا ، بحيث تكون تلك الجنة الخاصة بك ، غنية بالمياه التى تنفعها وترويا .

وقوله - عز وجل - : « أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ... »
اقتراح ثالث من مقترحاتهم الفاسدة .

وقوله « كسفا » أى : قطعاً جمع كسفه - بكسر الكاف وسكون السين ،
يقال : كسفت الثوب أى : قطعته وهو حال من السماء ، والكاف فى قوله :
« كما » صفة لموصوف محذوف .

والمعنى : « أو تسقط أنت علينا السماء إسقاطاً مماثلاً لما هددتنا به ، من أن
فى قدرة ربك - عز وجل - أن ينزل علينا عذاباً متقطعاً من السماء .

ولعلمهم يعنون بذلك قوله - تعالى - : « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم
من السماء والأرض ، إن يشأ نخسف بهم الأرض ، أو يسقط عليهم كسفا
من السماء . . . » (١) .

وقيل يعنون بذلك ، أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء ، فمجل
لنا ذلك فى الدنيا ، وأسقطها علينا ، كما حكى عنهم القرآن ذلك فى قوله - تعالى -
« وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهطر علينا حجارة من السماء
أو ائتنا بعذاب أليم ... » (٢) .

فهم يتعجلون العذاب . والرسول - صلى الله عليه وسلم - ، يرجو من الله
- تعالى - الرحمة والهداية وتأخير العذاب عنهم ، لعله - سبحانه - أن يخرج
من أصلابهم من يخلص له العبادة والطاعة .

وقوله - تعالى - « أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، تسجيل لمطلب رابع من
مطالبهم القبيحة .

قال الألوسى : « قبيلاً ، أى : مقابلاً ، كالعشير والمعاشر ، وأرادوا - كما
جاء عن ابن عباس - عياناً .

(١) سورة ساء الآية ٩

(٢) سورة الأنفال من ٣٢ .

وهذا كقولهم : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، وفي رواية أخرى عنه وعن الضحاك تفسير القبيل بالكفيل ، أى : كفيل بما تدعيه . يعنون : شاهدا يشهد لك بصحة ما قلته .

وهو على الوجهين حال من لفظ الجلالة ... وعن مجاهد : القبيل الجماعة كالقبيل ، فيكون حالا من الملائكة - أى : أو تأتي بالله وبالملائكة قبيلة قبيلة - (١) .

ثم حكى - سبحانه - بقية مطالبهم التي لا يقرها عقل سليم فقال : « أو يكون لك بيت من زخرف ،

أى : من ذهب ، والزخرف يطلق في الأصل على الزينة ، وأطلق هنا على الذهب لأن أئمن ما يزين به في العادة .

« أو ترقى في السماء ، أى : تصعد إليها . يقال : رقى فلان في السلم يرقى رقيقا ورقيا أى صعد ، « ولن تؤمن لرقيق ، وصعودك إليها مع مشاهدتنا لذلك « حتى تنزل علينا ، منها « كتابا نقرؤه ، ونفهم ما فيه ، ، أى : يكون هذا الكتاب بلغتنا التي نفهمها « وبأسلوب مخاطباتنا ، وفيه ما يدل دلالة قاطعة على أنك رسول من عند الله - تعالى - ، وما يدعونا إلى الإيمان بك .

ثم ختم - سبحانه هذه الآيات ، بأن أمر نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، فقال : « قل سبحانه ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ، .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل التعجب من سوء تفكير هؤلاء الجاحدين : يا سبحانه الله هل أنا إلا بشر كسائر البشر ، ورسول كسائر الرسل ، وليس من شأن من كان كذلك أن يأتي بتلك المطالب المتعنتة التي

طلبتموها ، وإنما من شأنه أن يبلغ ما أمره الله بتبليغه من هدايات . تخرج
الناس من ظلمات الكفر والجهل . إلى نور الإيمان والعلم .

فلا استفهام في قوله : هل كنت . . . ، لأنني ، أي : ما كنت إلا رسولا
كسائر الرسل ، وبشرا مثلام .

وقوله : سبحان ربي ، يفيد التعجب من فرط حماقتهم ، ومن بالغ جهلهم ،
حيث طلبوا تلك المطالب ، التي تضمنت ما يعتبر من أعظم المستحيلات ،
كطلبهم إثبات الله - عز وجل - والملائكة إليهم ، ورؤيتهم لذاته - سبحانه - ،
على سبيل المعاينة والمقابلة .

وهذا التعنت والعناد الذي حكاه الله - تعالى - عن هؤلاء الجاحدين ، قد
جاء ما يشبهه في آيات أخرى ، كما جاء ما يدل على أنهم حتى لو أعطاهم الله - تعالى -
مطالبهم لما آمنوا ، ومن ذلك قوله - تعالى - : : ولو أنزلنا عليهم الملائكة
وكلهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ، ما كافوا ليؤمنوا إلا أن يشاء
الله ، ولما كن أكثرهم يجهلون (١) .

وقوله - سبحانه - : : إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو
جاتهم كل آية حتى يروا العذاب الآليم (٢) .

وقوله - عز وجل - : ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون
لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون (٣) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك شبهة من شبهاتهم الفاسدة والمتعددة ، وهي
زعمهم أن الرسول لا يكون من البشر بل يكون ملكا . وقد أمر الله - تعالى -
رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بما يبطل مدعاهم فقال :

(١) سورة الأنعام الآية ١١١ .

(٢) سورة يونس الآية ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) سورة الحجر الآية ١٤ ، ١٥ .

« وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ، إلا أن قالوا :
أبعث الله بشراً رسولا (٩٤) قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون
مُظْمِئِينَ ، لنزلنا عليهم من السماء مَلَكاً رسولا (٩٥) قل كفى بالله
شهيداً بيني وبينكم ، إنه كان بعبادِهِ خبيراً بصيراً (٩٦) » .

قال الفخر الرازي : أعلم أنه - تعالى - لما حكى شبهة القوم في اقتراح
المعجزات الزائدة ، وأجاب عنها ، حكى عنهم شبهة أخرى ، وهي أن القوم
استبعدوا أن يبعث الله إلى الخلق رسولا من البشر ، بل اعتقدوا أن الله
- تعالى - لو أرسل رسولا إلى الخلق ، لوجب أن يكون ذلك الرسول من
الملائكة ، فأجاب الله - تعالى - عن هذه الشبهة فقال : « وما منع الناس أن
يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا ... » (١) .

والمراد بالناس هنا : المشركون منهم ، الذين استبعدوا واعتقدوا أن
الرسول لا يكون من البشر ، ويدخل فيهم دخولا أوليا كفار مكة .
وجملة « أن يؤمنوا » ، في محل نصب ، لأنها منقول ثان لمنع .
وقوله : « إلا أن يؤمنوا » ، هو الفاعل . و « إذ » ظرف للفعل منع ، أو
لقوله : « أن يؤمنوا » .

والمعنى : وما صرف المشركين عن الإيمان بالدين الحق وقت أن جاءتهم
به الرسل ، إلا اعتقاد هؤلاء المشركين أن الله - تعالى - لا يبعث إليهم رجلا
من البشر لكي يبلغهم وحيه ، وإنما يبعث إليهم مَلَكاً من الملائكة لكي
يبلغهم ذلك .

وعبر عن اعتقادهم الباطل هذا بالقول فقال : « إلا أن قالوا ... » للاشعار
بأنه مجرد قول لا كتبه المستنهم ، دون أن يكون معهم أى مستند يستندون إليه
لإثبات قبوله عند العقلاء .

وجاء التعبير عن اعتقادهم الباطل هذا بصيغة الحصر ، لبيان أنه مع بطلانه -
هو من أهم الموانع والصوارف ، التي منعتهم وصرفتهم عن الدخول في الدين
الحق ، الذي جاءتهم به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ، وهذا لا يمنع أن
هناك صوارف أخرى حالت بينهم وبين الإيمان كالخسد والعناد .

قال صاحب الكشف : والمعنى . وما منعهم من الإيمان بالقرآن ، ونبوة
النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا شبهة تلجلجت في صدورهم ، وهي إنكارهم أن
يرسل الله البشر . والهمزة في « أبعث الله » للإنكار ، وما أنكروه بخلافه هو
المنكر عند الله - تعالى - لأن قضية حكمته ، أن لا يرسل ملك الوحي إلا إلى
أمثاله ، أو إلى الأنبياء ، (١) .

والمتدبر في القرآن الكريم ، يرى أن هذه الشبهة - وهي إنكار المشركين
كون الرسول بشرا - قد حكاها في آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : « أكان
للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن
لهم قدم صدق عند ربهم ... » (٢) .

وقوله - تعالى - : « ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر
يهودوننا ، فكفروا وتولوا ، واستغنى الله ، والله غني حميد » (٣) .

وما لاشك فيه أن هذه الشبهة تدل ، على أن هؤلاء الكافرين ، لم يدركوا
قيمة بشريتهم وكرامتها عند الله - تعالى - ، وذلك بسبب انطباع بصائرهم ،
وكثرة جهلهم ، وعكوفهم على موروثاتهم الفاسدة .

ولذا أمر الله - تعالى - بأن يرد عليهم بما يزهق هذه الشبهة فقال - سبحانه -
« قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء
ملائكة رسولا ، » .

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ١٩٩ .

(٢) سورة يونس الآية ٢ . (٣) سورة التغابن الآية ٦ .

والمعنى : قل - يا محمد - لهؤلاء الجاهلين : لو ثبت ووجد ملائكة في الأرض ، يمشون على أقدامهم كما يمشى الإنس ، ويعيشون فوقها ، مطمئنين ، أى : مستقرين فيها مقيمين بها .

لو ثبت ذلك ، لاقتضت حكمتنا أن نرسل إليهم من السماء ملكا رسولا ، يكون من جنسهم ، وينكلم بلسانهم ، وبذلك يتمكنون من مخاطبته ، ومن الأخذ عنه ، ومن التفاهم معه ، لأن الجنس إلى الجنس أميل ، والرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم ، فلو كان المرسل إليهم ملائكة ، لكان الرسول إليهم ملكا مثلهم ، ولو كان المرسل إليهم من البشر ، لكان الرسول إليهم بشرا مثلهم .

فكيف يطلبون أيها الجاهلون - أن يكون الرسول إليكم ملكا ، وتستبعدون أن يكون بشرا مع أنكم من البشر ؟ ١١٩

قال الألوسي : قوله : « نزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ، أى : بعليهم مالا تستقل عقولهم بعلمه ، ويسهل عليهم الاجتماع به ، والتلقى منه ، وأما عامة البشر فلا يسهل عليهم ذلك ، لبعده ما بين الملك وبينهم ... » (١)

وهذا المعنى الذي وضحته الآية الكريمة - وهو أن الرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم - قد جاء ما يشبهه ويؤكد كده في آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبعضنا عليهم ما يلبسون (٢) .

وقوله - سبحانه - : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم » فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، (٣) .

(١) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ١٧٢ .

(٢) سورة الأنعام الآيتان ٨ ، ٩ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ١٧ .

وقوله - عز وجل - : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ... » (١) .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - للمرة الثانية ، أن يحسم الجدل معهم ، بتفويض أمره وأمرهم إلى الله - عز وجل - ، فهو خير الحاكمين فقال : « قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ، إنه كان بعباده خبير بصيرا » .

أى : قل لهم في هذه المرة من جهتك ، بعد أن قلت لهم في المرة السابقة من جهتنا : قل لهم - أيها الرسول الكريم - يكفيني ويرضيني ويسعدني ، أن يكون الله - تعالى - هو الشهيد والحاكم بيني وبينكم يوم تلتقاه جميعا فهو - سبحانه - يعلم أنى قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، إنه - تعالى - كان ومازال خبيرا بصيرا .
أى : محيطا لحاطة تامة بظواهرهم وبواطنهم ، لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء .

وفي هذه الآية الكريمة تسامية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم من أذى ، وتمديد لهم بسوء المصير ، حيث آذوا نبيهم الذى جاء لهدايتهم وسعادتهم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حكمت بعض الشبهات الفاسدة التى تذرع بها الكافرون فى البقاء على كفرهم ، كما حكمت ما اقتضته حكمته - سبحانه - فى إرسال الرسل ، وهددت المصيرين على كفرهم بسوء العاقبة .

ثم ساق - سبحانه - شبهة أخرى من شبهات المشركين التى حكها عنهم كثيرا ، ورد عليها بما يبطلها ، وبين أحوالهم السيئة يوم القيامة ، بعد أن بين أن الهداية والإضلال من شأنه وحده فقال - تعالى -

« وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عَمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا ، وَأَوَّلَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتْ زِدَانُهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاقًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ، إِذَا لَا مُسَكِّتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠) .

وقوله - سبحانه - : ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ، كلام مستأنف منه - تعالى - إيمان بفاذ قدرته ومشيبته .

أى : ومن يهده الله - تعالى - إلى طريق الحق ، فهو الفائز بالسعادة ، المهدى إلى كل مطلوب حسن ، ومن يضلل ، أى : ومن يرد الله - تعالى - لضلالة ، فلن تجد لهم ، أيها الرسول الكريم ، أولياء ، أى : نصراء بنصرتهم إلى طريق الحق ، من دونه ، عز وجل ، إذ أن الله - تعالى - وحده هو الخالق للهداية والضلالة ، على حسب ما تقتضيه حكيمته ومشيبته .

وجاء قوله - تعالى - فهو المهتد ، بصيغة الإفراد حملا على لفظ ، من ، فى قوله ، ومن يهد الله ، وجاء قوله : فلن نجد لهم ، بصيغة الجمع حملا على معناها فى قوله : ، ومن يضلل ،

قالوا : ووجه المناسبة فى ذلك - والله أعلم - أنه لما كان الهدى شيئا غير متشعب السبل ، فاسببه الإفراد ، ولما كان الضلال له طرق متشعبة ، كافى

قوله - تعالى - : « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ، ناسبة الجمع (١)

ثم بين - سبحانه - الصورة الشنيعة التي يحشر عليها الضالون يوم القيامة فقال : « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ، عميا وبكا وصما .. » ،

والحشر : الجمع . يقال : حشرت الجند حشرا . أى جمعتهم . وقوله : « على وجوههم » ، حال من الضمير المنصوب في نحشرهم ، . وقوله : « عميا ، وبكا وصما » ، أحوال من الضمير المستكن في قوله « على وجوههم » . أى : نجمع هؤلاء الضالين يوم القيامة ، حين يقومون من قبورهم ، ونجعلهم - بقدرتنا - يمشون على وجوههم ، أو يسحبون عليها ، إهانة لهم وتعذيبا ، ويكونون في هذه الحالة عميا لا يبصرون ، وبكا لا يتطقون ، وصما لا يسمعون .

قال الألوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم » إما شيئا ، بأن يزحفون منكبين عليها ، ويشهد له ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أنس قال : قيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : الذى أشاهم على أرجلهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، ...

وإما سحبا بأن تجرهم الملائكة منكبين عليها ، كقوله - تعالى - : « يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » ، ويشهد له ما أخرجه أحمد والنسائى والحاكم - وصححه - عن أبى ذر ، أنه فلا هذه الآية . « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم » ، فقال . حدثنى الصادق المصدوق - صلى الله عليه وسلم - أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج طاعمين كاسين راكبين ، وفوج يمسون ويسعون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم ، .

وجاز أن يكون الأمران في حالين : الأول : عند جمعهم وقبل دخولهم النار ، والثاني عند دخولهم فيها ...

ثم قال : وزعم بعضهم أن الكلام على المجاز ، وذلك كما يقال للانصراف عن أمر وهو خائب مهموم : انصرف على وجهه وإياك أن تلتفت إلى - هذا الزعم - أو إلى تأويل نطقت السنة النبوية بخلافه ، ولا تعبأ بقوم يفعلون ذلك ، (١) .

فإن قيل : كيف نوفق بين هذه الآية التي تثبت طهؤلاء الضالين يوم حشرهم للعمى والبكم والصمم ، وبين آيات أخرى تثبت لهم في هذا اليوم الرؤية والكلام والسمع ، كما في قوله - تعالى - : « ورأى المجرمون النار ... » وكما في قوله - سبحانه - : « دعوا هؤلاء ثبوراً » وكما في قوله - عز وجل - : « سمعوا لها نغيظاً وزفيراً » ؟

فالجواب : أن المراد في الآية هنا أنهم يحشرون عمياً لا يرون ما يشعرون ، وبكلاً لا ينطقون بحجة تنفعهم ، وصماً لا يسمعون ما يرضيهم أو أنهم يحشرون كذلك ، ثم تعاد لهم حواسهم بعد ذلك عند الحساب وعند دخولهم النار .

أو أنهم عندما يحشرون يوم القيامة ، ويرون ما يرون من أهوال ، تكون أحوالهم كأحوال العمى الصم البكم ، أعظم حيرتهم ، وشدة خوفهم ، وفراط ذهولهم .

ثم بين - سبحانه - ما لهم بعد الحشر والحساب فقال : « ماوهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً » .

ومعنى : « خبت » هدت وسكن طيبها . يقال : خبت النار تنخبول إذا هاد طيبها . أى : أن هؤلاء المجرمين ما راغم ومسكنهم ومقرهم جهنم ، كلما سكن طيب جهنم وهدأ ، بأن أكلت جلودهم ولحومهم ، زدناهم توقداً ، بأن تبدل جلودهم ولحومهم بجلود ولحوم أخرى ، فتزود النار كما أنها الأولى ملتهم مستعرة .

وخبو النار وسكونها لا ينقص شيئا من عذابهم ؛ وعلى ذلك فلا تعارض بين هذه الآية وبين قوله - عز وجل - فالذين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ، (١) .

وفي هذه الآية ما فيها من عذاب للكافرين تقشعر من هوله الأبدان ، وترتجف من تصويره النفوس والقلوب ، نسأل الله - تعالى - بفضله ورحمته ان يجنبنا هذا المصير المؤلم .

وقوله - عز وجل - : ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا : أنذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا ، بيان للأسباب التي أفضت إلى تلك العاقبة السيئة ،

أى : ذلك الذى نزل بهم من العذاب الشديد ، المتمثل فى حشرهم على وجوههم وفى اشتعال النار بهم ، سببه أنهم كفروا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وقالوا بإنكار وجهالة : أنذا كنا عظاما نخرة ، ورفاتا أى وصارت أجسادنا تشبه التراب فى تفتتها وتسكسرها ، أننا بعد ذلك لمعادون إلى الحياة ومبعوثون على هيئة خلق جديد ،

فالأية الكريمة تحكى تصميمهم على الكفر ، وإنكارهم للبعث والحساب لإنكارهم لأمزيد عليه ، لذا كانت عقوبتهم شنيعة ، وعذابهم ألما ، فقد سلط الله - تعالى - عليهم النار تأكل أجزأهم ، وكلما سكن لهم فيها ، أعادها الله - تعالى - ملتهبة مشتعلة على جلود أخرى لهم ، كما قال - تعالى - : إن الذين كفروا بآياتنا سوف فصلهم نارا ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب

ثم رد - سبحانه - على ما استذكروه من شأن البعث ردا يقنع كل ذى عقل سليم ، فقال - تعالى - : أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم

والهمزة للاستفهام التوبيخي ، وهي داخلة على محذوف ، والمراد بثلمهم لإيائهم ، فيكون المعنى : أعموا عن الحق ، ولم يعلموا كما يعلم العقلاء ، أن الله - تعالى - الذي خلق السموات والأرض بقدرته ، وهما أعظم من خلق الناس ، قادر على إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى بعد موتهم ، لكي يحاسبهم على أعمالهم في الدنيا .

إن عدم علمهم بذلك ، وإنكارهم له ، لمن أكبر الأدلة على جهلهم وانطلاس بصيرتهم ، لأن من قدر على خلق ما هو أعظم وأكبر - وهو السموات والأرض فهو على إعادة ما هو دونه - وهو الناس - أقدر .

قال الشيخ الجمل ما ملخصه : قوله : ، أو لم يروا ، ، هذا رد لإنكارهم البعث ، ولما استبعدوه من شأنه ، يعني أن من خلق السموات والأرض ، كيف يستبعد منه أن يقدر على إعادتهم بأعيانهم . . . وأراد - سبحانه - . . . بثلمهم : إيائهم ، فعبّر عن خلفهم بلفظ المثل كقول المتكلمين : إن الإعادة مثل الابتداء ، وذلك أن مثل الشيء مساو له حاله ، فجاز أن يعبر به عن الشيء نفسه يقال : مثلك لا تفعل كذا ، أي : أنت لا تفعله .

ويجوز أن يكون المعنى أنه - سبحانه - قادر على أن يخلق عبداً غيرهم يوحّدونه ويقرّون بكمال حكمته ، ويتركون هذه الشبهات الفاسدة كما في قوله - تعالى - . . . وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ، والأول أشبه بما قبله (١) ،

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ، بلى إنه على كل شيء قدير ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى ودد الخلاق العليم . . . ، (٣) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٦٥١ .

(٢) سورة الأحقاف الآية ١٢ . (٣) سورة يس الآية ٨١ .

وبعد أن أقام - سبحانه - الدليل الواضح على أن البعث حق ، وعلى أن إعادة الناس إلى الحياة بعد موتهم أمر ممكن ، أتبع ذلك ببيان أن لهذه الإعادة وقتاً معلوماً يجرى به حسب حكمته - تعالى - فقال : . وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه . .

أى : وجعل لهم ميقاتاً محدداً لا شك في حصوله ، وعند حلوله - إذا الميقات يخرجون من قبورهم للحساب والجزاء ، كما قال - تعالى - : وما وما تؤخروه إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنة ، فمنهم شقى وسعيد . .

والجلمة الكريمة وهى قوله : . وجعل لهم . . . معطوفة على قوله : أو لم يروا . . . ، لأنه فى قوة قولك قد رأوا وعلوا .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : علام عطف قوله : . وجعل لهم أجلاً ، ؟ قلت : على قوله : . أو لم يروا ، لأن المعنى : قد علموا بدليل العقل ، أن من قدر على خلق السموات والأرض ، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منهم ، كما قال : أنتم أشد خلقاً أم السماء ، (١) .

وقوله - سبحانه - : فأبى الظالمون إلا كفوراً ، بيان لإصرارهم على جحود الحق مع علمهم بأنه حق .

أى : فأبى هؤلاء الظالمون المنكرون للبعث ، إلا جحوداً له وعناداً لمن دعاهم إلى الإيمان به ، شأن الجاهلين المغرورين الذين استجبوا العمى على الهدى . ثم ختم - سبحانه - الآيات السكرية بأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يجابه هؤلاء الظالمين بما جبلوا عليه من بخل وشح ، بعد أن طلبوا منه ما طلبوا من مقترحات متعنتة ، فقال - تعالى - : قل لو أقمتم لتكون خزائن رحمة ربي إذا لمسكنكم خشية الإنفاق ، وكان الإنسان قتوراً .

والمراد بخزائن رحمة ربي : أرزاقه التى وزعها على عباده ، ونعمه التى أنعم بها عليهم .

« وقتورا ، من التقدير بمعنى البخل . يقال : فتر فلان يقتـر - بضم التاء وكسرها - إذا بالغ في الإمساك والشح .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الظالمين الذين أعرضوا عن دعوتك ، وطالبوك بما ليس في وسعك من تفجير الأرض بالأنهار ، ومن غير ذلك من مقترحاتهم الفاسدة ، قل لهم على سبيل التقرير والتبكيت : لو أنكم تملكون - أيها الناس - التصرف في خزائن الأرض التي وزعها على خلقه ، إذا لبخلتم وأمسكنم في توزيعها عليهم ، مخافة أن يصيبكم الفقر لو أنكم توسعتم في العطاء ، مع أن خزائن الله لا تنفذ أبداً ، ولـكن لأن البخل من طبيعتكم فعلتم ذلك .

قال بعضهم : وقوله : « لو أنتم تملكون ، فيه وجهان : أحدهما : أن المسألة من باب الاشتغال . فأنتم مرفوع بفعل مقدر يفسره هذا الظاهر ، لأن لو لا يليها إلا الفعل ظاهراً أو مضمرأ . فهي كيان في قوله - تعالى - : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ، ، والأصل : لو تملكون ، لحذف الفعل لدلالة ما بعده عليه - والثاني أنه مرفوع بكان ، وقد كثر حذفها بعد لو ، والتقدير : لو كنتم تملكون ... » (١) .

والمقصود بالإمساك هنا : إمساكهم عن العطاء في الدنيا ، وهذا لا يناق قوله - تعالى - : « ولو أن للذين ظلموا مافي الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ... » لأن ذلك حكاية عن أحوالهم في الآخرة عندما يرون العذاب ، ويتمنون أن يفتدوا أنفسهم منه بأي شيء .

وقوله « إذا ، ظرف لـتـملكـون . وقوله « لأمسكنم ، جواب لو ، وقوله « خشية الإنفاق ، علة للإمساك والبخل .

وقوله : « وكان الإنسان قتورا ، أى : مبالغاً في البخل والإمساك .

قال الإمام ابن كثير : واقع - تعالى - يصف الإنسان من حيث هو ، إلا

من وفقه الله وهداه ، فإن البخل والجزع والهلوع صفة له ، كما قال - تعالى - :
 « إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا .
 إلا المصلين ، » .

ولهذا نظائر كثيرة في القرآن الكريم ، وهذا يدل على كرمه - تعالى -
 ولحسناته . وقد جاء في الصحيحين : يد الله مأل لا يفيضها نفقه ، سبحانه الليل
 والنهار ، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يفيض ما في
 يمينه ، (١)

وقال الألوسي : وقد بلغت هذه الآية من الوصف بالشح الغاية القصوى
 التي لا يبلغها الوهم ، حيث أفادت أنهم لو ملأوا خزائن رحمة الله - تعالى -
 التي لا تنتهي ، وانفردوا بملكها من غير مزاحم ، لأمسكوا عن النفقة من غير
 مقتض إلا خشية الفقرا ، وإن شئت فوازن بقول الشاعر :

ولو أن دارك أنبت لك أرضها إبرأ يضيق بها فناء المنزل
 وأتاك يوسف يستمبرك إبرة ليخيط قد قميصه لم تفعل

مع أن فيه من المبالغات ما يزيد على العشرة ، ترى التفاوت الذي
 لا يحصر ... (٢)

ثم بين - سبحانه - ما يدل على أن العبرة في الإيمان ، ليست بعظم الخوارق
 ووضوحها ، وإنما العبرة بتفتح القلوب للحق ، واستعدادها لقبوله ، وساق
 - سبحانه - مثالا لذلك من قصة موسى - عليه السلام - فقد أعطاه من المعجزات
 البينة ما يشهد بصدقه ، ولكن فرعون وجنده لم تزد هم تلك المعجزات إلا كفرا
 وعنادا ، فقال - تعالى - :

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٢٢

(٢) تفسير الألوسي ج ١ ص ١٨١

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، فَاسْتَأْذَنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلْنَا هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ ، وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مَنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَغِيفًا (١٠٤) » .

والمراد بالآيات التسع في قوله - تعالى - : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ... » : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . قال ذلك ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .

وقد جاء الحديث عن هذه الآيات في مواضع أخرى من القرآن الكريم ، منها قوله - تعالى - : « فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ » . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ، (١) .

وقوله - تعالى - : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ ... » (٢) .

وقوله - سبحانه - : « فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ » ، (٣) .

وقوله - عز وجل - : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ، آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ » ، (٤) .

(١) سورة الشعراء الآيةان : ٢٢ ، ٢٣ -

(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٠ (٣) سورة الشعراء الآية ٦٣

والمعنى : لا تظن - أيها الرسول الكريم - أن إيمان هؤلاء المشركين من قومك ، متوقف على إجابة ما طلبوه منك . وما اقترحوه عليك من أن تفجر لهم من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ... الخ . لا تظن ذلك :

فإن الخوارق مهما عظمت لا تنشى . الإيمان في القلوب الجاحدة الحاقدة ، بدليل أننا قد أعطينا أخاك موسى تسع معجزات ، واضحات الدلالة على صدقه في نبوته ، ولاكن هذه المعجزات لم تزد المعاندين من قومه إلا كفرا على كفرهم ورجسا على رجسهم . فأصبر - أيها الرسول - على تعنت قومك وأذاهم ، كما صبر أولوا العزم من الرسل قبلك .

وتحديد الآيات بالتسع ، لا ينبغي أن هناك معجزات أخرى أعطاه الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - إذ من المعروف عند علماء الأصول ، أن تحديد العدد بالذكر ، لا يدل على فني الزائد عنه .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : وهذا القول - المروى عن ابن عباس وغيره - ظاهر جلي حسن قوى ... فهذه الآيات التسع ، التي ذكرها هؤلاء الأئمة ، هي المرادة هنا ...

وقد أوتي موسى - عليه السلام - آيات أخرى كثيرة منها : ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه ... وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، وليكن ذكر هنا هذه الآيات التسع التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر وكانت حجة عليهم خالفوها وعاندوها كفرا وجحدا .

ثم قال : وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة ، قال : سمعت عبد الله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسال المرادي قال : قال يهودى لصاحبه : أذهب بنا إلى هذا النبي حتى نسأله عن هذه الآية : ، ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... ، فسألاه : فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - :

لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله
إلا بالحق ، ولا تسحرُوا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان
ليقتله ، ولا تغدقوا عصنة ، ولا تفروا من الزحف... فقبلا يديه ورجليه... ،

ثم قال : « أما هذا الحديث فهو حديث مشكل . وعبد الله بن سلمه في
حفظه شيء . ، وتكلموا فيه ، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات ، بالعشر السكيات ،
فإنها وصايا في التوراة ، لا تعلق لها بقيام الحجّة على فرعون ... » (١)

والحق أن مرجعه الإمام ابن كثير من أن المراد بالآيات التسع هنا :
ما آتاه الله - تعالى - أنبياه موسى - عليه السلام - من العصا ، واليد ... هو
الذي تسكن إليه النفس ، لأن قوله - تعالى - بعد ذلك : « قال لقد علمت ما أنزل
هو لا . إلا رب السموات والأرض بصائر ... » ، يؤيد أن المراد بها ما تقدم
من العصا ، واليد ، والسنين ... ، ولأنها هي التي فيها الحجج ، والبراهين
والمعجزات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - . أما تلك الوصايا التي
وردت في الحديث فلا علاقة لها بقيام الحجّة على فرعون - كما قال الإمام
ابن كثير - .

هذا ، والخطاب في قوله - تعالى - : « فأسأل بني إسرائيل إذ جاءهم ، يرى
بعضهم أنه للنبي - صلى الله عليه وسلم - . والمسئولون هم المؤمنون من بني إسرائيل
كعبد الله بن سلام وأصحابه .

وعلى هذا التفسير يكون قوله « إذ جاءهم » ظرف لقوله « آتينا » ، وجمله
« فأسأل بني إسرائيل » معترضة بين العامل والمعمول .

والمعنى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، وقت أن أرسله الله - تعالى -
إلى فرعون وقومه ، فأسأل - أيها الرسول الكريم - المؤمنين من بني إسرائيل

عن ذلك ، فستجد منهم الجواب عما جرى بين موسى وأعدائه عن طريق ما طالعوه في التوراة .

والمقصود بسؤالهم : الاستمهاد بهم حتى يزداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم ، لأن من شأن الأدلة إذا تضافرت وتعددت ، أن تكون أقوى وأثبت في تأييد المدعى .

قال الآلوسى : والمعنى ، فاسأل يا محمد مؤمنى أهل الكتاب عن ذلك ، إما لأن تظاهر الأدلة أقوى - في التثبيت - ، وإما من باب التهييج والإلهاب ، وإما للدلالة على أنه أمر محقق عندهم ثابت في كتبهم . وليس المقصود حقيقة السؤال . بل كونهم - أعني المسئولين - من أهل علمه ، ولهذا يؤمر مثلك بسؤالهم ، (١)

ويتلوه آخرون أن الخطاب لموسى . عليه السلام . ، وعليه يكون السؤال إما بمعناه المشهور أو بمعنى الطلب ، ويكون قوله : إذ جاءهم ، ظرفاً لفعل مقدر .

والمعنى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، رقلنا له حين يحييه إلى بنى إسرائيل : إسا لهم عن أحوالهم مع فرعون ، أو أطلب منهم أن يؤمنوا بك ويصدقوك ، ويخرجوا معك حين تطلب من فرعون ذلك .

والفاء في قوله : ، فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً ، هي الفصيحة . إذ المعنى : فامتثل موسى أمرنا ، وسأل بنى إسرائيل عن أحوالهم ، وطالب من فرعون أن يرسلهم معه ، بيد أن أظهر له من المعجزات ما يدل على صدقه ، فقال فرعون لموسى على سبيل التعالى والتهوين من شأنه - عليه السلام - : يا موسى إني لأظنك مسحوراً .

أى : سحرت غفواط عقلك واختل ، وصرت تتصرف تصرفاً يتنافى مع العقل السليم ، وتدعى دعاوى لاتدل على تفكير قوي .

فقوله « مسحورا » اسم مفعول . يقال : سحر فلان فلانا يسحره سحرا فهو مسحور ، إذا اختلط عقله .

ويجوز أن يكون قوله « مسحورا » بمعنى ساحر ، فيكون المعنى : إني لأظنك يا موسى ساحرا ، عليهما يفتنون السحر فقد أنيت بأشياء عجيبة يشير بذلك إلى إنقلاب العصا حية بعد أن ألقاها - عليه السلام - .

وهذا شأن الطغاة في كل زمان ومكان ، عندما يرون الحق قد أخذ يحاصرهم ، ويكشف عن ضلالهم وكذبهم ، يرمون أهله - زورا وبهتانا - بكل تقيصه .

وهنا يحكي القرآن الكريم ما رد به موسى على فرعون فيقول : « قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر .

أى : قال موسى لفرعون ردا على كذبه وافتراءه : لقد علمت يا فرعون أنه ما هذه الآيات التسع إلا الله - تعالى - خالق السموات والأرض ، وقد أوجدها - سبحانه - بصورة واضحة جليلة ، حتى لا تكتمها البصائر في كشفها للحقائق وتجليتها .

فقوله « بصائر » ، حال من « هؤلاء » ، أى : أنزل هذه الآيات حال كونها بينات واضحات تدلك على صدقي .

وفي هذا الرد توبيخ لفرعون على تجاهله الحقائق ، حيث كان يعلم علم اليقين أن موسى - عليه السلام - ليس مسحورا ولا ساحرا ، وأن الآيات التي جاء بها إنما هي من عند الله - تعالى - ، كما قال - سبحانه - : مخاطبا موسى : وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، في تسع آيات إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قوما فاسقين ، فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ، قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، (١) .

وقوله : «ولاني لأظنك يا فرعون مشورا ، توبيخ آخر لفرعون ، وتهديده
لأنه وصف واحدا من أنبياء الله - تعالى - بأنه مسحور .

ومشورا بمعنى المهلك مدمر . يقال : نبر الله - تعالى - الظالم يشبه ثبورا ،
إذا أهلكه .

أو بمعنى مصروفا عن الخير . مطبوعا على الشر ، من قولهم : ماثبرك يا فلان
عن هذا الأمر ؟ أي : ما الذي صرفك ومنعك عنه .

والظن هنا بمعنى اليقين ، والمعنى : ولاني لأعتقد يا فرعون أن مصيرك إلى
الهلاك والتدمير ، بسبب إصرارك على الكفر والطغيان ، من بعد إتياني
بالمعجزات الدالة على صدقي فيما أبلغنه عن ربي الذي خلقني وخلقك وخلق
كل شيء .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما هم به فرعون ، بعد أن أخرسه موسى - عليه
السلام - بقوة حجته ، وثبات جناحه فقال : فأراد أن يستفزهم من الأرض ..
والاستفزاز : الإزعاج والاستخفاف ، والمراد به هنا الطرد والقتل .

والضمير المنصوب في « يستفزهم » ، يعود إلى موسى وقومه بني إسرائيل .
أي : فأراد فرعون بعد أن وبخه موسى وهدده ، أن يطرده وقومه من
أرض مصر التي يسكنون معه فيها ، وأن يقطع دابرهم ، كما أشار إلى ذلك
- سبحانه - في قوله : « وقال الملامن قوم فرعون أذرن موسى وقومه ليفسدوا
في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم ولنا فوقهم
قاهرون » .

ثم حكى - سبحانه - ما ترتب على ما أراده فرعون من استفزاز لموسى
وقومه فقال : « فأغرقناه ومن معه جميعا . وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا
الأرض ... »

أى : أراد فرعون أن يطرد موسى وقومه من أرض مصر ، وأن يهلكهم ..
فكانت النتيجة أن عمكسنا عليه مكره وبغيه ، حيث أهلكتناه هو وجنده
بالفرق ، دون أن نستثنى منهم أحدا .

وقلنا من بعد هلاكه لبني إسرائيل على لسان نبينا موسى - عليه السلام - :
اسكنوا الأرض التي أراد أن يستفزكم منها فرعون وهي أرض مصر .

قال الألوسي : وهذا ظاهر إن ثبت أنهم دخلوها بعد أن خرجوا منها ،
وبعد أن أغرق الله فرعون وجنده . وإن لم يثبت فالمراد من بني إسرائيل
ذرية أولئك الذين أراد فرعون استفزازهم . واختار غير واحد أن المراد
من الأرض . . الأرض المقدسة ، وهي أرض الشام ،^(١) .

وعلى أية حال فالآية الكريمة تحكى سنة من سنن الله - تعالى - في إهلاك
الظالمين ، وفي توريث المستضعفين الصابرين أرضهم وديارهم .

ورحم الله الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : وفي هذا
بشارة لمحمد - صلى الله عليه وسلم - بفتح مكة . مع أن هذه السورة نزلت قبل
الهجرة ، وكذلك وقع ، فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول - صلى الله عليه
وسلم - منها ، كما قال - تعالى - : . . وإن كادوا يستفزوك من الأرض
ليخرجوك منها . . . ولهذا أورث الله - تعالى - رسوله مكة ، فدخلها ، وقهر
أهلها ، ثم أطلقهم حلما وكرها ، كما أورث الله القوم الذين كانوا مستضعفين
من بني إسرائيل ، مشارق الأرض ومغاربها . وأورثهم بلاد فرعون . . .^(٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بقوله : . . فإذا جاء وعد الآخرة
جئنا بكم لفيفا . . .

أى : فإذا جاء وعد الدار الآخرة ، أى : الموعد الذى حددته الله - تعالى -

(١) تفسير الألوسي ١٥ ص ١٨٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٢٤ .

لقيام الساعة ، أحييناكم من قبوركم ، وجئنا بكم جميعا أنتم وفرعون وقومه
مختلطين أنتم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم بحكمنا العادل .
واللغيف : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ومعناه الجماعة التي اجتمعت
من قبائل شتى .

يقال : هذا طعام لغير ، إذا كان مخلوطا من جنسين فصاعدا .
وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكمت لنا جانبا مما دار بين موسى - عليه
السلام - وبين فرعون من محاورات ومجادلات ، وبينت لنا سعة سنن الله - تعالى -
التي لا تتخلف في نصرة المؤمنين ، ودحر الكافرين ،
ثم عادت السورة الكريمة إلى التنويه بشأن القرآن الكريم ، وأثبتت على
المؤمنين من أهل الكتاب الذين تأثروا تأثرا بليغا عند سماعه ، فقال - تعالى - :

« وبالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا
وَنَذِيرًا (١٠٤) وَقرآنًا فَرَقْنَاهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ، وَنُرَتِّلَهُ
تَتْلِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ
قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ
رَبِّنَا إِنَّ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ
ويزيدهم خشوعًا (١٠٩) .

قال الألوسي : قوله - تعالى - : « وبالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ » ، عود إلى
شرح حال القرآن الكريم ، فهو مرتبط بقوله : « لئن اجتمعت الإنس والجن
على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » ، وهكذا طريقة العرب في
كلامها ، تأخذ في شيء وتستطرد منه إلى آخر ، ثم إلى آخر ، ثم إلى آخر ،
ثم تعود إلى ما ذكرته أولا ، والحديث شجون (١)

والمراد بالحق الأول : الحكمة الإلهية التي اقتضت إنزاله ، والمراد بالحق الثاني : ما اشتمل عليه هذا القرآن من عقائد وعبادات وآداب وأحكام ومعاملات ...

والبناء في الموضوعين للملابسة ، والجار والمجرور في موضع الحال من ضمير القرآن الذي دل الكلام على أن الحديث عنه .

والمعنى : وإن هذا القرآن ما أنزلناه إلا ملتبسا بالحق الذي تقتضيه حكمتنا ، وما أنزلناه إلا وهو مشتمل على كل ما هو حق من العقائد والعبادات وغيرهما . فالحق سداه ولحمته ، والحق مادته وغايته .

قال بعض العلماء : بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة ، أنه أنزل هذا القرآن بالحق ، أى : ملتبسا به متضمنا له ، فمكل ما فيه حق ، فأخباره صدق . وأحكامه عدل ، كما قال - تعالى - : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته ... » وكيف لا ، وقد أنزله - سبحانه - بهلته ، كما قال - تعالى - : « لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيذا ، »

وقوله « وبالحق نزل » يدل على أنه لم يقع فيه تغيير ولا تبديل في طريق إنزاله ، لأن الرسول المؤمن على إنزاله قوى لا يغلب عليه ، حتى يغير فيه ، أمين لا يغير ولا يبدل ، كما أشار إلى هذا - سبحانه - بقوله : « إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين » (١) .

وقوله - سبحانه - : « وما أرسلناك إلا مبشرا ونذير ، ثناء على الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي نزل عليه القرآن ، بعد الثناء على القرآن في ذاته .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلا مبشرا لمن أطاعنا

(١) أضواء البيان - ص ٥٧٥ . للشيخ محمد الأمين الشيقطى رحمه الله .

بالثواب ، وإلا منذرا لمن عصانا بالعقاب . ولم نرسلك لتخلق الهداية في القلوب ، فإن ذلك من شأن الله تعالى .

ثم بين - سبحانه - الحكم التي من أجلها أنزل القرآن مفصلا ومنجما ، فقال : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » .
ولفظه : « قرآنا ، منصوب بفعل مضمر أى : وآتيناك قرآنا .
وقوله : « فرقناه ، أى : فصلناه ، أو فرقنا فيه بين الحق والباطل . أو أنزلناه منجما مفرقا .

قال الجمل : وقراءة العامة « فرقناه ، بالتخفيف . أى : بينا حلاله وحرامه

وقرأ على جماعة من الصحابة وغيرهم بالتشديد وفيه وجهان : أحدهما : أن التضعيف للتكثير . أى : فرقنا آياته بين أمر ونهى وحكم وأحكام ، ومواعظ وأمثال وقصص وأخبار . والثاني : أنه دال على التفريق والتنجيم ، (١)

وقوله « على مكث ، أى : على تؤدة وتمهل وحسن ترتيب ، إذ المسك التلبث في المكان ، والإقامة فيه انتظارا لآمر من الأمور .

والمعنى : « لقد أنزلنا إليك - أيها الرسول - هذا القرآن ، مفصلا في أوامره ونواهيه ، وفي أحكامه وأمثاله . . . ومنجما في نزوله لكي تقرأه على الناس على تؤدة وقآن وحسن ترتيب ، حتى يتيسر لهم حفظه بسهولة ، وحتى يتمكنوا من تطبيق تشريعاته وتوجيهاته تطبيقا عمليا دقيقا .

وهكذا فعل الصحابة - رضى الله عنهم - : فإنهم لم يكن القرآن بالنسبة لهم ممتعة عقلية ونفسية خصب ، وإنما كان القرآن بجانب حبهم الصادق لقراءته وللاستماع إليه منهجا لحياتهم ، ويطبقون أحكامه وأوامره ونواهيه وآدابه . . . في جميع أحوالهم الدينية والدنيوية .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرءوننا القرآن ، أنهم كانوا يستقرئون عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يتركوها حتى يعملوا بما فيها ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا ، .
وقوله - سبحانه - : ونزلناه تنزيلا ، أى : ونزلناه تنزيلا مفرقا منجما عليك يا محمد فى مدة تصل إلى ثلاث وعشرين سنة ، على حسب ما تقتضيه حكمتنا ، وعلى حسب الحوادث والمصالح ، وليس من أجل تيسير حفظه لحب .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يخاطب المشركين بما يدل على هوان شأنهم . وعلى عدم المبالاة بهم ، فقال - تعالى - : قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين . الذين طلبوا منك ما هو خارج عن رسالتك ، والذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين : قل لهم : آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به ، لأن إيمانكم به ، لا يزيدكم كلالا ، وعدم إيمانكم به لا ينقص من شأنه شيئا ، فإن علماء أهل الكتاب الذين آتاهم الله العلم قبل نزول هذا القرآن ، وميزوا بين الحق والباطل ، كانوا إذا تلى عليهم هذا القرآن ، - كأمثال عبد الله بن سلام وأصحابه يخرون للأذقان سجدا ، أى : يسقطون على وجوههم ساجدين لله - تعالى - شكرا له على لإنجاز وعده ، بإرسالك - أيها الرسول الكريم - وبإنزال القرآن عليك ، كما وعد بذلك - سبحانه - فى كتبه السابقة ،

فأجمله السكرية : : إن الذين أوتوا العلم . . . ، تعليل لعدم المبالاة بهؤلاء المشركين الجاهلين ، والضمير فى قوله : : من قبله ، يعود إلى القرآن الكريم .
وقوله : : يخرون للأذقان سجدا ، يدل على قوة إيمانهم ، وعلى سرعة تأثرهم بهذا القرآن ، فهم بمجرد تلاوته عليهم ، يسقطون على وجوههم ساجدين لله - تعالى - .

وخصت الأذقان بالذكر ، لأن الذقن أول جزء من الوجه يقرب من الأرض عند السجود ، ولأن ذلك يدل على نهاية خضوعهم لله - تعالى - وتأثرهم بسماع القرآن الكريم :

ثم حكى - سبحانه - ما يقولونه في سجودهم فقال : « ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا » .

أى : ويقولون في سجودهم ، نزه ربنا - عز وجل - عن كل ما يقوله الجاهلون بشأنه ، إنه - تعالى - كان وعده منجزا ومحققا لا شك في ذلك .

ثم كرر - سبحانه - مدحه لهم فقال : ويخرون للأذقان يبكون ، ويزيدهم أى سماع القرآن ، خشوعا ، وخضوعا لله - عز وجل - .

وكرر - سبحانه - خروهم على وجوههم ساجدين لله - تعالى - لا اختلاف السبب ، فهم أولا أسرعوا بالسجود لله تعظيما له - سبحانه - وشكرا له على لإنجازه لو وعده .

وهم ثانيا أسرعوا بالسجود ، لفرط تأثرهم بمواعظ القرآن الكريم . فأنت ترى هاتين الآيتين قد أمرنا النبي - صلى الله عليه وسلم - بالإعراض عن المشركين ، وباحتقارهم وبازدراء شأنهم ، فإن الذين هم خير منهم وأفضل وأعلم قد آمنوا .

وفي ذلك ما فيه من النسبية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكان الله - تعالى - يقول له : يا محمد نسل عن إيمان هؤلاء الجملاء ، بإيمان الصلحاء .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هاتين الآيتين أن البكاء من خشية الله ، يدل على صدق الإيمان ، وعلى نقاء النفس ، ومن الأحاديث التى وردت فى فضل ذلك ، ما أخرجه الترمذى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : عيمان لا تمسهما النار : عين بكى من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بآيتين دالتين على تفرده - سبحانه -
بالقدّيس والتعظيم والتحميد والعبادة، فقال - تعالى - :

« قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ، أَيَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى
وَلَا تُجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُتُمْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ، وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا (١١١) .

ذكر المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - : قل ادعوا الله أو ادعوا
الرحمن أياما تدعوا قله الأسماء الحسنى .. ، ذكروا روايات منها : ما أخرجه
ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة
ذات يوم فدعا الله - تعالى - فقال : يا الله ، يا رحمن ، فقال المشركون : أنظروا إلى
هذا الصابيء ينهانا أن ندعو لإلهين فنزلت (١)

ومعنى : ادعوا . سمعوا ، وأو ، للتخيير . وأيا ، لإسم شرط جازم
منصوب على المفعولية بقوله : ادعوا ، والمضاف إليه محذوف ، أي :
أي : الأسمين . وتدعو ، مجزوم على أنه فعل الشرط لقوله « أيا » ، وجملة « فله
الأسماء الحسنى » واقعة موقع جواب الشرط ، و « ما » ، مزيدة للتأكيد .
والحسنى : مؤنث الأحسن الذي هو أفعل تفضيل .

والمعنى : قل يا محمد للناس : سموا المعبود بحق بلفظ الله أو بلفظ الرحمن
بأي واحد منهما سميتوه فقد أصبحتم ، فإنه - تعالى - له الأسماء الأحسن من
كل ما سواه وقال - سبحانه - : « فله الأسماء الحسنى » ، للبالغ في كمال أسمائه
- تعالى - للدلالة على أنه ما دامت أسماؤه كلها حسنة ، فلفظه الرحمن كذلك ،
كل واحد منهما حسن .

وقد ذكر الجلالان عند تفسيرهما لهذه الآية ، أسماء الله الحسنى ، فارجع إليها إن شئت (١) .

وقوله - سبحانه - : ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ولا يتغ بين ذلك سبيلا ، تعليم من الله - تعالى - لتبنيه كيفية أفضل طرق القراءة في الصلاة . فالمراد بالصلاة هنا : القراءة فيها . والجهر بها : رفع الصوت أثناءها والمخافتة بها : خفضه بحيث لا يسمع . يقال : خفت الرجل بصوته إذا لم يرفعه والكلام على حذف مضاف .

والمعنى : ولا تجهر يا محمد في قراءتك خلال الصلاة ، حتى لا يسمعها المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها ، حتى لا يسمعها من يكون خلفك ، بل أملك في ذلك طريقا وسطا بين الجهر والمخافتة . وما يدل على أن المراد بالصلاة هنا : القراءة فيها ، ما رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عباس .

قال : نزلت ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - مخفف بمكة : فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون ، سبوا القرآن ، ومن أنزله ، ومن جاء به ، فأمره الله بالتوسط .

وقيل . المراد بالصلاة هنا : الدعاء . أى : لا ترفع صوتك وأنت تدعو الله ولا تخافت به . وقد روى ذلك عن عائشة ، فقد أخرج الشيخان عنها أنها نزلت في الدعاء .

ويبدو لنا أن التوجيهات التي بالآية الكريمة تتسع لاقولين ، أى : أن على المسلم أن يكون متوسطا في رفع صوته بالقراءة في الصلاة ، وفي رفع صوته حال دعائه .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية : : وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ، ... ،

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - الحق الكامل ، والثناء الجميل ، لله - تعالى - وحده : الذى لم يتخذ ولدا ، لأنه هو الغنى ، كما قال - تعالى - : قالوا اتخذ الله ولدا ، سبحانه هو الغنى ، له فى السموات وما فى الأرض . . . (١)

د ولم يكن له ، - سبحانه - د شريك فى الملك ، بل هو المالك لكل شىء ، ليس له فى هذا الكون من يزاحمه أو يشاركه فى ملكه أو فى عبادته . كما قال - تعالى - : د قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، .

وكما قال - عز وجل - : ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذا ذهب كل إله بما خلق ، ولعل بعضهم على بعض ، سبحانه الله عما يصفون (٢) . د ولم يكن له ولى من الدن ، أى : ولم يكن له - سبحانه - ناصر ينصره من ذل أصابه أو نزل به ، لأنه - عز وجل - هو أقوى الأقوياء ، وقاهر الجبابرة ، ومذل الطغاة ، د ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، .

د وكبره تكبيرا ، أى : وعظمه تعظيما تاما كاملا ، يليق بجلاله عز وجل . قال الإمام ابن كثير : عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يعلم أهله كبيرهم وصغيرهم هذه الآية . د الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا . . . (٣)

ثم قال ابن كثير : وقد جاء فى حديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سماها آية العز (٤) .

وبعد فهذا تفسير لسورة الإسراء نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا

(١) سورة يونس الآية ٦٨ (٢) سورة الإسراء الآية ٤٢ ، ٤٣

(٣) سورة المؤمنون الآية ٩١ (٤) تفسير ابن كثير ج ٢٠ ص ١٣٩

لوجهه ، ونافعا لعباده ، وشافعا لنا ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر
يومئذ لله . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجي عفوره

محمد سيد طنطاوى

المدينة المنورة - مساء الخميس ١٥ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٤ هـ

الموافق ١٦ من فبراير سنة ١٩٨٤ م

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الإسراء »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة ...	٣
١	سبحان الذى أسرى ...	١٤
٢	وآتيناه موسى الكتاب ...	٢٣
٣	ذرية من حملنا مع نوح ...	
٤	وقضينا إلى بنى إسرائيل ...	٢٥
٥	فإذا جاء وعد أولاهما ...	
٦	ثم رددنا لكم الكرة ...	
٧	إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ...	
٨	عسى ربكم أن يرحمكم ...	
٩	إن هذا القرآن يهدى ...	٤٢
١٠	وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ...	
١١	ويدع الإنسان بالشر ...	
١٢	وجعلنا الليل والنهار آيتين ...	٤٧
١٣	وكل إنسان ألزمناه ...	
١٤	اقرأ كتابك كفى ...	
١٥	من اهتدى فإنما يهتدى ...	
١٦	وإذا أردنا أن نهلك ...	٥٦
١٧	وكم أهلكنا من القرون ...	
١٨	من كان يريد العاجلة ...	
١٩	ومن أراد الآخرة ...	
٢٠	كلا نعد هؤلاء وهؤلاء ...	
٢١	انظر كيف فضلنا ...	
٢٢	لا تجعل مع الله إلها آخر ...	
٢٣	وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ...	٦٧

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٢٤	واخفض لهما جناح الذل ...	٧٩
٢٥	ربكم أعلم بما في نفوسكم ...	
٢٦	وآت ذا القربى حقه ...	
٢٧	إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ...	
٢٨	وإما تعرضن عنهم ابتغاء ...	
٢٩	ولا تحمل يدك مغلولة ...	
٣٠	إن ربك يبسط الرزق ...	
٣١	ولا تقتلوا أولادكم ...	٨٦
٣٢	ولا تقربوا الزنا ...	
٣٣	ولا تقتلوا النفس ...	
٣٤	ولا تقربوا مال اليتيم ...	
٣٥	وأوفوا السكيل إذا كنتم ...	
٣٦	ولا تقف ما ليس لك به علم ...	
٣٧	ولا تمش في الأرض مرحا ...	
٣٨	كل ذلك كان سيئه ...	
٣٩	ذلك بما أوحى إليك ربك ...	
٤٠	أفأصفاكم ربكم بالبنين ...	١١١
٤١	ولقد صرفنا في هذا القرآن ...	
٤٢	قل لو كان ممه آلهة ...	
٤٣	سبحانه وتعالى عما يقولون ...	
٤٤	لسبيح له السموات السبع ...	
٤٥	وإذا قرأت القرآن ...	١١٩
٤٦	وجعلنا على قلوبهم أكنة ...	
٤٧	نحن أعلم بما يستمعون به ...	
٤٨	انظر كيف ضربوا ...	
٤٩	وقالوا أفذا كنا عظاما ...	١٢٦
٥٠	قل كونوا حجارة أو حديدًا ...	

رقم الآية	الآية المفصلة	رقم الصفحة
٥١	أو خلقا حتى يكبر في صدوركم ...	
٥٢	يوم يدعوك فتستجيبون ...	
٥٣	وقل لعبادي يقولوا ...	١٣١
٥٤	ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم ...	
٥٥	وربك أعلم بمن في السموات والأرض ...	
٥٦	قل أدعوا الذين زعمتم ...	
٥٧	أولئك الذين يدعون ...	
٥٨	وإن من قرية إلا نحن مهلكوها ...	١٣٩
٥٩	وما ننمنا أن نرسل بالآيات ...	
٦٠	وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ...	
٦١	وإذ قلنا للملائكة اسجدوا ...	١٤٩
٦٢	قال أرايتك هذا ...	
٦٣	قال أذهب فمن نبيك ...	
٦٤	واستفز من استطعت ...	
٦٥	إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ...	
٦٦	ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر ...	١٥٧
٦٧	وإذا مسكم الضر في البحر ...	
٦٨	أفأمنتم أن يخسف ...	
٦٩	أم أمنتم أن يبيدكم فيه ...	
٧٠	ولقد كررنا بني آدم ...	١٦٣
٧١	يوم ندعو كل أناس ...	
٧٢	ومن كان في هذه أعمى ...	
٧٣	وإن كادوا ليفتنونك ...	١٦٩
٧٤	ولولا أن ثبتناك ...	
٧٥	إذا لاذقناك ضعف الحياة ...	
٧٦	وإن كادوا ليستفزونك ...	
٧٧	سنة من قد أرسلنا ...	

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٧٨	أقم الصلاة لذالك ...	١٧٥
٧٩	ومن الليل فتهجد به ...	
٨٠	وقل رب أدخاني مدخل صدق ...	
٨١	وقل جاء الحق وزهق الباطل ...	
٨٢	وننزل من القرآن ...	١٨٥
٨٣	وإذا أنعمنا على الإنسان ...	
٨٤	قل كل يعمل على شاكته ...	
٨٥	ويسألونك عن الروح ...	١٩٠
٨٦	ولئن شئنا لنذهبن ...	
٨٧	إلا رحمة من ربك ...	
٨٨	قل لئن اجتمعت الإناس ...	
٨٩	ولقد صرفنا للناس في هذا ...	
٩٠	وقالوا لن نؤمن بك ...	١٩٩
٩١	أو تكون لك جنة من ...	
٩٢	أو تسقط السماء كما زعمت ...	
٩٣	أو يكون لك بيت من زخرف ...	
٩٤	وعمانع الناس أن يؤمنوا ...	٢٠٥
٩٥	قل لو كان في الأرض ...	
٩٦	قل كفى بالله شهيدا ...	
٩٧	ومن يهد الله فهو المهتد ...	٢٠٩
٩٨	ذلك جزاؤهم بأنهم ...	
٩٩	أو لم يروا أن الله الذي خلق ...	
١٠٠	قل لو أنتم تعلمون ...	
١٠١	ولقد آتينا موسى تسع ...	
١٠٢	قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء ...	٢١٧
١٠٣	فأراد أن يستفهم من الأرض ...	

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
١٠٤	وقلنا من بعد لبني إسرائيل . . .	
١٠٥	وبالحق أنزلناه وبالحق نزل . . .	٢٢٤
١٠٦	وقرآنا فرقناه . . .	
١٠٧	قل آمنوا به أو لا تؤمنوا . . .	
١٠٨	ويقولون سبحان ربنا . .	
١٠٩	ويخرجون للأذقان يكون . . .	
١١٠	قل أدعوا الله أو أدعوا الرحمن . . .	٢٢٩
١١١	وقل الحمد لله الذي لم يتخذ . . .	